(١٣٠٦-١٣٧٥هـ
١٨٨٩-١٩٥٥م)

محمد رضوان الداية

محمد البزم

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

محمد البزم

(في كهولته)

تقديم

د. مازن المبارك

عضو المجمع

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم المرسلين.

اللهم يسّر أمرنا، وارحمنا وارحم معلّمينا وأصحاب الحقوق علينا، ولا تؤاخذنا بما نسينا أو أخطأنا، واغفر لنا ما قدّمنا وما أخّرنا، وما أسررنا وما أعلنّا، وما أنت أعلم به منا، سبحانك إنك أنت العفوّ الكريم.

وبعد، فقد عرفت الأستاذ البزم وأنا في مفتتح الصبا أرافق والدي إلى بعض مجالس زملائه، وكانت لهم جلسات أسبوعية يحلو لهم فيها السمر والمذاكرات العلمية والمناقشات الأدبية. ثم زادت معرفتي به حين جاءنا مدرّسًا في ثانوية جودة الهاشمي في الأشهر الأخيرة من خدمته في التعليم قبل إحالته على التقاعد. وما زلت أذكر زيارتي له حين قرأ أو قرئت له – كما قال لي- كلمة كتبتُها عنه في جريدة «العلَم» تحت عنوان «كتاب مفتوح إلى وزير المعارف» وكان وزيرها على ما أذكر الدكتور منير العجلاني. وكانت مناسبتها أنني رأيت الأستاذ البزم يمشي في طريق الصالحية ولم تكن هيئته تسرّ شكلًا وضعفًا وهزالًا، إنه:

جسدٌ مزّقته كفُّ الليالي بنبال الأذى فعاد نُدوبا

وكنت طالبًا في المعهد العالي للمعلّمين فكتبت تلك الرسالة، أذكر فيها أنني رأيت في أستاذي مستقبلي ومستقبل زملائي في دار المعلّمين، ولم تكن صورة مستقبلنا تبشّر بالخير أو تشجع على احتراف مهنة التعليم إذا كنا سنُترك على الصورة التي رأيت عليها أستاذي البزم، وطالبت بأن تعيّنه الوزارة «مفتيًا للغة العربية في إذاعة دمشق» وهي وظيفة يستطيع القيام بها مِن منزله، وتُقرأ له نشرة الأخبار، ويُستفتى في اللغة على الهاتف، وبذلك يبقى في عيشٍ كريم، وتعافى لغة الإذاعة من أمراضها الكثيرة على ألسن المذيعين والمذيعات....

قُرئت تلك الرسالة آنذاك للأستاذ البزم، فاستدعاني إلى منزله، ودار بيننا حديث طويل عن صلته بوالدي وبشقيقي، وكان الرجل صادقًا وصريحًا... وعرض عليّ أن أقرأ عليه كتاب مغني اللبيب، فشكرته وسعدتُ بعَرضه، ووعدته أن أباشر ذلك فور انتهاء الامتحان، وكنا في نهاية العام الدراسي، ولكن وطأة المرض ونقله إلى المستشفى حالا دون ذلك فخسرت عِلمًا لا يُعوّض، ثم توفي فخسره العلم والأدب، وخسره الشعر واللغة.

وقلّ من العلماء من اتفق الناس على رأيٍ واحد فيهم! واختلاف الآراء فيهم هو نفسه دليل على أن أحدهم بلغ من العلم ومن التأثير في حياة الناس مبلغًا جعل لهم رأيًا فيه وحكمًا عليه. وينطبق هذا على القدماء والمحدَثين من الرجال ذوي القدر في كل ميدان. وقد كان أستاذنا المجمعي محمد البزم – رحمه الله– واحدًا من هؤلاء، اختلفت آراء الناس فيه في حياته، وظلت مختلفة بعد وفاته. وهو لو لم يكن ذا صفات يقدّرها الناس لما وقفوا عندها، ولما تحدّثوا عنها، ولما حكموا عليه من خلالها!

إنه رجل عصامي يبلغ من العلم:

- ما يجعله في مجتمعه مدرّسًا في «مكتب عنبر» المدرسة الأولى في الدولة، والتي

تضم كبار العلماء المختصين في كل علم.

- وما يجعله عضوًا في المجمع العلمي العربي (مجمع اللغة العربية)، ولم يكن يضمّ إلا نخبة قليلة من العلماء.
- وما يجعله واحدًا من رجالات النحو بل من أشهرهم، وعلَمًا من أعلام الشعر في المناسبات الوطنية والقومية.

وليس من شرط الرجولة أن يكون الناس جميعًا معترفين لصاحبها بكل صفاتها، وقد كان الأستاذ البزم رجلًا يعرف قدر رجولته، ويقدّرها حق قدرها، اعتدادًا بالنفس، واعتزازًا بالعلم، وفخرًا بالعروبة، وإباء وشموخًا وترفّعًا وعنفوانًا.

لقد كان الأستاذ البزم واحدًا من العلماء الذين يشار إليهم في بلدهم، وكان متميّزًا بشدّة الاعتداد بنفسه وبعلمه وبشعره، معتزًّا بوطنه وتاريخه وعروبته، إنه رجل:

سامه الدهر خضوعًا فأبى ودعاه للمعالي فحبا

عَشِق المجد وليدًا فمشى نحو إدراك المنى فانجذبا

وأحبّ الإسلام وناجى الرسول ﷺ، وله في ذلك قصيدة مطلعها:

محمدُ إن الشعر عنك لقاصرٌ وشأوُ بياني دون ما أنا طالبُه

ولكنه مثل كثير من الرجال الذين يرون أنهم يستحقّون أكثر مما لقُوه من دهرهم وأهله، وأنهم حُسِدوا فعُودوا، ولعلّه كان يلاقي ما لاقاه لما يتصف به من صلابة وعنفوان.. وكأني بهذا التنكّر له يلاحقه بعد موته؛ فلقد قلّ الاستشهاد بشعره في كتب المحدَثين! حتى إن كثيرين ممن كتبوا عن الشعر السوري في العصر الحديث أو الشعر العربي في سورية، بمناسبة تسمية دمشق عاصمة للثقافة سنة ٢٠٠٨ لم يذكروه نسيانًا أو إهمالًا !! على حين أن الدكتور شوقي ضيف ذكره في بعض كتبه واستشهد بشعره! أنقول إن المحدَثين من المعاصرين آثروا اللغة السهلة الرقيقة

فقدّموا أصحابها، وتركوا الذين يذكّرونهم بلغة القدماء الفخمة الجزلة؟! فلقد قال البزم رحمه الله:

يَعيبــون منّــي لهجــةً يعربيّــةً ونهجةَ صدقٍ أعْوزَت مَن يَرودها

ولو عن هدىً قالوا لأسمعَ قولُهم ولكنّها الأحشاء ثارت حقودُها

وبين أيدي القراء اليوم هذا الكتاب عن الأستاذ المجمعي محمد البزم، وضعه الدكتور محمد رضوان الداية، وفيه ما لم يُسبق إليه على كثرة ما كُتب عن البزم في الكتب والصحف والمجلّات، وما تناولته أقلام زملائه ومعاصريه وطلّابه...بل لقد جمع كتاب الدكتور الداية عنه ما سبق أن قيل وما لم يُقل أو يُكتب من قبل، مما استمدّه من أوراق الأستاذ البزم نفسه، وهي مخطوطة بيده، محفوظة عند أسرته، ومما سمعه من المصادر الحيّة التي أدركت الأستاذ البزم واتّصلت به، وفصّل الحديث عن كثير من أحوال الرجل وأوضاعه، وأعماله وصفاته..، مسجّلًا كل ذلك بقلم يحترم العلم والأمانة والحَيدة، والصِّدق في النقل، والأناة في الحكم، وزاد على كل ذلك في الحديث عن أدب البزم وشعره وخصائص أدبه، وما جاء فيه من تقليد واتِّباع، وما جاء فيه من جدَّة وابتداع.

وكان فيما جاء به الدكتور الداية دعوة حارّة إلى الباحثين لدراسة أدب البزم الدراسة التي يستحقّها.

وهي واحدة من فوائد هذا الكتاب، ولعلّها من غاياته أيضًا، فلقد طالعت في الكتاب صورتين، ورأيت فيه غايتين أخريين:

أما الصورة الأولى فلرجل عصاميّ، تشدّه المكتبة إلى المطالعة، وتحبِّبه المطالعة باللغة العربية... فيتابع التعلّم بهمّة وعزيمة حتى يتبوَّأ أعلى مراتب العلم في بلده، وليصبح معلّمًا في أرقى معاهدها، وليصبح عضوًا في مجمعها العلمي اللغوي.

وأما الصورة الثانية فلعضوٍ من أعضاء المجمع العلمي العربي (مجمع اللغة العربية) ولواحدٍ من أشهر أساتيذ العربية ومعلّميها، وشاعرٍ من فحول شعراء عصره.

وقد استطاع مؤلف الكتاب د. الداية أن يأخذ بأيدينا لنتابع معه مسار الأستاذ البزم، صاحب الصورتين، خطوةً خطوة، لافتًا أنظارنا في كل خطوة إلى ما يحسن أن ننتبه إليه ونقف عنده.

وأما الغايتان الأخريان اللتان يحققهما هذا الكتاب فأولاهما غاية المجمع من نشر سيرة أعضائه الأوائل، الذين جاهدوا ورابطوا وصبروا وأنتجوا وبنَوا ثم مضَوا في صمتٍ غيَّبهم وطوى سيرتهم !

وأما الغاية الثانية فصفحة أملٍ يفتحها الكتاب لجيلٍ ناشئٍ تقدِّم لأبنائه بيوتُهم ومعلِّموهم ومجتمعهم ودولتهم كلَّ ما يحتاجون إليه من وسائل العلم والتعليم، ثم لا نرى ما يكافئ ذلك إلّا القليل النادر من النابغين أو المبرِّزين !.

إن حياة البزم وأمثاله من العصاميين الذين شدّتهم الهمّة، ودفعتهم العزيمة إلى الرغبة في العلم وسلوك السبيل إليه في المكتبات ولدى العلماء والمعلّمين، حجّةٌ على المتخلّفين من أبناء الجيل المتقاعسين... أليست صورة رائعة ومثالًا واقعيًّا لغلامٍ كان يبيع القماش في متجر والده ثم لم يلبث أن أصبح معلِّمًا في مدرسة خاصة، ثم أستاذًا في الثانوية الأولى في بلده، وزميلًا لكبار العلماء في مجتمعه، ثم عضوًا في المجمع العلمي، ثم واحدًا من فحول شعراء عصره.

أليس من الجدير بالذكر أن نغرس في نفوس أبنائنا ممّن قعدت بهم حظوظهم، أو تقاعست هِمَمُهم، أو ضعفت عزائمهم، أنَّ مَن كانت عنده الرغبة، وصحّت همّته، وصدقت عزيمته، استطاع أن يبلغ مراده، وأن يحقِّق غايته، وأن يبلغ ما بلغه الأستاذ البزم، وهو الذي بلغ العشرين من عمره وهو لا يعلم قراءة ولا يعرف

كتابة!! إنه يقول عن نفسه إنه (بلغ العشرين وهو لا يعلم من القراءة إلّا قِصار السور من القرآن الكريم، ولا يطيق الكتابة إلّا بعض الأسماء يقلِّد برسمها خطَّ المصحف!) ولكن المكتبة الظاهرية نبّهته إلى ضرورة درس اللغة العربية فانصرف إلى شيوخ بلده، فقرأ على الشيخ عبد القادر بدران، والشيخ جمال الدين القاسمي، والشيخ صالح التونسي) حتى أصبح أستاذًا تخرّج به وتعلّم على يديه نخبة من أمثال ظافر القاسمي، وشاكر مصطفى، ونزار قباني، وأمجد الطرابلسي، ونجاة قصاب حسن، وسليم الزركلي، ومطيع المرابط، وأحمد راتب النفاخ، وغيرهم ممن عاصرني أو سبقني، وكل منهم يفخر بقوله إنه كان من تلاميذ البزم.

رحم الله أستاذنا البزم، وأثاب د. الداية على ما بذل من جهد، وما أوضح من صورة الأستاذ البزم الخُلُقية والفكرية والأدبية والعلمية، وشكر لمجمع اللغة العربية إحياء سيرة واحدٍ كان من أعلام المجمع علمًا وأدبًا وشعرًا.

هٰذا الكتاب

(أ)

في أثناء عملي في دولة الإمارات العربية المتحدة أستاذًا في جامعة الإمارات العربية المتحدة وغيرها على امتداد خمسة وعشرين عامًا، كان في جملة اهتمامي، تدريسًا وبحثًا، ومتابعة إعلامية: قضايا وشخصيات من الأدب الحديث والمعاصر. وكان محمَّد البِزم من شعراء الشام الذين عُنِيتُ بهم.

ولما رجعتُ إلى الوطن (الصغير) نشرتُ عددًا من البحوث والدراسات عن شعراء وأدباء من سورية، ومن غيرها. ورأيتُ أن الاهتمام بهم أو تجديد الحديث عنهم واجبٌ وطنيٌّ إضافة إلى الأسباب الموضوعية الأُخرى، وكان من هٰذه البحوث: «المظاهر اللّغوية والأسلوبية في شعر محمَّد البِزم».

وصح العزم - مني - بعد هٰذا البحث أَن أَشرح ديوان البِزم، وأُقدّمه للقارئ الذي يستصعب كثيرًا من أَبياته. وعزّز هٰذه الصُّعوبة أنَّ طبْعَ الدَّيوان لم يقدّمه للقارئ تقدمةً حسنة: لا مقدّمة للديوان، ولا تعريف مفيد موسع بالشاعر، ولا مناسبات للقصائد، ولا تعريف، ولو كان عامًّا، بالأعلام الواردة في الشعر، ولا شرح يأخذ بالقارئ ولو خطوة، إلى الأمام... والشرح المضاف إلى حواشي الديوان قليل جدًّا، واعتباطيّ، وبعضُه يخالف مقاصد الشاعر، ومعاني الكلام... ولا فهارس للديوان...الخ.

وكان مشروع إعادة النّظر في الدّيوان يقتضي:

١- البحث عن مخطوطته.

٢- ودراسة شخصية البِزم، بحيث يتكامل العملان.

وهو مشروع كلّفت نفسي به. وقد وَقَر في نَفْسِي أنّ الديوان على حاله يظلمُ الشّاعر، ويُبعد القارئ عنه، ووَقَر أَمرٌ آخر - وقد قرأت شيئًا ممّا كتبه بعضُ الدارسين والإعلاميّين - أنّ الصّورةَ التي رُسِمَتْ للرجل: شخصيًّا، وعلميًّا، وأَدبيًّا (في الشعر خاصة) تستحقُّ خطوةً أَو خطوات أخرى للاقتراب من الإنصاف من جهة، والاقتراب من الحقيقة، أو الوصول إليها...

وعَلِمَ المجمع بعملي في محمَّد البِزم فكلّفني: «الكتابة عن عضو المجمع الأستاذ محمَّد البِزم».

(ب)

وانصبّ اهتمامي أول ما بدأت العمل على:

١) **جمع المادّة المطبوعة** من أَعمال البِزم، والمادّة الأخرى المكتوبة عن البِزم: شخصه، وشعره، وسائر أحواله.

٢) **والوصول إلى وثائق الرّجل ومخطوطاته إن وُجدت**.

٣) **ولقاء مَنْ بقي ممّن تلمذ له، أو عرفه** على وجهٍ من الوجوه.

(ج)

بدأت لقاء الدكتور عبد الفتاح البِزم[1]، متوقعًا صلةً قرابة بينه وبين محمَّد البِزم،

(١) هو الآن: مفتي دمشق، وهو باحثٌ، وأستاذ أكاديمي.

وعلمت منه اعتناءه بكتاب البِزم: «الأجوبة المسكتة». وأرشدني إلى ولد الشّاعر، وهو الأستاذ حسان، وزوّدني بهواتفه. وقد زرتُ الأستاذ حسان في الشعلان من حيّ السبكي بدمشق. وتكرّرت زياراتي، واستفدت معلومات شفوية سجّلتها. ولما اطمأن إليّ - حفظه الله - وضَع بين يدي ما عنده من أوراق والده ودفاتره، وجُذاذاته، وقرّبني إلى أول الطريق. وأكثر الأوراق أصليّة بخطّ محمَّد البِزم، أو بخط غيره[١]. وفيها أشياء مصورة تصويرًا قديمًا كاد يمّحي بمرور الزمن.

وقد تقلّبت الأَيدي على تراث البِزم: كليًّا أو جزئيًّا، فقد صَرّح بالاطلّاع على الدّيوان والوثائق الدكتور سامي الدهان في كتابه القيم: «الشعراء الأعلام في سورية» مستعينًا بأحد تلامذته[٢]، والدكتور شاكر مصطفى في مقدمة صنعها لمقدمة البِزم على ديوانه[٣]، والأستاذ إسماعيل عبد الكريم حسن[٤].

(د)

حين هاتفتُ[٥] السيّد حَسّان ابن الشّاعر محمَّد البِزم، وعَرّفته اسمي، وصنعتي، ورغبتي في الكتابة عن والده بادرني قبل ردّ السّلام وقال: «الآن تذكرتم محمَّد

(١) في كتاب «النّور والنار في مكتب عنبر» للأستاذ مطيع المرابط: ٦٩ في ترجمته لمحمَّد البِزم ما نَصُّه: «كان إذا أنجز قصيدةً شعرية أعطى من يتوسّم فيه النيّة الطيبة، لينقلها له من الورق إلى المجموعة التي تضم ديوانه... وقد كان لي الحظ السعيد بكتابة عدة قصائد له عندما غدوت في مقتبل حياتي الوظيفية معيدًا في مكتب عنبر».

(٢) الشعراء الأعلام في سورية - سامي الدهان: ٣٤.

(٣) اطلعت عليها بخطه.

(٤) في بحثه: شعر محمَّد البِزم: (مواضع متعدّدة).

(٥) استعملها بعض الأدباء لمعنى: تكلّم بالهاتف. وقال آخرون: هَتَف، وتكلّم، وتحدّث، وحكى، واشتق بعضهم - دون قصدٍ - من «التلفون» الأَجنبيّة، وقالوا: «تَلْفَن». وقد بسطت القول في ذلك في كتابي: الاشتقاق من غير العربية.

البِزم؟». ولم يفاجئني هٰذا الموقف، فقد كنت وصلت إلى مثل موقفه، ورأيتُ مثل رأيه... لماذا لم يَلْقَ محمَّد البِزم العناية المناسبة له: في استيفاء الكلام على شخصه وحياته، وعلى أعماله في الأدب واللغة والنحو والنقد، وفي مذهبه الشعري الذي انفرد به بين أقرانه؛ ولماذا لم يُنشر شيء من «مؤلفاته» في حياته؟... ولولا ترشيح الدكتور سامي الدهان ديوان محمَّد البِزم للطباعة في المجلس الأعلى للآداب والفنون والعلوم الاجتماعية بالقاهرة (أيام الوحدة بين قطري مصر وسورية) لبقي الديوان في طيّ النّسيان[1]. ولنا كلام على «الديوان» وطبعته يجيء في موضعه من تسلسل فقرات الكتاب.

على أَنَّ ذلك التّقصير، وقد تعدّدت أسبابه، أَدّى إلى ظلم محمَّد البِزم، والانصراف عنه، وعن شعره، وعن أثره في: الحركة الشعرية في سورية، وأَثره في حركة التّربية والتّعليم، ونجاحه الباهر في تدريس اللغة العربيّة طوال ربع قرن من عمر الشاعر، ومن القرن الماضي، وأثره العميق في تلامذته وطلّابه. وكاد محمَّد البِزم أن يُنسى لولا ما صدر بعد وفاته من مقالات وبحوث ودراسات عنه - وهي محدودة - ؛ ولولا هٰذا الحضور اللافت لشخصية البِزم في ذكريات بعض أصحابه، وتلاميذه وطلابه.

ومن هٰذا الانصراف والنِّسيان إهمال محمَّد البِزم، وإسقاطُه من بحث «شعراء دمشق في العصر الحديث» المُدرج في مجموعة كِتَاب: «**دمشق الشام عاصمة الثقافة العربية ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م**»[2].

وأشار الدكتور الدهان إلى ما نسمّيه الإهمال، أو الانصراف عن محمَّد البِزم

---

(١) الشعراء الأعلام في سورية، د.سامي الدهان: ٤١ - ٤٢.

(٢) صدر الكتاب عن: هيئة الموسوعة العربية عام ١٤٢٩، سنة ٢٠٠٨م والبحث للأستاذ الفاضل: نصر الدين البحرة؛ وهو أديب وإعلامي دمشقي وهو يعرف محمّد البِزم، ومثله لا يخفى عليه.

وتراثه، فقال بعد تسجيل تاريخ وفاته في ١٢ أيلول ١٩٥٥ «وبكاه أصدقاؤه وطلابُه في **همسٍ حزين لم يبلغ إلى الاحتفال بذكراه أو التحدّث عن شعره، أو التأليف في سيرة حياته**، على ما كان في هٰذه الحياة من نضال ضد الأتراك، أو الاستعمار، أو في سبل الحياة والعيش، أو ما قام بينه وبين الناس من عراكٍ ونقاشٍ، ونقد بلغ حدَّ المرارة والقسوة في كثير من الأحيان. **فأفقده عطف الأصدقاء في حياته، وحرمه حنان كثير من الأدباء بعد مماته...**»[١].

وقال د.الدهان في آخر فقرة من ترجمته لمحمَّد البِزم: «وقضى وحيدًا، لم تتحدّث عن وفاته صحيفةٌ أو مجلّةٌ. وقد كان قبل ذلك يملأ الصحف بأقواله وقصائده بالمناسبات الضخمة وفي المهرجانات العامة؛ وأكْثَرُ المحرّرين في هٰذه الصحف والمجلّات من طلابه ومن تلاميذه»[٢].

(هـ)

ويواجهُ الباحث في شخصية محمَّد البِزم، ودارس شعره، ما استفاضَ من الكلام على وعورة شعره، وصعوبة فهمه، وإقحام الغريب والوعر والحوشي من الألفاظ فيه، وغموض مقاصده في أحيان كثيرة. وسيتضح للقارئ الفاضل، في فقرات هٰذا الكتاب المبالغة الشديدة في تلك الأقوال، والتعميم غير العلميّ أَيضًا.

نعم، كان محمَّد البِزم يحفظ من اللّغة قدرًا كبيرًا جدًّا، ويحفظ من الشعر العربي - القديم خاصّة - ما يؤهله لأن يورد ألفاظه على وفق مقتضى مقاصد شعره ومعانيه؛ وفرقٌ بين تصيّد الغريب وإقحامه، وبين وضعه في مكانه المناسب؛ وفي ذلك يقول د.إبراهيم الكيلاني: «إن كلّ من يقرأ شعره يشعر أنّ عواطف البِزم

(١) الشعراء الأعلام في سورية: ٤٤.

(٢) المرجع السابق: ٥٥.

ومشاعره، وأفكاره تنوءُ تحت ثقل ألفاظه، ووطأة كلماته، فكأنّ هٰذه الألفاظ والكلمات صخور، ولكنها تحوي فلزّات المعادن الكريمة، وقد قادته هٰذه الجزالة في كثير من قصائده – إن لم يكن كلها – (كذا فيه) إلى تبوّئ[1] مكانه إلى جانب فحول القريض في الجاهلية، والعصر الأموي حتى صحّ فيه القول: إنه ينحت من صخر».

على أنَّ هٰذه النّظرة في شعر البِزم قد تكرّرت من د.الدهان ود.شاكر مصطفى وغيرهما. وهم يقيسون على قصائد طوال بناها على الجزالة والفخامة، واستعدّ لها – لطولها، ولمقاصدها ومعانيها – بما يناسب من الألفاظ والعبارات وسائر ما يكمل العمل الشعري المُجَوّد.

وللبِزم في شعره، في الجزء الأوّل من الدّيوان، وفي الجزء الثاني – بكثرة – التفات إلى شيء غير قليل من الليونة، والسُّهولة، والدخول في قضايا يكفيها الأبيات القليلة (ستة أو سبعة أو ثمانية أو تسعة...) نعم! نسيج الشعر متماسك، ولكنّه كثيرًا ما يجيء سهلًا، مأنوسًا، ويصل إلى القارئ «المتوسط». وكان أحمد عبيد يختار من شعره ما يقدّمه إلى مقتني المفكرة العربية الهاشميّة من سواد الناس.

وبمناسبة ما كان يختاره أَحمد عبيد من شعر البِزم، وينشره في ورقات من المفكّرة الهاشمية[2] حدثني السيّد/ أبو خليل الصلاحي وهو تاجر من بلدي (دوما) محبٌّ للأدب واللغة متابع قال: قرأتُ يومًا قطعة من الشعر أعجبتني جدًّا، وكانت للشاعر محمَّد البِزم. وكنت أعرفُه وأنا أحضر بعض محاضرات المجمع (حين كان في موقعه القديم: المدرسة العادلية) قال: فطلبت – بالهاتف – المجمع العلمي العربي، وأخذت رقم هاتف الأستاذ البِزم، وكلّمته، وطلبتُ أن أَزوره في داره، فرحّب، وضرب لي موعدًا.

---

(١) كذا فيه، واقرأ: تبوّؤ.

(٢) وهي في مصر «**الأجندة**» – دخيلة –، وفي تداول الناس في الشام: **روزنامة** «دخيلة».

قال وحملتُ معي أَرْطَلًا[1] ملأتُه بأنواع عنب دوما المشهور فلقيتُه، وسَلّمتُ عليه، وأثنيتُ على شعره، بمقدار ما وعيتُ منه. ولم يكن لي هدفٌ من زيارته غيرُ هذا.

قال: وسألني البِزم إن كنتُ أرغبُ في أن يكتبَ لي القصيدةَ التي اختارت المفكّرة العربية الهاشمية منها، فشكرتُه، ولم أشأ أن أُكلّفه ذلك: تقديرًا له، واحترامًا.

فقلتُ له: ليتَك يا أَبا خليل فعلت!

ثم سألني أبو خليل إن كنتُ أقتني ديوانه، فقلت: نعم، واستعاره منّي مدّة من الزَّمان.

وهذا الخبر يلتقي مع خبر ذكرته عن عبد الغني العطري الصحفي الأديب الذي زار البِزم فكتب له قصيدة من شعره، وأعطاه إياها (والخبر في هذا الكتاب).

وهي أخبار تنبئ عن طرف من شخصية البِزم الدّمثة من طرف وعن إعجاب الناس-المتابعين-بشعره من جهة أخرى.

وأدرج الدكتور شوقي ضيف شيئًا من شعر البِزم في كتابه: «الشعر وطوابعه الشعبية على مرّ العصور»[2]. واختار من قصيدة له عنوانها مصر، قال فيها:

واحمــلْ إلى النيــل تَحْنانًــا يــردّده ... روضٌ عــلى بَــردى وَرْدًا ونِــسْرِينا

واقــرأ تحيتنــا الفــسطاط إنّ لــه ... ذكــرى تــؤرّجُ ريّاهــا الرياحينــا

وهٰذا جانبٌ سنوضّحه، في ما يأتي من فقرات البحث، ونبيّنُ خطأ التّعميم في الحكم على لغة البِزم وأسلوبه.

---

(١) **الأَرْطَلُّ**: وعاءٌ من نوع القصب كبير من نوع يُسَمّى (السَّلّ). ووجوده الآن نادر. ومثله يكفلُ نقل العنب - ولو كان ذلك إلى مسافات بعيدة - دون أن يتأذّى.

(٢) الشعر وطوابعه الشعبية على مرّ العصور، د.شوقي ضيف، دار المعارف بمصر، الصفحة ٢١٧.

(و)

ومن التّعميم الذي شاع عن شخصيّة محمَّد البِزم: وَصْفُه بالحدّة والقسوة والشدّة، وبسرعة الانقلاب على أصحابه أو زملائه. وقراءة تاريخ حياة الرجل، في أخباره الباقية، واستكناه شعره يُساعِدُ في تصوير معالم الشخصيّة وتبيان خصائصها، ويدلّ على صحة هٰذا الوصف في المرحلة الأخيرة من حياته صِحَّةً نسبيّةً. ولكنه قبل ذلك: خالط الناس، وصادقهم، وانشغل معهم بهموم الوطن الصغير (سورية) والوطن العربي الكبير، وعرض أفكاره، وأشعاره في الصّحف والمجلات، وعلّم، وحاضر، وشارك في ندوات. وصحيح أن هناك خطًّا عامًّا يمسك بأطراف الشخصية: من الإعجاب بالنّفس، وتقديرِ ما يصدر عنها من ألوان الشعر، والتطلّع إلى مرحلة أعلى بعد مرحلة...

على أنّ ما وصلتْ إليه حالُ البِزم، في المرحلة الأخيرة، كانت نتيجة ظروف مختلفة اجتمع بعضها إلى بعض... وأَهمّ ذلك: العلل الكثيرة التي اصطلحت عليه، وداهمته متراكبة متوالية... وشعوره بأَنه: بعلمه، وشعره، وأَثره في الأجيال تعليمًا وتأديبًا، وبشاعريّتِهِ يستحقّ أن ينالَ من العناية والرعاية والتّقدير أكثر - بكثير - ممّا ناله.

(ز)

ويبدو أن محمَّد البِزم كان يُطلع بعض أصحابه، وبعض طلابه على أعماله التأليفية: في مجالات شتى من النحو واللغة والأدب والنّقد الأدبيّ. وتدلّ «آثاره» الباقية على الطموح العالي الذي كان يطمح البِزم إليه في مجال التأليف والتّصنيف. وكانت له آراء في النحو خاصّة: أفاد بها طلّابه، واستفاد من خلالها في حسن تعليم اللغة العربية، والرقي بطلابه إلى درجة عالية من حب اللغة، وإتقانها، والمثابرة عليها[1].

(١) سنفصّل في هذا الجانب عند الكلام على مؤلفاته وآثاره.

وقد أتيح لي أن أطلع على ما كان يقدّمه محمَّد البِزم إلى طلابه. لقد احتفظ الدكتور إبراهيم حقي[1] بدفاتر من مرحلة الدراسة المتوسطة (تسمّى الآن الإعدادية) تشف عن منهج البِزم الناجح في تعليم طلابه العربية، والوصول بهم - كل سنة - إلى مرحلةٍ جديدةٍ من الفهم والحفظ، والتفاعل والتمثّل،... وصولًا إلى الإتقان. لقد كان محمَّد البِزم يصل بطلابه إلى امتلاك اللّغة، والصّدور عنها كتابة وقراءة وارتجالًا، ومحادثة... ولنا إضافة، في هٰذا الجانب، في ما يأتي.

وطلبةٌ يصلُ بهم أستاذُهم إلى هٰذا المستوى جديرون أن يُحَدّثهم أحيانًا عن بعضِ مشروعاته العلميّة في النحو واللغة وغيرها، وأنْ يضعَ بين أيديهم بعض أشعاره، أو يكلّف أحدَهُمْ بتبييضِ قصيدةٍ من قصائدِهِ، لأن خطّه حَسَنٌ متقن، ولأن عقله واع.

وهكذا ذاعت بعض عناوين كتبه التي كان يعكف على تأليفها وتصنيفها، وعُرفت موضوعاتها: تحديدًا أو تقريبًا... وانتظر الناس صدورها، أَو صدور بعضها... وطال انتظارهم.

(ح)

كنتُ عُنِيتُ - من زمن متطاول - بالشّعر الحديث، والمعاصر. من إرهاصات التجديد مع أحمد الكيواني[2]، وأمين الجندي في الشام، ومحمود سامي البارودي في مصر، وغيرهم. ونشرتُ بحوثًا ومقالات، وقدّمتُ برامج إذاعيّة عن شعراء هٰذه المدّة. وكان (محمَّد البِزم) في دائرة اهتمامي. وكتبت عنه بحثًا عنوانه: «المظاهر

(١) من أشهر أطباء سورية في أمراض النّساء، وله مؤلفات كثيرة منها معجم طبّي ضخم، ومنها كتب عن اللغة العربيّة.

(٢) لي بحث في الكيواني وأثره في نهضة الشعر الحديث يُنشر في مجلة المجمع بدمشق

اللغوية، والأسلوبية في شعر محمَّد البِزم»[1] وكان هٰذا البحث مُنْطَلَقًا لأمرين:

- **الكتابة عن محمَّد البِزم** لتقديمه إلى الناس من خلال أخباره وآثاره (الديوان وغيره) لِنُوَفّيَهُ بعض حقّه على أهل الأدب واللغة والنحو والنقد.
- **وإعادة النظر في ديوانه**، والعودة إلى المخطوط المتوفّر منه لإصدار الدّيوان: مع تعليقات وتوضيحات ومقدّمات للقصائد، إضافة إلى عمل صعب - لكنْ لا بدّ منه - وهو شرح الدِّيوان، وتيسيره... وصولًا به إلى القارئ، وإلى دارسي الأدب واللغة والنقد، وإلى مؤرخي الأدب العربي. ولِتُقَدَّمَ منه نصوص مختارة مناسبة، تُوضَعُ بين أيدي الطلبة... وفيها ما فيها من الرّوح الوثابة، ومن القيم العربيّة الأصيلة المتجدّدة، ومن الملامح التاريخية، والاجتماعية... إضافة إلى الجوانب الفنيّة، التي ميّزت شعر البِزم، ووسمته بسمات خاصة تدلُّ عليه.

فهٰذه مشاركةٌ منّي في العناية بهٰذا الشّاعر الدمشقي، وبشعره ذي المزايا الكثيرة. وبدايةٌ عسى أن تشجع الباحثين والدارسين على توفية ديوانه حَقّه من الدرس والبحث والتفصيل.

* * *

(١) ينشر في مجلة المجمع بدمشق.

مُحَمَّد البِزم
في آثار الدارسين

(١)

كان أول من اطلع على الدّيوان، وقرأه، واستفاد منه نصوصًا لكتابه: الدكتور سامي الدهّان. وقد كتب دراسة موجزة حسنة عن الشاعر، وعن شعره، واختار من ديوانه أيضًا.

وكتب د.إبراهيم الكيلاني دراسة أُخْرى، فيها حركةٌ حيويّة إضافية، فقد كان يعرف البِزم وصاحَبَهُ مدّةً طويلة، وجاءت دراسةً ذات أهميّة، وخصوصًا في مطالعاته عن شخصه، وشخصيته، وبعض مجريات حياته.

وكان شعر البِزم مادّة لبحث دراسي (جامعي) كتبه إسماعيل عبد الكريم حسن (رسالة جامعية مكتوبة على الآلة الكاتبة). وهي مفيدة في النقول التي استقاها من بعض أبناء الشاعر، ومن بعض أقاربه وأصحابه. واستفاد أحمد الجندي في دراسته الموجزة عن البِزم من معلومات استقاها من الشاعر الدمشقي: صديق البِزم: أنور العطار.

وورد كلام على البِزم: شخصه، وشخصيته، وشعره وأدبه عامة في بحوث محدودة هي أقرب إلى المقالات، وكثيرٌ منها مقالات يغلب عليها الانطباعية. وهي مع ذلك مفيدة جدًّا؛ لأنها كانت تقدم لمحات من هنا وهناك ساعدت في ترميم

بعض الأخبار وفي إيضاح الصّورة كالذي كتبه نجاة قصاب حسن، وشاكر مصطفى، وظافر القاسمي...

إضافة إلى مقالات صحفيّة، لكنها مفيدة أيضًا كالذي كتبه عبد الغني العطري في بعض مؤلفاته «الشّاميّة» وأحمد الجندي[1].

وقد نُشِرت مقالاتٌ، أو أعمدةٌ في بعض الصحف، وأقيمت ندوات في بعض المراكز الثقافية. كانت تكرارًا، وأخذًا مباشرًا عما كتبه الدكتور الكيلاني، ود.الدهّان، وأ.إسماعيل عبد الكريم حسن.

ويجد المتابع كلامًا - أكثره غير موثق - في المنشورات الإلكترونية على مواقع الشّابكة (الإنترنت)...

وقد أشرتُ إلى المآخذ في هٰذه الدراسة من تلك المراجع، وتَرَدُّدِ الأخذ عنها بحسب المناسبات: مع الإحالة على ذلك؛ على المنهج العلمي المألوف.

وأضع بين يدي القارئ خلاصة لما كتبه أديبان أستاذان عن البِزم: يَحْسُن التّقديمُ للكتاب بشيءٍ ممّا قالاه عنه: هما د.جميل صليبا، والأستاذ سعيد الأفغاني.

وقد كتبا عن البِزم، ولم يطّلعا من تراثِه إلا على ما نشر في الصحف المعاصرة لهما، وهو قليل. أَمّا سائر أعمال البِزم، فلم يطلعا عليها. إلا الديوان فقد اطّلع عليه الدكتور صليبا، فإنه نشر كتابه بعد طبع الديوان بسنوات.

(٢)

حظي محمَّد البِزم بعناية من أ.سعيد الأفغاني في كتابه: «حاضر اللغة العربية في بلاد الشام».

---

(١) مثل مقالته المعنونة: البِزم شاعر المقالب (مجلة العربي - آب، أغسطس ١٩٥٩).

وكان الأفغاني قد عرف البِزم حين كان يدرس في التجهيز «في مكتب عنبر» ولم يكن من تلاميذه.

وقد نبّه أ.الأفغاني على أهمية ما صنع محمَّد البِزم وزملاؤه في تلاميذهم من حسن التعليم، والتقويم وحسن تلقين العربية والوصول بتلاميذهم إلى إتقان اللغة واكتساب مهاراتها والحفظ الغزير من النصوص المعلّمة. قال[1]:

«والفضيلة التي ينبغي أن تسجل أن هؤلاء الأساتذة في جملتهم عنُوا بالكشف عن الملكات الأدبية واللغوية وتفتيحها مع عنايتهم بتدريس المناهج المقررة، وكانوا يأخذون طلابهم بالكلام العربيّ في قاعات الدروس...».

وأشار إلى الكثرة الكاثرة التي نبغت من تلاميذهم، فكان فيهم متقنو صنعة الشعر، قبل أن ينجزوا دراستهم الثانوية.

وفصّل في خصوصية كل واحد من أولئك المعلمين البارعين حتى قال: «على حين كان **الأستاذ البِزم يُعنى بطبع طلابه بالطابع الأدبي الفحل**»[2].

وذَكَر تشدّد تلك الطبقة من الأساتذة مثل محمَّد سليم الجندي والشيخ محمَّد الداوودي، ومحمّد البِزم. قال: «وعُرِف الأستاذ البِزم بتعليقاته **الطريفة العنيفة** استحسانًا واستهجانًا، ولا شك في أن هٰذا منهم كان (قوميّة لغوية) إن صح التعبير لينهل الجميع من المنهل العذب الصافي...».

(٣)

ذكر الدكتور جميل صليبا شاعرنا محمَّد البِزم في كتابه القيّم «اتجاهات النقد

(١) حاضر اللغة العربية: ٨٢ – ٨٣.

(٢) المرجع السابق: ٨٣.

الحديث في سورية» أكثر من مرّة ولم يُفرده بحديث مُستقلّ، وهٰذا منطقي، فإنه لم يعثر له على كتاب مطبوع، ولم يطلع - وهٰذا طبيعي جدًّا - على مشاريع كتب البِزم ليصف ما صنع أو ليحكم عليه.

وقد وقف الدكتور صليبا[1] عند البِزم وهو يناقش موقف علماء بلاد الشام من اللّغة العربيّة في مقدّمة كتابه. وضمّ البِزم إلى فئة المتشدّدين (والعبارة له) في أمر اللغة وصوغها وإحيائها، وبسطها لتكون لغة العلم والحضارة، ولتفي بالحاجات المستحدثة جميعًا... وقد قال في المقدمة: «ومَنْ قرأ تاريخ الشام علم أن سلسلة علماء الدين الذين تأصّل فيهم علم الآلات لم تنقطع في وقت من الأوقات، حتى إن المتأخّرين منهم كالشيخ عبد الغني النابلسي، والشيخ سليم البخاري، والشيخ جمال الدين القاسمي، والشيخ طاهر الجزائري، والشيخ بدر الدين الحسني، والشيخ عطاء الكسم، والشيخ محمد المبارك وغيرهم جمعوا إلى عنايتهم بالعلوم الدينية حرصهم على سلامة اللغة العربية، فقلدوا القدماء في كلامهم وإنشائهم ولم يخرجوا عن أساليبهم الأدبية قِيدَ أُنملة.

وما يقال عن أساليب هٰذه الطبقة يقال كذلك على أساليب عبد القادر المبارك، ومحمَّد سليم الجندي، **ومحمَّد البِزم**، وعز الدين التنوخي، وبدر الدين النعساني، وآخرين من أصحابهم وتلاميذهم. لقد كانوا جميعًا من أعلم علماء العربية في هٰذا العصر: ينسجون على منوال القدماء وينتقدون لغة المجلات والجرائد، ويميزون الصحيح من الدخيل والفصيح من الشاذ، ويدافعون عن حمى العربية ضد كل من تسوّغ له نفسه الاعتداء عليها...».

---

(١) اتجاهات النقد الحديث في سورية - الدكتور جميل صليبا - معهد البحوث والدراسات العربية (جامعة الدول العربية - القاهرة) ١٩٦٩، ص: ٧٨.

(٤)

وفي أثناء كلام د.صليبا على محمَّد سليم الجندي قال[١]: «وأكثر الأساتذة الذين تولّوا تدريس اللغة العربية وآدابها في عهد سليم الجندي **كانوا على مذهبه في النقد**. فالشيخ عبد القادر المبارك كان شديد العناية بمفردات اللغة وتراكيبها حتى اشتهر بحفظ القاموس المحيط للفيروزأبادي. ومحمَّد البِزم كان شديد الافتخار بالحفاظ على فخامة الألفاظ، ومتانة الأسلوب. **إذا قرأتَ قطعة من شعره ظننت أنك تسمع أصداء شاعرٍ جاهلي أو أموي**. وكثيرًا ما كان يدور بينه وبين الشيخ عبد القادر المبارك جدال حول ضبط بعض الألفاظ، أو رواية بعض الأخبار، أو تحقيق إحدى قواعد النحو...».

وعرّج على الشعر عند هؤلاء وطبقتهم، «إذا قرأتَ أشعارهم وجدت فيها نفحات عربية أصيلة تذكرك بالفرزدق أو المتنبي أو البحتري أو المعرّي: **فمحمَّد البِزم: كان شاعرًا فحلًا** ينادي بضرورة المحافظة على الكيان اللغوي. إذا رأى كلمة مولّدة أو فِعلًا عُدِّي بغير حَرْفِهِ قال: هٰذه لغة السوقة والأزقة[٢] ثم قال: **وكثيرًا ما سمعتُه يقول**: إن هٰذا الشعر الحديث الممزوج بالأُنوثة والتميّع يفسد ذوق الطالب، ونحن ولله الحمد في غنًى عنه. **كان ينظم الشعر أحيانًا على طريقة اللزوميات،** فيلتزم في القافية حرفين أو ثلاثة حروف ويتفنّن في ذلك كثيرًا حتى تتعجّب منه. وكثيرًا ما كان يفتخر بطول نَفَسِهِ في الشعر كأن قيمة القصيدة عنده متناسبة مع عدد أبياتها. وإذا قلت له: **هٰذه القصيدة أشبه شيء بناطحات السّحاب** فَرِحَ بذلك

(١) اتجاهات النقد الحديث في سورية ص: ٥٨.

(٢) نقل هذه العبارة عن كتاب الأستاذ سعيد الأفغاني: حاضر اللّغة العربية في بلاد الشام. وهي في ذلك الكتاب (طبعة مصر): ٨٧.

وأَغضى حياءً... »[1].

وأَشار د.صليبا إلى استمرار هٰذه «المدرسة» العربيّة التي سمّاها «متشدّدة» وإلى بقائها في جيل التلاميذ، أو حاملي الراية من بعدهم،... «ولم يزل تلاميذ الجندي والمبارك **والبِزم** والتنوخي يلتمسون أن يسيروا على الطريق الذي سار عليه أساتذتهم حتى كان لهم في الدفاع عن اللغة العربية وأساليبها البيانية مواقف تشهد بفضلهم. من هؤلاء التلاميذ علي الطنطاوي، وسعيد الأفغاني، وجميل سلطان، وزكي المحاسني، وعبد الهادي هاشم وغيرهم.

ورَدّ الدكتور صليبا اهتمام هٰذه الكوكبة من اللغويين والأدباء والشعراء والنقاد باللغة العربيّة وما سماه «الألفاظ والتراكيب، وأسلوب لغة قريش...» إلى جهلهم بالآداب الأجنبية»[2]. وهٰذا كلام تحته نظر، ولا يسلم بهٰذا الاختزال المخل، ويحتاج إلى دراسة مستقلّة.

(١) اتجاهات النقد الحديث في سورية: ٥٩.

(٢) المرجع السابق: ٦٧.

(٥)

في مصادر هٰذه الدّراسة ومراجعها

١) **المطبوع من تراث محمَّد البزم، وهو قسمان:**

أ) الديوان، وقد صدر في جزأين سنة ١٩٦١، ولنا كلام عليه في موضعه من الكتاب.

ب) مقالات وبحوث نشرها محمَّد البِزم في بعض المجلّات. وقد بيّنتُ ذلك في فهارس الكتاب (فقرة المصادر والمراجع).

ج) ترجمته لنفسه.

٢) **المخطوط من آثار محمَّد البزم الباقية، وسأعرضها، بإيجاز، عند الكلام على مؤلّفاته.**

وقد رجعتُ إليها، جميعًا، على الحال التي هي عليه، في حوزة ولد الشاعر أ.حسان البِزم، حفظه الله. فقد أتاح لي الاطلاع عليها، ثم سمح لي بقراءتها، والتصوير منها.

والوصف، والعَرْضُ، الذي سأقدّمه، مرهون بما بين يديّ من تراث محمَّد البِزم.

٣) **المراجع المطبوعة، وهي:**

أ) ما كتبه أصحابه أو أصدقاؤه، أو زملاؤه أو معاصروه من طبقته.

ب) ما كتبه تلاميذُه: عن شخصه، وأحواله، أو عن شعره، من سائر آثاره.

ج) ما ألّفه الأدباء أو مؤرّخو الأدب:

١ً- في كتب مستقلّة.

٢ً- في أثناء كتب تعالج حياة الشعر في سورية.

د) ما ورد عنه في كتب التّراجم.

٤) المصادر الحيّة، (شهادات ممّن عرف محمَّد البزم، ولقيه، وعنده أخبار عنه).

ب) من الأقارب:

١ً- ابنه أ.حسان.

٢ً- د.عبد الفتاح البِزم.

ج) من التلاميذ (الذين درسوا عليه):

١ً- د.إبراهيم حقّي

٢ً- د.عبد الغني عرفة

٣ً- د.مازن المبارك

٤ً- أ.محمود الجبّان

د) من سائر الشُّهود:

١ً- السيد/ محمود الصَّلاحي

٢ً- الأستاذ محمّد شفيق ياسين

وبعد

فهٰذه دراسة مختصرة، محدودة بإطار عام للكتب التي تصدر عن المجمعيين المؤسّسين: فيها **تعريفٌ بالشاعر محمّد البِزم، وعرض لآثاره الباقية** مع تعريف وتمثيل، **وعرض لآرائه في قضايا مختلفة من النحو واللغة والشعر والنّقد** بما يفي بالغرض دون تفصيل أو تطويل، **وكلام في ديوان شعره**: مخطوطه ومطبوعه، **ووقفة تعريفيّة بأغراض شعره وخصائصه الفنيّة**؛ بحيث تتكامل الصّورة، كما تبدو من الأخبار والآثار، ومن الشهادات الحيّة التي استطعت جمعها، وضمّها إلى الوثائق وسائر المعلومات.

لقد اجتهدت، وأنا أوجز وأختصر بالقدر المستطاع في أن أقدّم محمَّد البِزم في شخصه ونشاطه معلمًا بارعًا، وفي غوصه على قضايا مهمة من النحو والصرف واللغة، والنّقد، وفي شعره وشاعريته. وسَبَرْتُ شَخصيّة البِزم، وعرضت لآراء طلابه ومعاصريه وزملائه فيه. وقدّمت بتواضع واحتراز رؤيتي في تلك الشخصيّة، وسائر مناشطها العلميّة والتّعليميّة، وفي ديوان شعره، ومزاياه.

محاولة جادّة لتقديم محمَّد البِزم كما عَرَفْتُه من خلال آثاره، وأخباره، وديوان شعره، ومن خلال رغبتي الصادقة في أن أُنصفه بالحقائق أوّلًا وبالحيدة التي يقتضيها البحث العلمي.

* * *

الفصل الأول

سيرة حياة

البدايات

امتدّت حياة محمَّد البِزم ما بين سنة ١٨٨٧ وسنة ١٩٥٥، فأدرك مدّةً طويلةً من حكم السّلطان العثماني عبد الحميد الثاني، وظهورَ جماعةِ تُركيا الفتاة، وما كان منها من اشتدادِ حملة التّتريكِ والتّنكيل بالعرب[١]، وشهد تنحية عبد الحميد، وتحكُّم الانقلابيين بالدَّولة في الأناضول والروملّي، وفي سائر البلاد التي كانت تحت ظل التابعية العثمانيّة وفيها معظم الأقطار العربيّة في المشرق، وبعض أَطراف المغرب. وكان مجنّدًا حين اشتركت الدولة في الحرب العالمية (الأولى). وتابع - بعد ذلك - مع عهد الاستقلال، حين نُصّب الملك فيصل (الأول) بن الحسين ملكًا على سورية، وشهد دخول القوات الفرنسية الغازية، وتردّدت أصداء ميسلون، وبطولات شهدائها، وعلى رأسهم يوسف العظمة. وما لبثت دماء الشهداء أنْ حَرّكت الثَّورة السُّورية الكُبْرى؛ سنة ١٩٢٥، واستمرّت الحركات الجهاديّة تثور وتهدأ حتى تحقق جلاء المستعمر الفرنسي، وأطلّ عهد الاستقلال؛ واستقرت حال البلاد والعباد، والتفت النّاس إلى النهضة، في جوانبها المختلفة. وحين بدأ «عصر الانقلابات» كان محمَّد البِزم يُعاني من أكثر من مرضٍ داهمه، فأثر فيه، وغيَّر مجرى حياته؛ حتى قضى، وهو في أَشدّ أحواله مرضًا، وضعف بَدنٍ؛ رحمه الله تعالى وأجزل مثوبته؛ قعيد المستشفى العسكري بدمشق.

---

(١) انظر مقدمة أ.سعيد الأفغاني لكتابه: حاضر اللّغة العربية في بلاد الشام: ٥ - ١١ (طبعة مصر).

ولد محمَّد بن محمود بن محمَّد بن سليم البِزم في دارٍ شامية كبيرة في حيّ الشاغور، أحد أحياء دمشق القديمة، العريقة، وكانت الدَّار تتّسع لجيلين، أو لثلاثة أجيال، تضمّهم، وتوفر لهم حياةً أسريّة مترابطة: تتعايش فيها الأَجيال، وتنشأ على التوادّ والتراحم، وتصوغ الفتيان والفتيات صياغةً اجتماعيّة عالية: في ظلال التقاليد العربيّة الإسلاميّة.

ومحمَّد البِزم فخورٌ بانتمائه إلى دمشق، والشام: يُكْثِرُ من الحنين إلى أيام عزّ العرب في ظلال الدولة الأمويّة، وهلم جرّا إلى الزمان الحديث. وكان في الوقت نفسه يذكر أصل أُسرته، ومُهاجَرها؛ وقد قال في قصيدة[1]:

أنـــا ابـــنُ دمـــشقَ مُنْبَثِـــقُ المعـــالي ... وفي **الـــزَّوْراءِ** لي حَـــسَبٌ مَجِيـــدُ

– والزَّوْراء صفةٌ غالبةٌ على بَغْداد.

وقال من قصيدةٍ أخرى[2]:

إلى بغـــدادَ مَثْـــوى المكرُمـــاتِ ... ومـــأوى العـــزِّ والـــصِّيدِ الأُبـــاةِ

وهٰذا البيت مطلع قصيدة رثى بها الملك غازي بن فيصل بن الحسين، وتذكّر فيها آباءه وأجداده، ومنها:

إلى حيـــثُ العُروبـــةُ في ذَراهـــا ... تُحَلّـــقُ عـــن يَـــدِ المُتَهـــضّماتِ

ومُطَّلَـــعُ البـــدورِ عـــلى البَرايـــا ... ومُخْتَـــدَرُ الأُســـودِ الـــضَّارياتِ

(١) ديوان البِزم ١: ٣٢٧ (من قصيدة: إلى معروف)؛ وهو: معروف الرُّصافي.

(٢) ديوان البِزم ١: ١٣٢ – ١٣٣.

وثالثـــةُ المفـــاخرِ يـــومَ تاهَـــتْ عــــلى كُـــلِّ اللُّغــــا أُمّ اللّغـــاتِ
إدارةُ مَحْتِـــدي، وقـــديمُ فخـــري ومرتـــــادُ النّوابـــغِ والكــــماةِ
ســـلامٌ مـــثلما افـــترَّتْ ففاحَـــتْ ثغـــورُ الـــرَّوضِ للمتنـــسّماتِ

وظاهر الكلام أن أصل الأسرة من بغداد. وقد تكون الإشارة إلى الزوراء وبغداد إشارة عامّة إلى العراق؛ فإن أ.حسان محمَّد البِزم أخبرني أن أصل الأسرة من المَوْصِل. وصلةُ الموصليّن بالشام مثل صلة بغداد، أو هي أكبر وأعمق.

عَرَف البِزم - إذن - الحياة الأسرية في ظلال الأحوال السائدة آنذاك. كان في الدار جدّه محمَّد (وقد سُمّي باسمه) وأبوه محمود، وأُمّه، وعمّه عبد الله وزوجته، وعمّاتهُ (وهنّ خمس) وجدّته لأَبيه؛ وعرف - أوَّلَ ما عَرف من مسالك العيش وطلب الرزق - العمل في التجارة مع والده.

وبين حياة الأُسرة (وفيها جدّه، وعَمّه ووالده، ولهم شأن كبير في أعماق وجدانه) وبين الحياة العمليّة (التّجارة في «المدينة») والانفعال بالدُّنيا في أحوالها، وأعمالها، والناس الذين كان بينهم، أَو يلقاهم في الحانوت والسوق: تكوّنت معالم شخصيّته في تلك المرحلة:

كان لجدّه محمَّد أكثر من محلّ تجاري في دمشق: وكان يمارس تجارة الحبُوب في الصّباح. وتجارة «المانيفاتورة» في العَشِيّ: ومعه ولداه: محمود (والد الشاعر محمَّد) وعمه عبد الله.

وكان الجدُّ وجيهًا من وجهاء دمشق يلجأ إليه النَّاسُ لحلّ مشكلاتهم، أَو خلافاتهم، وكانت له هيبة في الدار، وعند الناس. ولا يَنْسى الشاعر (الحفيد) محمَّد البِزم من جَدّه مشهد امتطاء جدّه جواده داخل الدار وفتح الخادم السّوداء باب الدار الكبير ليذهب إلى عمله؛ ومشهده وهو يستقبل ضيوفه في غرفة الضيوف: أكبر

«قاعات» الدار، والضيوف حوله؛ يرحّب بهم، ويستَمِعون إليه، ويَسْعى في شؤون مَنْ له حاجةٌ فيهم.

لقد اجتمعت في الجدّ صفتان، كل واحدة منهما ظاهرة مكتملة الجوانب:
١) صفةُ التاجِرِ الماهرِ المتقنِ ذي المكانةِ في السُّوق (وهو يجمع عملين واختصاصين).
٢) والفارسِ ذي الهيبةِ والمكانةِ الاجتماعية.

ويبدو أنّ ولدي محمَّد البِزم (الجدّ) تقاسما تينك الصفتين؛ فـ **محمود** غلب عليه الجانب التجاري، فنجح فيه وجمع ثروة حسنة، و**عبد الله** غلبت عليه صفة الفارس[1].

وسجل محمَّد البِزم تاريخ ولادته، وتحدّث عن مَحْتِدِهِ، وفسَّر نزوعه إلى وطن أجدادِه القديم، قال:

«انحدرتُ إلى هٰذا العالمِ المَنْحُوس أواخر عام ١٣٠٦هـ الموافق لسنة ١٨٨٩م في دمشق.

أما أصلي فقد هبط أحد أَجدادنا جِلّق منذ مئتي سنةٍ أو أكثر، جاليًا عن العراق لأسبابٍ غُمَّ عليَّ وَجْهُ التحقيق فيها. وإِنْ صَحّ أن للإنسانِ نزوعًا إلى وطنه لغير السبب الذي ذكره باقِعَةُ الشعراء أبو الحسين علي بن العباس الرُّومي في قوله:

وحَبّبَ أوطانَ الرجالِ إليهمُ مآرِبُ قَضّاها الشبابُ هنالكا
إذا ذكروا أوطانَهُمْ ذكَّرتْهُمُ عهودَ الصِّبا فيها فَحَنُّوا لذالكا

فإِنّ ما أَجِدُه من **الصَّبْوةِ والحنين إلى العراقِ** غيرُ بِدْعٍ، ولا هو من الغرابة في شيء. وإلى هٰذا أشرتُ بقولي من قصيدةٍ:

(١) صور ومشاهد رواها بعض أبناء الشاعر، وبعض أقاربه عن الجدّ وسائر أفراد الأسرة (شعر محمَّد البِزم - إسماعيل عبد الكريم: ٢٤ - ٢٦).

جِلّـــقٌ منبـــتُ جـــسمي وعـــلى دجلـــةٍ مَخْتِـــدُ قـــومي الغـــابرينْ
وإلى بغـــداد مهـــوى الـــنفس لي أنّـــةٌ تنتـــابُني حينًـــا فحـــينْ

وكان والدي محمود بن محمَّد بن سليم البِزم يحترف التّجارة من نوع «مانيفاتورة» وعليها شببتُ أَنا».

وتَذْكُر أخبارُ طفولتِه، وصِباه الأَول إعجابَهُ بجدّه، وثبات صورته في تصرّفاته المختلفة في مُخيّلته، وخوفه من والده الذي وُصِف بأنّ فيه شدّة وقسوة ، وخوفه من جدّته لأبيه ذات النظرات الصارمة... وكان البِزم يلجأ إلى والدته التي «ظلّت موضع ثقته، وحبّه، ورمز أمنه واطمئنانِ نفسه حتى ماتت. أمّا عمّه عبد الله فكان يكبره بست عشرة سنة، وكان له أشبه بالصديق الكبير...»[1].

في سوق العمل

وانتقل الفتى محمَّد من الدّار إلى محل والده التّجاري، مستفيدًا من القليل الذي تعلمه في القراءة ومبادئ الحساب، التي تكفي مَنْ كان يقوم بمثل عمله في محل تجاريّ أو ما يُشبهه.

وأقدّر أنّ ذلك كان وهو في سنّ مبكّرة، فإنهم كانوا يصطحبون أولادهم إلى أماكن العمل ليتدرّبوا أولًا على الذهاب والإياب، وليلاحظوا الأَبَ، ومَنْ يساعده، في ممارسة المهنة، وفي اكتساب الخبرة تدريجًا، وليتقنوا نظريًّا - ومن ثَمّ عمليًّا - كيفية التعامل مع الزبائن، وليتقنوا معرفة «أسرار الصنعة»، وليكونوا قادرين مرحلةً بعد مرحلةٍ على القيام بالعمل على أكمل وجه.

وفي هٰذه المدّة الأولى من حياته، التي كان فيها منهمكًا في عمله التجاري كان

(١) المرجع السابق: ٢٥.

يستكمل أدوات عمله، ويتعرّف إلى الناس من التجار، ومن الجيران، ومن طبائع الزبائن، ومن أحوال السُّوق... وكان يجمع في ذاكرته من الصور الاجتماعية، ويحفظ من العبارات والأقوال والأَمثال، ويستفيد من التراث الشعبي، الذي ظهرت بعض آثاره في شيءٍ من شعره؛ ونجد شيئًا من ذلك - مثلًا - في قصيدةٍ له وردت في الجزء الثاني بعنوان «ذهبت ذقنك»[1]، وفيها:

ذهبــت ذقنــك مَرْشــا ... فــاحتكمْ لي تُعْـطَ أَرْشـا
فجــزاء المعتــدي بــالمَرْ ... شِ أن يَغْـــرمَ قرشــــا

وفيها: يُهَدّد أحدًا ويتوعّده:

لا تَحَرَّشْ بي وخَفْ سَحْـ ... ـقي إِذا أزْمَعْـتَ جَرْشـا
إن تكن أفعى فإنّي الـضّـ ... ـبُّ لا يَرْهــبُ حَرْشـا

وفي قصيدة «العَرّاف»[2] التي يقول فيها:

ذهبــتْ إلى العــرّاف تطلــبُ نجــدةً ... منـــهُ ليـــسعفها بِحَمْـــلٍ عاجـــلِ
فــدعا بناصــعة الرقــاق، وخَــطّ في ... كلماتِـــــه زورًا لِأَكْـــذَبِ قائــــلِ
قــال: اشربي ذَوْبَ المِــدادِ ولحظُهــا ... يَـــسْطُو عليـــه بحابـــلٍ وبنابـــلِ

والصّورة مأخوذة عن آفة اجتماعيّة كانت سائدةً...

وهكذا، وصل محمَّد البِزم إلى سنّ العشرين، وهو لا يعرفُ من العلم إلا القليل من القراءة والكتابة: ويبدو هٰذا غريبًا في أسرةٍ ذات مكانةٍ ووجاهة وغنى. وقد أشار الدكتور إبراهيم الكيلاني إلى هٰذا وقال إن من الغريب: «أن يبقى هٰذا الرجل الذي

(١) ديوان البِزم ٢: ٣. ولنا عودة إلى هٰذه القصيدة في دراسة شعره.

(٢) ديوان البِزم ٢: ١٥٨.

نشأ في بيئة شعبية متواضعة محرومًا من نور العلم حتى تجاوز العشرين من عمره يتعاطى بيع القماش[1] في سوق البزّازين، حتى إنّ تعلّمه كان محضَ اتّفاق: تحدّث عن نفسه فقال:

«قاربت سنّي العشرين وأنا لا أعلمُ من القراءة إلا بعض قصار السور من القرآن الكريم، ونزرًا من الآي التي يكثرُ جَرْيُها على الألسنةِ ممّا لَقَنْتُه عن «الخوجة» معلّمة الأطفال، ومن أفواه الناس؛ ولا أعلم غيرَ أقاصيص، وسير، كانت تدورُ سَمرًا في الدار ليالِيَ الشتاء. وكُتب لي أنْ صحبتُ عمّي في بعض أسفاره التجارية إلى بيروت؛ وعند أوبَتنا هبطنا بلدة الزبداني، فرأى عمّي في يد أحد سائحي الدراويش المجلد الثاني من كتاب (المستطرف من كل فن مستظرف) للأبشيهي فشراهُ بثمنٍ بخسٍ على غير عادةٍ منه باقتناء الكتب. فكان هٰذا الكتاب - بعد دهرٍ من شرائِه - أول كتابٍ عرفته، بل كان **باكورة عُدّتي الأدبية**؛ فقد أَكْبَبْتُ عليه مطالعةً وتكرارًا، وإن لم أفقه ممّا أقرأ إلا قليلًا»[2].

وتابع محمَّد البِزم تلخيص مجريات تلك المرحلة من حياته ممهّدًا للتّغيير ذي الأهمية الذي طرأ على حياته، فانتقل من حالٍ إلى حال، وبدأ - بذلك - أولى خطوات ظهور محمَّد البِزم الذي عرفه الناس بعد ذلك.

أول طريق العلم

قال البِزم: «وبقي هٰذا شأني، لا أطيق من الكتابة إلا طائفةً من أسماء الأعلام أقلّد برسمها خطّ القرآن، والكتب المطبوعة[3]؛ حتى أُتيح لي أن أدخلَ مرّةً مع صديق لي

---

(١) في المعجم الوسيط (ق م ش): «القُماش: كل ما يُنسج من الحرير والقطن ونحوهما». وأشار برمز (مو) بعد العبارة أي هي مولّدة، والجمع فيه أيضًا: أقمشة.

(٢) شخصيّات - إبراهيم الكيلاني: ٦٩، وقارن كتابه: محمَّد البِزم: ١٩٩.

(٣) قلت: يريد خط النَّسْخ الذي تُكتب به سور القرآن الكريم، عادةً. على أن خط محمَّد البِزم بعد =

المكتبة الظاهرية. فأخذتُ في كتب شتّى من أدبٍ واجتماعٍ وتاريخٍ وفنون، فأَبَهْتُ[1] إذ ذاكَ لضرورة دَرْسِ العربية وفنونها، **وطفقْتُ أنتابُ**[2] **حلقات شيوخ دمشق وعلمائها: أَصْرِفُ همي من عالمٍ إلى عالم**، حتى قذفتني العنايةُ إلى الأستاذ **عبد القادر بدران**، فقرأتُ عليه في ما يقارب ثلاثة شهور شيئًا من **ديوان المتنبي**، ونحْوًا من **مغني اللبيب** لابن هشام، وصدرًا من **دلائل الإعجاز** لعبد القاهر الجرجاني، وكتبًا في الأصول.

ثم لم ألبثْ أن اتّصلتُ بنابغة علماء دمشق السيد **جمال الدين القاسمي**، فقرأتُ عليه في بضعة شهور شيئًا من العربيّة، والبلاغة، والمنطق...

وكان قد نزل في أثناء ذلك دمشق أحد علماء تونس السيد **صالح التونسي**، فقرأتُ عليه في أشهر قليلة كتبًا في علمي المنطق والكلام، وأُخرى في العربية والأصول.

ثم انصرفتُ إلى **المطالعة بنفسي** حتى كان عام ١٩١٣، فانتدبني الأستاذ الشيخ كامل القصّاب مدرّسًا للعربية في مدرسته (العثمانية) ساعات في الأسبوع. فلم أزلْ كذلك حتى دُهِمَ الناس بنشوب الحرب الكبرى فجرفني سيلُها. وانتظمتُ في الجندية في إحدى المصحّات، إلى أنْ دخلتْ جيوش الحُلَفاء سورية؛ وهبّت على البلاد تلك النُّسيمات العربيّة النَّديّة»[3].

= تعلّمه هو الخط الذي كان شائعًا آنذاك في الدواوين والمدارس وغيرها، وهو خط الرقعة. وخط البِزم في مدّة صحته وقوته خط حسن متقن جميل، ثم اضطرب باعتلال صحته. وقد عرفت ذلك من مخطوطات محمَّد البِزم التي اطلعت عليها (وصوّرت منها) عند ولده الأستاذ حسان البِزم.

(١) أبه له، وأبه بهِ أبْهًا: فطن له، وتنبّه. [المعجم الوسيط]

(٢) انتاب صديقه: قصده مرّةً بعد مرّةٍ. [المعجم الوسيط]

(٣) من ترجمته بقلمه. وانظر: شعر محمَّد البِزم لإسماعيل عبد الكريم، وشخصيات للدكتور إبراهيم الكيلاني: ٧٠، ومحمَّد البِزم له أيضًا: ٢٠٠.

- قلت: وسرعان ما تبيّن أن تلك «النسيمات الندية» المتوقعة لم تكن كذلك. وانقلب =

لقد كانت السنوات القليلة التي عكف فيها على لقاء بعض العلماء وعلى العَبّ من الكُتُب الكثيرة المختلفة، كافيةً لتنتقل بهٰذا الفتى من حالٍ إلى حال، وفي دراسة الدكتور سامي الدِّهان لشعر محمَّد البِزم، وتلخيص سيرته أنه «أتقن العلم خلال ست سنوات، وأُتيح له أن يكون فيه مدرّسًا خلال هٰذه السنوات القصيرة بالمدرسة العثمانية. وكانت مدرسة راقيةً يَفِدُ إليها كثيرون، ويتعلّم عليها كثيرون»[١].

وتوقّف أكثر الذين كتبوا عن محمَّد البِزم عند هٰذه الظاهرة اللافتة حقًّا، وهي - كما عبّر أحد محبّيه، وعارفيه د.إبراهيم الكيلاني - : ظاهرة مهمة في حياة البِزم: «ارتقاء من العامية والجهل إلى العلم، تدفعه إلى ذلك إرادةٌ قويّةٌ، ونَهمٌ شديدٌ إلى المعرفة، وفعاليّةٌ موزّعة في سن مبكرة بين الأخذ والعطاء، والتعلم والتعليم، مِمَّا قوّى رغبته، ورسخ معلوماته التي حصل عليها بالدَّأب والاجتهاد والسهر الطويل». ثم علّق: إن **محمَّدًا البِزم مثالٌ حيٌّ للعصامِيّة**[٢].

ومَرّ الأستاذ أحمد الجندي على هٰذا الملمح مُعْجَبًا، وأكّد **عصامية البِزم**؛ فلم يكن محمَّد البِزم من أسرة معروفة بالعلم؛ «لذلك فهو عصاميٌّ حقًّا؛ هداه ميلُه الفطريُّ إلى دراسة اللغة والنّحو ثم الشعر والأدب...»[٣].

أَسْهَم محمَّد البِزم في تبيين أسباب التغير الجذري الذي طرأ على حياته وفي تأريخه، وفي نقل مشاعره في تلك المدّة الحاسمة التي كانت مفصلًا أساسيًا في مجْريات حياته الشخصية من جهة، وفي تكوين شخصيّته الأدبيّة والعلمية التعليميّة.

= «الحليف» إلى مستعمر بغيض، وزعم **اللنبي** - وقد دخل القدس - أن الحرب الصليبية انتهت على يديه (لمصلحتهم) ووضع غورو قدمه عند حرم ضريح صلاح الدين وهو يناديه لقد عُدنا يا صلاح الدين!!

(١) الشعراء الأعلام في سورية، د.سامي الدهان: ٣٦.

(٢) شخصيات: ٧٠.

(٣) شعراء سورية: ٧١

ونقف عند ثلاثة مؤثرات عطفت البِزم، وحوّلت اتجاهه، ونقلته إلى جانب آخر لم يكن في حُسبانه، ولا في تقدير مَنْ عرفوه في تلك المدّة:

١- **الأول**: ذلك الجزء اليتيم من كتاب «**المستطرف**»الذي اشتراه عمّه، وصار بين يديه يقرأ فيه مرّةً بعد أخرى، لا يملّ ذلك وإن كان نفوذه إلى ما فيه قليلًا جدًّا.

٢- **والثاني**: تلك **الزيارة العارضة مع صديقٍ له إلى المكتبة الظاهرية**، ومعايشته الطرفين المتكاملين: **الكتب** ذات الألوان الفكرية والأدبية والعلمية، **والقراء** الذين يكبّون على ما بين أيديهم بصمت وهدوء وجلال.

٣- **والثالث**: لِقاء العلماء، في بدء التفاته إلى العلم. ونخص منهم اثنين بارزين كانا أوّل من لقي:

أ) علّامة الشام: عبد القادر بدران (توفي سنة ١٩٢٧م)[١].

ب) وجمال الدين القاسمي: أحد علماء الإصلاح الحديث في الشام (توفي سنة ١٩١٤م)[٢].

وكانت هٰذه المؤثرات بدء المنعطف العظيم في حياته، وقد قسم الذين كتبوا عنه

---

(١) اعتنى بترجمته مؤرّخو هٰذه المدّة، وألّف فيه الشيخ محمَّد بن ناصر العجمي كتابًا عنوانه: علامة الشام عبد القادر بدران الدمشقي: حياته وآثاره، (دار البشائر الإسلامية، بيروت، ١٤١٧هـ- ١٩٩٦م).

قال فيه الزركلي (الأعلام ٤: ٣٧): «فقيه أصولي حنبلي، عارف بالأدب والتاريخ، كان حسن المحاضرة» وكان متقنًا للعلوم اللغوية إتقانه للعلوم الشرعية.

(٢) ترجم له كثيرون، ومنهم ظافر القاسمي، وكتابه: جمال الدين القاسمي وعصره (مكتبة أطلس، دمشق ١٣٨٥هـ). وقد رثاه أخوه صلاح الدين مشيرًا إلى بعض معارفه وعلومه:

نـال مجـدين مجـد علـم وأصـل ... فـسَما كـلَّ ذي نجـارٍ أصـيل

قـد زهـت نفـسه بـروض فنـون ... هـي غـرس المعقـول والمنقـول

حياته إلى قسمين: حياة السُّوق والتجارة، ثم حياة التعلم التي أدّت إلى التعليم، ومجموعة من وجوه النشاط الأدبي واللُّغوي كان على رأسها ملمحان اثنان:

- **ممارسة مهنة التعليم**، والتبريز في تعليم العربيّة (بتخصصاتها المتعدّدة).
- **والنبوغ في صنعة الشّعر**، والوصول إلى مرتبة شعراء الشام المعدودين الأوائل.

* * *

لم يحدّثنا محمَّد البِزم في سيرته (التي بناها على الاختصار والإيجاز) عن الكتب التي قرأها، ولا الاتجاهات الأدبية واللغوية، وغيرها، التي اهتمّ بها في مرحلة التكوين، التي كانت مكثفة، وغنية، وكانت سريعة أيضًا.

ويظهر لقارئ ديوانه من جهة، وقارئ مشروعات الكتب التي عزم على تأليفها، وللناظر في مذكراته، وأوراقه، وجزازاته الكثيرة: تنوّع مادّتها، وغنى اختياراتها وحسن الانتقاء فيها.

وسأضربُ مثلًا من مصادر كتابه «الأجوبة المسكتة» التي دلّت على التنوع والاتساع، ووفرة المصادر والمراجع... ولعلني أقول «استيفاءه» أيضًا، عند الكلام على مؤلفاته.

وهٰذه السنوات الست الأولى لا تمثّل ثقافته كلها... لقد كان دائم القراءة، متابعًا لما يصدر من المؤلفات في اللغة والأدب والنقد والبلاغة، إضافة إلى اهتمامه بالتّواريخ وتراجم الرّجال وكتب الجغرافية التّاريخية، وإلمامه بالمقاصد الشرعية التي تلقّى أصولًا منها على يدي الأساتذة الأوائل: بدران، والقاسمي، والتونسي.

إذن، كانت السنوات الستّ (١٩٠٧ - ١٩١٣) سنوات تحصيل علمي مزدوج: من الأساتذة العلماء من جهة، ومن القراءات الذاتية من جهة أُخرى. وكانت المكتبة الظاهرية - كما أشار البِزم - مُرْتادًا له. وكانت «المِسْكِيّة» وهي سوق

قديمة للكُتب قريبة منه، وهي على طريق الذاهب إلى الظاهرية من جهة «المدينة» وسوق الحميدية.

وكانت دمشق وحلب (ومعهما أماكن أُخرى في سورية) تستورد الكتب المختلفة من مصر؛ وكثيرًا ما كان الكتاب الجديد يُعْرَض في دمشق وحلب في وقت عَرْضِه في القاهرة. وكانت المكتبة العربية لأصحابها آل عبيد مرتادًا له، وكانت له صحبة وصداقة معهم، ونخصّ أحمد عبيد منهم. وللبِزم قصيدة فيه بعد عودته من أداء فريضة الحج: عنوانها (تحيّة)[1]، وهي قصيدة رقيقة، للشاعر فيها سَبَحاتٌ وجدانيّة عميقة، ومما قاله لصديقه أحمد عبيد:

فهل تُرى تذكرني عندما ... تَساءَلُ الأَنْفُسُ عن دارِها؟
وقد حَوى المَحْشَرُ كُلَّ الورى ... من كَيِّسِ النَّاسِ وأشرارها

تكميل وتأصيل

قرأ محمَّد البِزم ما وصلت إليه يده من دواوين الشعراء القدامى، من العصر الجاهلي إلى آخر العَبّاسي والأندلسي... وهو - وإن اطّلع على ما في العصرين المملوكي والعثماني – فقد انتقل سريعًا إلى المُحْدَثين والمعاصرين.

وأعلن إعجابه بالشعر القديم الأصيل، واستأثر باهتمامه عدد من الشعراء أشهرهم: أبو الطيب المتنبي، وأبو العلاء المعري، وفيهم أبو نواس، وأبو تمام، والبُحتري، وابن الرومي، وابن زيدون وغيرهم.

وفي شعر البِزم - أصداءٌ عن شُعراء كثر: فيهم امرؤ القيس وعنترة وبعض الصّعاليك من الجاهليّين، ولمحاتٌ تذكّر بشعراء حماسة أبي تمام في أغراضهم

(١) ديوان البِزم ١: ٢٧٥ - ٢٧٨.

المختلفة، ونخصّ شعر الحماسة والحميّة والعنفوان.

وأكبَّ البِزم أيضًا على أعلام الشعر الحديث، والمعاصر، ونذكر منهم أحمد شوقي، وحافظ إبراهيم، والشبيبي، وخير الدين الزركلي، ومعروف الرُّصافي.

وأَضافَ إلى ثقافته الكثير المنتقى من النّثر العربي، واستفادَ من قراءاته الواسعة في كتب الجاحظ، وأبي العلاء المَعرّي، وابن رشيق، وابن قتيبة، وابن عبد رَبّه... وكانت السنوات التالية كفيلة باستكمال قراءات محمَّد البِزم ومطالعاته في سائر الكتب من كتب التَّراجم والتّواريخ، والنقد والبلاغة، والمعاجم المختلفة، ونخصّ المطوّلة منها، وكتب العَرُوض.

وفي أدبه: شعرًا، ونثرًا، ونقدًا دلالاتٌ على قراءة متأنيّة لكتب أَساسية مطولة كالأغاني، والعقد، وطبقات ابن سلام، ومعجم الشعراء للمرزباني... الخ.

وتدلّ النُّصوص والملاحظات والآراء والتّقريرات التي يلاحظها قارئ مشروعات كتبه، ومذكراته لطلابه على سعة قراءاته في التراث العربي القديم (ولا نَغْفَلُ عن متابعاته المعاصرة)، وعلى تمثلّه ذلك الذي طالع وقرأ، وصولًا إلى نقده لبعض القدماء، واستخراج أخطائهم وهفواتهم...

وكان للنّحو والصَّرف واللّغة الحظ الأوفى من اهتمامه: دارسًا ومعلّمًا، ومؤلّفًا. وسنقف مع هٰذا الجانب، عند الكلام على مؤلفاته أو مشروعات الكتب من آثاره.

وقد بيّن البِزم بقلمه، ومن مدّة مبكرة من حياته أنّه على استفادته من العلماء الكبار المذكورين في ترجمته اعتمد كثيرًا على تعليم نفسه بنفسه. وخطا في ذلك خطوات حثيثة دقيقة واعية حتى وصل في زمن قليل إلى أن صار علمًا في شؤون تربوية ولغوية وأدبية ونقدية، إضافة إلى مكانة في الشعر العربي الحديث لا يشاركه فيها غيره.

ونقرأ من ذكرياته

«هٰذا ما غَبرت، ثلاثين عامًا، مشغولًا به. أنساهُ دهرًا ثم أذكره، فألهجُ به في مَعْدايَ ومَراحي، ويقظتي ونومي، حتى لطالما عرَضَتْ عليَّ الأحلامُ معارك نحوية أَشْهَدُها أو أُشارك في ملاحمها. ولو كان لجسمي أن يطالبني بما حُرِمْتهُ من راحةٍ في سبيل عملي هٰذا، وأُلزمْتُ القضاءَ – وما أحوجني إلى القضاء – لحَكَم عليَّ أنْ أَقضِيَ هٰذه الصُّبابةَ من عُمري تقلّبًا على وثيرِ المَراقِد، واتّكاءً على ثبوتِ النمارق. لا أَمشي إلا بين رَبْوَةٍ وغدير، على رنّة مِزْهَرٍ وهدير؛ وتفصيل ذلك أنّي بقيت إلى ما قبل خمس وعشرين سنة متسائلًا حائرًا، متردّدًا، أستعينُ فلا أَجِدُ مُعينًا؛ فإن هَمَمْتُ بالتَّرْكِ انتصب لي من نفسي ماردٌ مُلِحٌّ غيرُ خوّارٍ يقولُ لي: أقدِمْ فالظّفَرُ مكفول، والخيبةُ لغير العاملين. فأَخذتُ بتقييدِ نقودٍ على ما يخامرني فيه الشّكّ من قضايا العربيّة نحوًا وصَرْفًا، ومادّةً لغويّةً إلى ما قبل خمس عشرة سنة حين تحقّقت خَطئي في كثير منها قبل ثماني عشرة سنة، فمزّقتُها إلا قليلًا، ثم استأنفْتُ الاستكشاف، وأَمعنتُ في الاستشراف في ثنايا الفترات أنتهزُ الفُرَص، وأفترصُ النُّهَز، **غَرْفًا من المعاجم**، وكتب التفسير، وشروح الشعر، والحديث، والأَدب، والتاريخ، وتراجم الرجال عامّةً غير **كتب النحو الطامية** في بحر قلّما رُجِيَتْ نجاةٌ لغريقه، أكابِدُ من الصبر ما يمزّق جلد الصَّبِير، ويذهب بِحلم الحليم؛ إلى ان أطلّت عليّ أشباح الناقدين قِبَلي تصافحني من بين السطور، وقد أَنكروا ما أنكرت، وثاروا ناقمين على ما ثرت ونقمت، فداخلني من بَرْدِ اليقين، وثَلَجِ الصّدر ما جَدّد من قوّتي، وزاد في عزمي. فمضيتُ قُدُمًا وقد مشى إلى نفسي من العزاءِ عمّا مضى من النَّصَب والسهر ما خشيتُ معه أن يصرفها الزّهو والغرور، والوثوق بالظفر إلى ترك العمل».

* * *

متابعة المجريات

في ما بين ١٩١٣ و١٩٢٤ جرت أحداث عامة في سورية، وأحداث خاصة بالشّاعر: كان لها أثَرٌ في مجريات حياته: الشَّخصيّة، والأُسَرِيّة، والعلميّة، والعامّة.

١- ما بين سقوط عبد الحميد الثاني ١٩٠٨ ونشوب الحرب العامة الأُولى ١٩١٤ قويت شوكة جماعة الاتّحاد والترقي، واسْتَشَرَتْ دعوتُهم إلى التّتريك، وضاقت الحال بالإصلاحيين العرب، ودُعاة القومية، حتى ارتفعت المشانق أيام جمال باشا، وكان البِزم يلاحظ هٰذا، ويعادي دعوة التتريك، وينادي بالحريّة.

٢- توفي والد الشّاعر بعد مَرضٍ طويل، أَواخر سنة ١٩١٢، وتقاسم هو وعمه عبد الله الميراث، وحصل هو على ثلاثة أرباع التّركة. وأسرف الشاعر في الإنفاق على نفسه، وأهوائه حتى أنفد الثروة.

٣- بدأ محمَّد البِزم **نظم الشعر في هٰذه المُدّة**، وكان أول ما نظمه بيتان قال فيهما، وقد تناول شيئًا من الشراب:

شربتُ من الصّهباءِ عشرينَ درهمًا فَخُيِّلَ لي أَنّي صعدتُ إلى السَّما
وصَافحني المِرّيخُ؛ والبدرُ قال لي: ألا عِمْ صباحًا أيها الخِدْنُ واسْلَما

ونتابع ما سجّله محمَّد البِزم في ترجمته بعد هٰذه الباكورة من النتاج الشعري قال: «ومن ثمّة أخذتُ أَرْمِي الصحف **بقصائد ومقطوعات قوميّة**، فيها من حَثّ العَربِ على النهوض من إغفاءتِهم، والمطالبة بحقوقهم المغصوبة بيد التُّرك ما لم أَزل أقرعُ وَترهُ، وأَجري على نَغمتهِ حتى اليوم[1]، وإلى

(١) كتب البِزم ترجمته سنة ١٩٢٣.

أنْ تُقَدّرَ لي الرحلةُ إلى عالم التحوّل، المعبّر عنها بالموت والفناء. شجّعني على متابعة النشر ما كانت تلقاه تلك القصائد من الحُظوةِ عند أهل الخِبرة بالأدب والشعر؛ غيرَ أنَّ أمدَ ذلك لم يَطُل كثيرًا، حتى شهرَ التُّركُ النفير العام، فَكُمّت الأفواهُ، واشتدّت الرِّقْبَةُ، وأُصْلِتَ السيفُ فوق أعناق الأحرار من العرب. ومشتْ الخشيةُ في النفوس، ودَبّ الذُّعْرُ في أشدّ القلوب، وأقوى الأفئدة، ولم يعد أحدٌ يَجْرُؤ على القول في جَهْرٍ ولا سِرّ، لكثرة ما بُثَّ من العُيون، وانتشرَ من الجواسيس، **فكنتُ كلما قرضت شيئًا فيه ذِكرُ العربِ، وما يقاسونه من إرهاق الترك وخُشونتهم دسستُه إلى والدتي، ورجوتُها أن تبالغَ في إخفائه والحرص عليه**، حتى اجتمع لديها من ذلك طائفة صالحة، وعندما جلا التّركُ، وطَلَبْتُها منها فتّشتْ، ولكنّ تفتيشها ذهب سُدًى! ويبقى لديّ من الحسرة عليها ما يجده مَنْ أضاع ما قرضه من سنين ثلاث، في ثانيةٍ واحدة!»[1].

٤- وعاد محمَّد البِزم إلى تدوين ما ينظمُه وإعلانهِ غَيْرَ هَيّاب ما كان قبل ذلك مِنْ حجز الحريات وتكميم الأفواه. وفي الديوان قصيدتان تشيران - بما فيهما من مقاصد وآراء وآمال، ومن خطاب رجال معيّنين – إلى أنهما من تلك المدّة، جعل عنوان الأولى (وَثْبَة الأسد)[2] أوّلها:

المجدُ حيثُ قراعُ السُّمْرِ والقُضبِ والعزُّ في صَهواتِ الضُّمَّر النُّجُبِ

قال فيها:

إليك أهدي - أَميرَ المؤمنينَ - على بُعْدِ المَزارِ سلامَ الشَّيّقِ الطَّرِبِ
تحيّةً عن بَنِي الفيحاءِ يَتْبَعُها بُشراكَ بالفتح بعدَ النَّصْرِ والغَلَبِ

(١) محمَّد البِزم: أهلي ومولدي ومنشئي. وشعر محمَّد البِزم (إسماعيل عبد الكريم): ٣٢.

(٢) ديوان البِزم ١: ٢٥٣ - ٢٥٦.

أَسْـدَيْتَ للعُـرْبِ نُعمـى لا يقـوم بهـا مـدى الزمـانِ بيـانُ الـشّعرِ والخُطـبِ

وكان الزمان قريب عهدٍ بخروج الجيش التركي من الشام، ودخول القوات العربية مع قوات الحُلَفاء، ومن هنا قول البِزم في القصيدة نفسها:

وقد دَخَلْتُم وسيفُ النَّصرِ مُنْصَلِتٌ مـا بـين مُبتـسمٍ فيهـا ومُنْتَحِـبِ
بكـلّ أَروعَ «لِلتّـامِيز» نـسبتهُ أو ماجـدٍ بطـلٍ للعُـرْبِ منتـسبِ

نعم! دخل العرب، مع الحلفاء، وعلى رأسهم أبناء التاميز[1]. كان هٰذا قبل أن يتنبّه العرب إلى الخدعة الكُبرى حين وعدوا باستقلال العرب جميعًا في دولةٍ واحدة ثمنًا للتحالف معهم ضدّ الدولة العثمانية - (الأتراك).

وعنوان القصيدة الثانية «الفتكة البِكر» وأولها[2]:

تَخَـيَّرْ جيـاد الـضّمْرِ واتـركْ بطانَهـا وغـادِرْ حيـاةَ الـضيم واهْجُـرْ دنانَهـا

يقول فيها:

إلى أَرْوَعٍ مـن يَعْـرُبٍ في أرومـةٍ يُـزَانُ بهـا، لكنّـه اليـومَ زانَهَـا
بـه اعتـزّ شـأنُ العُـرْبِ شرقًـا ومغربًـا وأيقـظَ غافيهـا، وعَـزَّ مُهَانَهـا

والقصيدتان من الشّعر القومي (وهٰذا من تصنيف الديوان). وظاهر على القصيدتين روح الحماسة، والنَّفَسُ البدويُّ، ومتانة السّبك.

٥- لئن اكتسب محمَّد البِزم معلومات كثيرة عن الحياة، وعن العمل في السوق (التجارة خاصة) لقد فاته ما يتميّز به التاجر عادةً من الحِرْص، وعدم

(١) كَثُرَ ترداد عبارة «أبناء التاميز» كناية عن الإنجليز - والتايمز هو نهر مدينة لندن - ومثلها «أبناء السين» كناية عن الفرنسيين... الخ (لهٰذا تفصيل في كتابي: معجم الكنايات المعاصرة).

(٢) ديوان محمَّد البِزم ١: ٢٤٨.

التبديد، والانتباه إلى التوازن بين الداخل والخارج (المصروف). ولو كان استقلَّ بدكانه بعد وفاته، ولو مدّة محدودةً، لأدرك هٰذا الملمح الحياتي، الاجتماعي، التجاري. ولكنه بدّد ما ورث، و: يَصْدُقُ عليه ما يقال في أمثال الشام «خذ من التلّ يختلّ» و: «هات البَطّال، وهات بيت المال»!!

وضاقت الحياة على البِزم لضيق ذات اليد. وحاول - وهي في اعتقادي محاولةٌ شكلية - أن يضرب في الأرض، وكتب إلى صديق له في بغداد أن يسعى له في عمل هناك، وكانت رسالته إلى صاحبه أُرجوزة (مزودجة) قال فيها[1]:

مُــلَّ المُقَــامُ واجْتَــوتْني الــدَّارُ ... واشــتوَرَتْ في قَتْــلِيَ الأقْــدارُ

مـن بعـد مـا قـد كـان عَيْشِي غَيْدَقَا ... وآب في الرقعــةِ فَــرْزِي بَيْــدَقا

(يريد: رقعة الشطرنج، ذكرها على التشبيه والتمثيل).

وفيها أيضًا:

هــل لي إذا زُحْزِحــتُ عــن إقليمــي ... مَغْــدًى إلى التهــذيبِ والتعلــيم؟

في دارةٍ عــلى ضــفافِ دِجْلَــهْ ... والحُــرُّ لا يَــرْضى لِحُــرٍّ دَجْلَــهْ

ويقول لصاحبه حاولْ، وإلّا فإنني متوجّهٌ إلى مصر (أجرّب حظي!):

فــإنْ يَجِــئْ مــن نحــوكم لي إصْرُ ... أُقْــدِمْ وإلّا تجتــذبْني مــصرُ!

وذو النُّهَــى مهــما تــأنّى وصَــبَرْ ... لا يَرْتـضي الهُـونَ ولـو لاقَـى العِـبَرْ!

ولكنه لم يذهب إلى العراق، ولم يقصد إلى مصر، وانفتح له بابٌ للعمل في دمشق، لقد كُتِبَ له أن يكون معلّمًا، نعم، وأن يكونَ معلّمًا ناجحًا، ذا مزايا كثيرة.

---

(١) ديوان محمَّد البِزم ١: ٣١٧ - ٣١٨.

محمد البزم ومهنة التعليم

في سجل عمل محمَّد البِزم «الرّسمي» في الدّولة.

١- معلم في مدرسة السمّانة بدمشق ٧ كانون الأول ١٩٢٤.

٢- أستاذ اللغة العربية في تجهيز الذكور بدمشق ١ تشرين الأول ١٩٢٦.

٣- أحيل على التقاعد ١٥/ ٩/ ١٩٥٣.

٤- عين عضوًا عاملًا في المجمع العلمي العربي بدمشق في ١٢ صفر ١٣٦١ الموافق ٢٨ شباط ١٩٤٢.

وكانت ترقِيتَهُ من مدرسة صغيرة ابتدائية إلى ما وراءها قد بدأت بتقريرٍ لمدير مدرسة السمّانة: لطفي الحكيم رفعه إلى وزارة المعارف في ١/ ٧/ ١٩٢٥ وجاء فيه:

١- **قدرته العلمية**: عالية في الأدبيات العربية، والشعر، والصرف، والنحو، والمنطق، والمعاني والبيان.

٢- **درجة استحقاقه للترقّي**: يستحق أن يكون معلمًا للأدبيات العربية في جميع الصفوف العالية التجهيزية لأنه أخصائي بها بدرجة عالية.

٣- **وجاء في وصفه للبِزم**: إن المُوما إليه كريم الأخلاق، لين الطبع، ذو عزّة نفس، شديد التمسك بالأخلاق العربية الكريمة، مخلص لوطنه، يستحق زيادة راتبه إذا أُبقيَ بوظيفته الحالية، وبالحقيقة يليقُ بأنْ يكون أستاذًا للعربية مع كل أنواعها في المدارس التجهيزية.

وجاء في تقرير مفتش اللواء واقتراحاته (بتاريخ ٢٦/ ٧/ ١٩٢٥):

٤- إن هٰذا المعلم متضلّع بآداب اللغة العربية: يُجيد الصناعتين النثر والنظم،

جديرٌ بأنْ يتولى التعليم في المدارس التجهيزية.

وبناء على هٰذه التقارير نُقِلَ البِزم إلى التجهيز في أول تشرين الأول من سنة ١٩٢٦.

المرحلة الأخيرة

في خلاصة سجل محمَّد البِزم في وزارة المعارف أنه محمَّد البِزم بن محمود؛ المولد في الشام (دمشق) سنة ١٨٨٤، وعلى هٰذا التاريخ إضراب بقلم معترض، وفوقه ١٨٩٤، مع عبارة: صحّح (يعني تاريخ المولد) بموجب كتاب رئيس الديوان رئيس ديوان السجل العام في ٣١/ ١١/ ٩٢٤. والمحافظة التي يتبعها: دمشق والمحلة هي الشاغور (حمّاديّة) ورقم الدار ٨٦[1].

وتحت عبارة: درجة تحصيل (شهاداته) مكتوب: عضو المجمع العلمي العربي بدمشق.

وكان على البِزم، وقد نُقل من الابتدائية نقلًا، لكي يدخل في ملاك المدارس الثانوية أن يحقق واحدةً من ثلاث: الشهادة العالية، أو اجتياز حلقة، أو عضوية المجمع.

وأنفت نفسه من قبول الدّخول في امتحان لاجتياز حلقة، ولم يكن البِزم ليفعل هٰذا، وهٰذا يفسر، ولو جزئيًّا - رغبته في دخول المجمع، وهو يرى نفسه أهلًا لذلك، وقد نقول مع تلميحاته في ديوانه، وفي أطرافٍ من كتاب الجحيم إن بعض «حملته» على زملائه في التعليم، الذين هم في المجمع، يرجع إلى ذلك السَّبب أو يتّصل به.

ويَسوغُ ما قالَهُ - أو نَقَلَهُ - إسماعيل عبد الكريم في كلامه على البِزم وهو

(١) من وثائق الإضبارة.

يترقب حصوله على عضوية المجمع لأسباب منها ترقيته في عمله في وزارة المعارف، قال[1]:

«لكنّ أبوابَ المجمع أُوصدت في وَجْهِه - لاعتبارات شخصيّة - مدة طويلة امتدّت حتى السادس والعشرين من كانون الثاني ١٩٤٢م؛ ظلّ البِزم خلالها تابعًا لملاك التعليم الابتدائي **منتدبًا إلى التعليم الثانوي** انتدابًا، وقد آذاه ذلك في نفسه، وآذاه في ماله، ووَلّد لديه نقمة شديدة على رئيس المجمع العلمي العربي الأستاذ محمَّد كردعلي، وعلى فئة من أعضائهِ في مقدّمتهم الأساتذة عبد القادر المغربي، وعبد القادر المبارك، وسليم الجندي» انتهى بحروفه.

التقاعد، والاعتلال، والمستشفى

إذن، ظلّ محمَّد البِزم يعالج التدريس طوال أيامه، إضافة إلى ما كان يقوم به من مهام أوكلها إليه المجمع، وإلى ما يخطر له من خواطر الشعر وفنونه. قال د.الدّهان: «فإذا تعب جِسْمُه وجاوز الستين ركبته العلل والأمراض (والأولى أن يقال ثقل عليه عبؤها) وأُحيل إلى التقاعد، وضاق بالعيش، وتعسّر الشفاء أُسْلِمَ إلى مستشفى عسكري، أوصله إليه ضابط من طلابه عشق الشعر، وتمرّس به - وهو الطبيب الشاعر: عزّة الطباع، وكان ضابطًا في مصلحة الصحة بالجيش - فجعل له نصيبًا في رعاية الجيش، وظلّ على ذلك حتى فقد نور عينيه، وفقد بعدهما الحياة، فأسلم الروح إلى بارئها يوم الاثنين في ١٢ أيلول (سبتمبر) ١٩٥٥، وبكاه أصدقاؤه وطلابهُ في همس حزين لم يبلغ إلى الاحتفال بذكراه، أو التحدّث عن شعره[2].

وأشار الطنطاوي، في إجمال إلى دخول البِزم المستشفى العسكري، ونسب

(١) شعر البِزم - إسماعيل عبد الكريم: ٤١.

(٢) الشعراء الأعلام في سورية: ٤٣ - ٤٤.

دخوله إليها، إلى العقيد أديب الشيشكلي حاكم سورية في تلك المدّة، فالضابط الذي ساعد البِزم على دخول المستشفى قد استعان بالحاكم رئيس الدَّولة، وكانت أخباره في خدمة الناس كثيرة واسعة، فقال الطنطاوي: «ولكن الله ألهم الشيشكلي جزاه الله خيرًا، وكان حاكم البلد، فأدخله المستشفى العسكري، وبقي فيه مخدومًا مَرْعِيًّا، حتى توفاه الله فقيرًا، ما ترك إلّا ديوانه الذي طُبِعَ بعد موته»[1].

وتحدّث نجاة قصاب حسن[2]، وقد أشرتُ إليه مرارًا، عن لقاء أستاذه (بالمصادفة المحض) في مستشفى المزة العسكري، فوصف حاله، وغرفته، وضعف جِسمه، وقوّة ذاكرته، وحضور بديهته، وقال إن الغرفة كانت عامرةً بالكتب، فقد وظفوا من يقرأ له إضافة إلى من يجيد ذلك من زوّاره كابنه الأستاذ حسان، وغيره.

وقد ظلت ملكاته الذهنيّة ومخزونه الفكري، وبداهته حاضرين في مرضه إلّا إذا اشتدّت عليه الوطأة، وذهل من جَرّاء ذلك. وقد سجّل هٰذا من كتب عنه – وقد رآه في المُستشفى – مثل نجاة قصاب حسن، وإبراهيم الكيلاني، أو زاره من أصحابه مثل الشاعر أنور العطار، والأستاذ (المدرّس) قدري الحكيم، والأستاذ محمود الجبان[3]، أو من أقاربه مثل أَولاد عمّه، ود.عبد الفتاح البِزم وهو ابن أحد أبناء عمّه، ومثل أولاد محمَّد البِزم: صفوان وغسان وحسان. وقد حدّثني أ.حسان عن تلك المدّة بإسهاب.

وحدّثني الدكتور عبد الفتاح البِزم ببعض أخباره، وفيها خبر يدل على تمام ذاكرته، وحسن حواره، واحتفاظه بروح النكتة اللاذعة – ولو كانت مُرّةً – إلى

(١) ذكريات – علي الطنطاوي ١: ١٢٧.

(٢) جيل الشجاعة

(٣) ذكره الدكتور الدهان، وتحدّث عن إعانته بالوصول إلى تراث البِزم وبعض أهله (الشعراء الأعلام في سورية: ٣٤).

أواخر أيام حياته. وقد رويت الخبر في شخصية البِزم.

كانت سنوات المستشفى العسكري على البِزم عسيرة. اصطلحت عليه الأمراض، وزاد ضعف قواه شيئًا فشيئًا، وأثر ذلك كله في بَدنهِ، ولكنه لم يؤثر في ذاكرته ولا في تفكيره، وبقي على طريقته من التمسك بالعربية الفصيحة، ومن تمكّن عزّة النفس في أعماقه، ولعلّه لم يفقد كثيرًا من روح الدُّعابة ولكن على طريقته المألوفة عنه.

ونقف بإيجاز - كافٍ - عند هٰذه المَرْحلة، فإنها الخاتمة، كما رآها بعض أصحابه وتلامذته، قال د.إبراهيم الكيلاني[1]: «عاش البِزم حتى نيّف على السّتين، وكان قد خرج من ثورة الشباب محطّمًا مكدودًا كمن خرج من معركة طاحنة. فتعاورته الأوجاع والأمراضُ، والأوهام في بداية كهولته حتى صار بتحامل على عصاه، يملأ جيوبه بالعقاقير والأدوية، ويقول عن نفسِه إنّه صيدلية متنقّلة... وكُف بصره، وجفاه الناس...».

الحال الاجتماعية: (من قضايا حياة البزم)

للبِزم ثلاثة أولاد، من زوجته الثالثة مُنَوّر، وهي أرمنية تركيّة، هم صفوان (ولد ١٩٣١) وحسان (١٩٣٢) وغسان (١٩٤٥). وفيهم أ.حسان على قيد الحياة، مدّ الله في أَجله.

وقد سبق زوجته السيدة منور زوجتان، وتزوج الرابعة في مدة كان البِزم طلق فيها الزوجة الثالثة، ودام زواجه الرابع سنتين ونيّفًا.

وليس في الديوان المطبوع شيء مباشر تقع عليه العين ذو صلةٍ بأُسرته، لا نجد ذكرًا لأولاده ولا أزواجه، ولا أقاربه. وهو - كما يبدو - من نوع من الناس يترك

(١) محمَّد البِزم - د.إبراهيم الكيلاني: ٢٠٤ - ٢٠٥.

هٰذه الأُمور لنفسه، ويرتقي بها عن الحديث عنها علانية. وهٰذا مذهبٌ سلكه شعراء كُثر قديمًا وحديثًا.

ومن هنا لم نجد أثرًا لزيجاته المتكررة، ولا طلاقه أَيضًا، وإن كان في ديوانه قصيدة بعنوان (الطفولة)[1] فيها تهنئة لبدر الدين الصفدي بمولود هو الثاني من أولاده. وفي القصيدة ملامح إنسانية وأخرى وجدانية، تدل - بلا شك - على أن الشاعر لم يحجم عن شعر الطفل، والأسرة وما شابه لنقص في قدرته الشعرية.

واستفاد البِزم من نتفة شعرية لشوقي حين قال في ابنه علي:

صار شوقي أبا علي في الزّمان الترلّلي

فقال البِزم:

فأصبحَ بَدْرٌ أبا هَيْثَمٍ ومُزْجي هشامٍ بساحِ الرِّهانْ
هلالانِ لا يألوان العيونَ جلال الجمالِ ولا يَخْبُوَانْ
ومُهرانِ في حلباتِ الزمانِ يبذّان سبْقًا ولا يكبُوَانْ
فيا كبدانِ، ويا ناظرانِ ويا عَلّتانِ، ويا نَهْلَتانْ!...

وسألت أ.حسان ولد الشّاعر إن كان يذكرُ شعرًا لوالده في شيءٍ من أَحوال الأسرة وأَفرادها، فلم يذكر عن ذلك شيئًا، فكأنّ شعره في هٰذا الباب مفقود، أو هو طريق لم يسلكه الشّاعر مشغولًا بغيره.

السجن

دخل محمَّد البِزم السجن، وبقي فيه سبعين يومًا. والمعروف المشهور عنه أنه

(١) ديوان البِزم ١: ٣١٤.

وطنيّ يجاهر بوطنيّته. ولكنّ لسجنه قصة رواها علي الطنطاوي في ذكرياته[1] أسوقها كما رواها، قال: إن البِزم هجا مرّةً شفيق جبري بقصيدة قافيتها على الزاي المضمومة: لمزُ، وخزُ، طنزُ، عَجْزُ، فيها هٰذا البيت:

ولـو شئتُ سَيَّرتُ القـوافي جحـافلًا وأَوقـرتُ أسـماعًا وكـان ليَ الفَـوْزُ

ونشرت القصيدة أيام الثورة السورية، وكانت البعثة - أي دار مندوب المفوّض السامي الفرنسي - تراقبُ المطبوعات، وكان المراقبُ نصرانيًّا ضعيفًا في العربية، فلم يفهمها، وحار في رفع تقريره عنها، فسأل زميلًا له أعلم منه. فقال له: إن الجحافل: الجيوش. فكتب أنّ البِزم يدعو لحشد الجيوش لحرب فرنسة! فقبضوا عليه، وبيّتوه في السِّجن، فما أنقذه إلا شفاعة الجندي وجبري![2]

- وقصيدته الزائية في ديوانه[2] في تسعة وعشرين بيتًا وفي آخرها تعريض بالمخاطب الذي لم يُسَمّه. وقد عارض فخري البارودي هٰذه القصيدة الزائيّة، ولها خبر سردته تحت عنوان: مُساجلة.

- وذكر البِزم سجنه أَيضًا في قصيدة[3] عنوانها (السّجن) من سبعة وثلاثين بيتًا، قال فيها:

لا الـسجنُ يَرْدَعُـهُ ولا أغلالُـه مـن غايـةٍ تَـسْمُو لهـا آمالُـه
مَقَتُـوهُ إذْ نقمـوا عليـه جَلالَـهُ فـسَعَوْا بـه كـي لا يبـينَ جَلالـهُ
ووشَـوْا بـه ولَـوَ انَّهـمْ ملكـوا لـهُ مَوْتًـا لأصْـمَتَهُ الغَـداةَ نِـصالُه[4]

---

(١) ذكريات - علي الطنطاوي ١: ١٢٦.

(٢) في ديوانه ١: ٢٩٤. عنوانها: صولٌ على قول.

(٣) ديوان البِزم ١: ٢٦١ - ٢٦٣.

(٤) رمى الصائد الطريدة فأصماها: قتلها في مكانها. [القاموس المحيط]

ولئن أظهر البِزم التَّجَلُّد في حَبْسِهِ لقد شكا من تفرّق أهل الوطن بعد خروجه، وعَزَمَ، ولو من باب حديث النفس – الذي خرج شعرًا – على الرحلة عن الوطن[1]:

فلأَرْحَلَنَّ إلى الجزيرة رحلةً بدويَّةً والقفرُ يرقصُ آلُهُ
ولأُمضِيَنَّ عزيمةً عربيَّةً لا الموتُ يُرهبني ولا أهوالُهُ

وكان من رأيه أن الحُرَّ – إن لم يستطع أمرًا آخر – يَرْحَل،

والحُرُّ إن لقي الهوانَ بمنزلٍ فالرأيُ أجمعُ أن تُشَدَّ رحالُه...

وإلّا فالموت!!

والموتُ أجْدَرُ بالفتى في موطنٍ يُحْمى عليه لذي الوُرودِ زُلالُهُ

على أنّ لسجن محمَّد البِزم رواية أُخرى غير رواية الشيخ علي الطنطاوي؛ وذكرياته في معظمها من الذاكرة، كما قرّر في الجزء الأول منها. وهٰذا لا ينفي حادثة القصيدة الزائية، وسوء فهم عميل المخابرات الفرنسية الذي لا يتقن العربيّة الفصيحة، ولا يلغيها.

تقول الرّواية الأُخرى[2]: «حين استولى الفرنسيون على سورية، وأسقطوا الحكم الوطني في دمشق قُبِضَ على البِزم في مَنْ قُبِضَ عليه بتهمة إثارة الرأي العام ضدّ الفرنسيين. وسُجن سبعين يومًا، مع حكم عليه بالسجن عامًا، مع وقف التنفيذ».

وقد شهد شعر البِزم له في عمق الاتجاه الوطني في نفسه وفي مواقفه. وسجل بعض رؤساء العمل في دفتر تقويمه أنه وطني مخلص.

* * *

(١) شعر محمَّد البِزم ١: ٢٦١ – ٢٦٢.

(٢) من ذكريات ابنه حسان وتسجيله.

التّرقية ودخول المجمع

وقد صدر للبِزم مرسومان جمهوريان أحدهما بتعيينه عضوًا في المجمع العلمي العربي، وقد سبق ذكره، والآخر بترقيته من الفئة الثالثة والمرتبة السابعة إلى الفئة الأولى والمرتبة الخامسة.

وهكذا: «أُتِيحَ للبِزم بمعونة صديقة فارس الخوري أنْ يتخطّى العقبات، وأن يصبح عضوًا في المجمع العلمي العربي بدمشق، وأن يُفتح في وجهه باب التعليم العالي ليلقي محاضرات في النحو في دار المعلمين العُليا للعام الدراسي ١٩٤٢ – ١٩٤٣»[١].

قال: «ولكي ندرك الصلة بين الرجلين لا بد لنا أن نعرف أن فارس الخوري من أبرز رجال النضال الوطني في القطر العربي السوري منذ أيام «الاحتلال» العثماني، وأنه رجل دولة من الطراز الأول، منذ الحكم الوطني في أيام فيصل، وقد تولى منذئذٍ حتى وفاته سنة ١٩٦٢ مناصب «هامّة» من وزارة، ورئاسة وزارة، ورئاسة مجلس نواب، وأنه أديبٌ، وشاعر، وقانوني كبير، وسياسي محنّك، وعضو في المجمع العلمي العربي منذ إنشائه ١٩١٩، فهو – لهٰذا كلّه – واسع الأُفق، يعرف كيف يقدّر الرجال»[٢].

هو ومعاصروه

في عبارةٍ للدّكتور الدّهّان: لقد تَحَمَّل الشاعر من أخلاق مُعاصريه، وأُصيب منهم بالنكبات، فتناولهم، وهجاهم، ولقي عناءً وعَنتًا، وضُرًّا، ووصفَ حاله[٣]:

ســـاءَ ظنًّـــا بالـــدّهر بعـــد بَنِيـــهِ فهـــو لـــو شـــئتَهُ لَعَـــدَّ العُيوبـــا

(١) شعر محمَّد البِزم، إسماعيل عبد الكريم: ٤٢.

(٢) المرجع السابق.

(٣) الشعراء الأعلام في سورية، د.سامي الدهان: ٥٣.

جَـــسَــدٌ مَزّقَتْـــهُ كَـــفّ الليـــالي ... بنبـــال الأَذى فعـــادَ نُـــدوبا
فهـو جهـمُ الجبـين لـيس يـرى النـا ... ظِــرُ منــه إلَّا الأســى والعُطوبــا
بـئس حـالُ الفتـى كئيبًـا عـلى الـضَّيْـ ... ـمِ ويُحْـصِي عـلى الزمـان الـذنوبا

ورأى د.الدهان أن النظرة السّوداء في شعر البِزم تتردد في قصائد كثيرة[1]. ويغلب أن يذكر الشاعر السبب أو الأَسباب التي دعته إلى تبني تلك النّظرة، وقد يستخرج من الموقف المُعجب الحسن في الدُّنيا من حوله، موقفًا شخصيًّا معاكسًا، قال في أَول قطعة ثنائية[2]:

عـشقَ النهـرُ مـن الأيـ ... ـكِ غـصونًا وقـدودا
فأباحتـــهُ وقـــد مـــا ... لـتْ مـن الزهـر خُدودا

ثم قال بعدها:

فـأبحْ سـمعيَ لحـن الـ ... ـبؤسِ وابْعَـثْ ذِكَـرِي
فلقـــد ضـــاعت لُبـــا ... نـاتي، وأشـفى وَطَـرِي

مع تلامذته

في رجال سورية المشهورين من الأدباء والشعراء والأطباء والمحامين ورجال الإعلام عدد كبير كان من تلاميذ البِزم. عرفتُ أسماء بعضهم من تصريحهم بالتّلمذة له، وكتابة بعض ذكرياتهم معه، أو ذكرياتهم عنه. ومن هؤلاء:

- **ظافر القاسمي**: وهو أستاذ جامعي، ومؤلّف، وكاتب، وإعلامي برع في برامج ثقافية متلفزة، وله كتاب: (مكتب عنبر)، إلى مؤلفات أخرى.

(١) الشعراء الأعلام في سورية: ٥٣.
(٢) ديوان البِزم ٢: ٩٥ من قصيدة عنوانها: دواء الهرم.

- و**نجاة قصاب حسن**: وهو محامٍ، وكاتب، وإعلامي، وله مؤلفات منها (حديث دمشقي).

- و**مطيع المرابط**: صاحب كتاب: (النور والنار في مكتب عنبر).

- **ومحمود الجَبَّان**: وهو الذي أعان د.سامي الدهان على الاطلاع على آثار البِزم، وديوانه، وقد ذكره د.الدهان في كتابه: الشعراء الأعلام في سورية.

- وقد اتصلت به هاتفيًا، وسألته عن تلمذته للبِزم، ومعرفته بالدكتور الدهان، فكان هو نفسه المذكور.

- وعرفت منه ومن بعض أهله من حديث هاتفيٍّ أنه تجاوز الثانية والتسعين من عمره، واجتهدتُ في لقائه.

- و**د.شاكر مصطفى**: أستاذ التاريخ والحضارة، الأديب الكاتب المؤرخ. وقد اعتنى بمقدمة محمَّد البِزم التي هيّأها لتتصدّر ديوانه. وكتبَ مقالة مطولة عن شخص أستاذه، وعن مقدمته لديوانه.

- و**د.مازن المبارك**، ولنا كلام معه عن البِزم في موقع آخر من هٰذا الكتاب.

- و**د.أمجد الطرابلسي**: أستاذ النقد والأدب، ووزير التربية أيام الوحدة مع مصر، كان شاعرًا أديبًا. حدثني الدكتور مازن المبارك أنه كان أحد الذين يقرؤون شعر البِزم (نيابة عنه) لِحُسْنِ إلقائه، وقد تتلمذت له في المرحلة الثانوية والجامعية.

- و**رياض العابد**: وكان محاميًا مشهورًا بارعًا في مرافعاته.

- و**راتب النفاخ**: وكان - كما يبدو من سيرته - معجبًا بمحمَّد البِزم، وكان أيضًا يجري على نهجه لكنْ على طريقته الخاصة في لزوم العربيّة السّليمة.

- ووجدت في بعض الدفاتر التي اطلعت عليها من وثائق محمَّد البِزم بيانات (قوائم) بأسماء طلبة البِزم في عدد من الفصول والسنوات الدراسية، أذكر منهم (ممّن عرفتُ لشهرته أو لسبب آخر):

- **نزار قباني**: ولا شك عندي، من خلال قراءتي لأشعاره وسائر أعماله أنه استفاد من أستاذه البِزم نصاعةَ العبارة، وسلامةَ اللغة، ودقّةَ استعمال المفردات دقّةً متناهية، وسعة المعجم اللغوي الشخصي... واستفاد الانتباه إلى الملامح الشعبية وإدراجها (كلّ على طريقته) في ثنايا الأشعار ذائبةً كالسكّر في الشَّراب.

- و**سليم الزركلي**: وكان ممن يُنشد أشعار البِزم، وهو أحد شعراء دمشق. وأشرف مع عدنان مردم على طباعة ديوان البِزم.

- و**عبد المجيد الطرابلسي**: (وقد صار وزيرًا للأوقاف).

- و**عبد الفتاح فيصل**: وكان موظفًا إداريًّا في جامعة دمشق.

- و**هاني المبارك**: وهو أستاذ متقن للتاريخ، أديبٌ كاتب واشتهر بلغته العربية العالية، وحواره الذكيّ. وهو أحد أبناء الشيخ عبد القادر المبارك.

- و**صبحي طه**: وكان طبيبًا مشهورًا، متقنًا للأدب عارفًا بالشعر، حافظًا الكثير منه، من أيّام تلمذته للبِزم.

- **د.محمَّد شريف بقلة**: أَخبرني د.عرفة أنه كان ممن يلقي أشعار البِزم.

- وفي ما سجّلته في جلسة لقاء د.مازن المبارك أَنَّ البِزم – لأكثر من مرّة أحصاها د.مازن – أن الشاعر عند إلقاء شعره لمناسبةٍ من المناسبات كان يلتفت ويسأل مازنًا أن يبحث عن أمجد (الطرابلسي) لإلقاء شعره نيابةً عن البِزم.

وفي ديوان البِزم[1] قصيدة من سبعة أبيات عنوانها: «اعتذار من شعرٍ لي ألقاهُ غيري». وأستظهر استظهارًا أن المقصود حادثة قصيدة المعرّي في مهرجانه، قال:

لقد عشتُ دهرًا أحسبُ القلبَ وَحْدَهُ ... عدوًّا يُداجي رَبَّهُ ويوارِبُهْ
إلى أن عَصَتْ قلبي لَهاتي، وأَعرضتْ ... تُناصِبُ شعري حَرْبَها وتُوَاثِبُهْ
كأن لهاتي حاسدٌ هابَ مَنطقي ... فأطرق تغلي بالحقودِ ترائِبُهْ
فَأُفٍّ لَهاتيّ لستِ منّي وقد مشَتْ ... إليَّ حشودُ الشّعرِ سَحًّا سَواكِبُهْ
وعُذْرًا فبعضُ المرء حَرْبٌ لبعضِهِ ... وهل يعدم الإنسان ضدًّا يحارِبُهْ؟!

مرضه: الوهم والحقيقة

في الأوراق الدّاخلة في الملفّات (التي فيها جذاذات البِزم) ورقة مؤرخة في ٢٠/ ٥/ ١٩٤٢ هي قصاصة معنونة: تجهيز الذكور الثانية - بعث بها إلى الأستاذ البِزم مصطفى المحايري؛ وفيها: «أخبرت الطبيب، وكان معي سليم أيضًا، وقد وعى كل ما ذكرتُه له **من أعراض الداء**، فقال: نعم، ونعام عين[2]، على أن أرى المريض وأفحصه ثم أعطيكم الرأي بما يجبُ أن يكون؛ فتكرّم بما تأمر»[3].

- وفي الورقة توصيةٌ بطالب يحتاج إلى جلسة طارئة في مسائل الإعراب.
- وهٰذا الخبر يدل على القلق «الصحّي» الذي انتاب الشاعر البِزم، فهو يسأل طبيبًا - يبدو أنه كان مشهورًا - عن بُعد، ويطمئن إلى جوابه الأوّليّ قبل زيارته.

---

(١) ديوان البِزم ٢: ١٢٥.

(٢) يقال: أَفْعَلُه نُعَامى عَيْنٍ، أي: أَفعلُه إكرامًا لعينك. [المعجم الوسيط]

(٣) صوّرت القصاصة في ملحق الوثائق والصور في آخر الكتاب.

- وفي جُملة قلقه على صِحّته أَنَّه كان يحترس مما يؤذي نظره من عين الشمس وشدّة ضيائها. حدّثني الدكتور عبد الفتاح البِزم قال: ولهذا كان يلبس نظارة سوداء. وكان يُرخي ستارةً في غرفته تحجب عنه شدّة ضياء الشمس.
- ووجدتُ في القُصاصات أوراقًا قليلةً كتب عليها البِزم بعض قضاياه العلمية، وهي قُصاصات معنونة باسم الطبيب المشهور حسني سبح، ويبدو أنه كان من الأطباء الذين كان يزورهم. وسبح كان عضوًا في المجمع، وتولى رئاسته بعد خليل مردم.

وفي تقرير نجاة قصاب حسن في الموازنة بين حالي البِزم أيام الصحة والعافية، وأيام العلل والمستشفى قال: «هٰذا هو البِزم المعلّم، البِزم الباقي. أمّا الإنسان لاعب البليارد المُجيد، والذهن الصافي المشرق؛ أما رقعة الشطرنج، والصديق اللطيف ما دمت لم تُثِرْ شكوكَهُ، ويسيءُ الظنَّ بالنّاس ويحبّه الناس؛ والرجل الذي ظلمه دهره فأطال من دهره شكاته فقد ذَوى»[1].

وفاته وتأبينه

نظم خير الدين الزركلي قصيدة رثى فيها اثنين من أصدقائه، وقد كانا من أعلام اللغة والأدب والعلم: هما محمَّد سليم الجندي ومحمَّد البِزم. وجاءت مرثيّته وجدانيةً مؤثّرةً، مرّ فيها على صفات الفقيدين وأثرهما، وما ذهب عن الناس من العلم بفقدهما، ومما قاله[2]:

رَثَيْتُ سليمَها ومحمّـ ... ـدًا، وانهلّتِ العَيْنانْ

(١) جيل الشجاعة، نجاة قصاب حسن: ٢٣١.

(٢) نشرت القصيدة في مجلة المجمع.

مَـضى أَدبُ المـبرّد وانــ ... ـقـضى نحـوُ أبي حَيّـانْ
بكيـتُ أبـا العـلاء بـأوّ ... لٍ والشّـنفرى في الثـانْ
هــوى بمعلّمَـيْ جيـلٍ هـوى الأرزاءِ والحِـدْثانْ
وطـاح بتـاجَيِ الإبـدا ... عِ في الإفـصاحِ والتبيـانْ
عِـــمادا أدبٍ ضَـــخْمٍ رفيـعٍ راســخِ البنيــانْ
شـــهابا فلـــكٍ غابـــا معًا، في حالـكِ الأزمـانْ

وقد قرن الزركلي الأستاذ الجندي بأبي العلاء المعرّي لاشتغاله طويلًا بآثاره وأخباره، وقرن محمَّد البِزم بالشنفرى أحد مشهوري شعراء الجاهلية (من الشعراء الصعاليك) إشارة إلى فخامة شعر البِزم وأَصالته وجزالته، وقوّته ونزهته البدوية في كثيرٍ من شعره.

وقد سبق القول إن خير الدين الزركلي كان صديق الصِّبا، وزميلَ الطواف على علماء دمشق والقراءة عليهم، ومَحَلّ الثّقة منه. واستمرت هٰذه الصلة على حالها الحسنة حتى فرّق بينهما الموت.

وكان البِزم قد خاطب صديقه الزركلي، معارضًا قصيدته الرائعة «النفس بعد فراقها الوطنا» قال له فيها:

أَذْكَرْتَنِـــي، والـــذِّكْرُ مـــن شِـــيَمِي زَمـــنَ النّعـــيمِ وعهـــدَ أُلْفَتِنـــا
أيّـــام نَنْحُـــو الـــرّوضَ نَهْـــصرُ في ذَوْبِ اللُّجَـــيْنِ مـــن المنـــى فَننـــا!

وقد شكا البِزم للزركلي، وقد كان الزركلي خارج سورية مهاجِرًا مُضطرًّا، من تبدّل تلك الأيام الطيبة التي تذكرها، فقال إن جمال بلاد الشام جرّ عليها الويلات من طمع العدوّ وشراسته، فقد غاض الجمال بوجود المُستعمر الغاصب:

والغوطـــــةُ الغَنَّـــــاءُ قاتمـــــةٌ والنُّـــــورُ في أجوائهـــــا دكنـــــا
ذهبـــــت بـــــشاشَتُها فبهجتهـــــا ظُلَـــمٌ وأَنْكَـــر طيرُهـــا الغُـــصنا!

أصداء وفاة محمَّد البزم

نعى المجمع العلمي العربي عضو المجمع الأستاذ محمَّد البِزم، وصَدّرت مجلة المجمع الخبر بصورة من محفوظات صور البِزم، مع نبذة عن حياته، ووجوه نشاطه، وما كان المجمع يكلفه به من أعمالٍ ووجوه نشاط.

وقد سمّى أمين العاصمة[1] آنذاك إبراهيم الحمزاوي شارعًا باسم محمَّد البِزم، بناء على اقتراح المكتب البلدي في أمانة العاصمة، وفي نص القرار: «تسمية الشارع الممتدّ بين شارع عدنان المالكي شرقًا والشارع الممتدّ بين ساحة الأمويين باتجاه منطقة الجريد غربًا باسم: شارع محمَّد البِزم. وقد صدر القرار بذلك في ٤/ ٣/ ١٣٨٢ الموافق ٤/ ٨/ ١٩٦٢.

وبمقتضى هٰذا القرار سمّى أمين العاصمة شارعين مجاورين باسم كل من محمَّد كردعلي، وخليل مردم بك.

وكان مجمع اللغة العربية قد اقترح على أمانة العاصمة (المكتب البلدي) تسمية شارعين باسم كل من محمَّد كردعلي، وخليل مردم بك، بكتاب مؤرخ في ٦/ ٦/ ١٩٦٢.

وكان الذي اقترح تسمية شارع باسم محمَّد البِزم هو المكتب البلدي في أمانة العاصمة (دمشق). وقال في تعليل ذلك ما نصُّه: «**وذلك لذكرى هٰذا الشاعر الكبير**».

تُرى هل لاحقَ النِّسيانُ - أو التّناسي - محمَّد البِزم وراءَهُ بعد وفاته؟

سُؤال!!...

(١) الوثيقة مُدرجة في إضبارة الأستاذ البِزم. وهي إضبارة فقيرة جدًّا.

الفَصْلُ الثَّانِي

في مَعالِم الشَّخْصِيّة

تنبّه الذين كتبوا عن محمَّد البِزم إلى صفات كثيرة تميّزت بها شخصيّته: ابتداء من معالم الشّكل، والبناء الجسدي - ودلالات ذلك - وصولًا إلى أُمورٍ مختلفة من الثقافة والفكر والفن، وأُمور أُخرى تدخل في أَساليب العيش مع مَنْ حوله، وأساليب العَمل الأساسي الذي عمله وهو التعليم.

وكانت شخصية البِزم في علاقاته مع طلابه، وعلاقاته مع زملاء العمل في التعليم خاصّة، وعلاقاته الأخرى مع سائر الناس شخصيَّةً واضحةً، أعانَ هو على كشف كثيرٍ منها في اعترافاته، وفي محاوراته، وفي أشعاره. ورصدها بعض الدارسين. ولا بد من أن نخص الدارسين الذين تلمذوا له، وعرفوه داخل الصفوف وخارجها، بمزيّةٍ لأنهم أعرف الناس به في أحواله وأقواله وأساليبه وطباعه...

وقد طرأ على هٰذه الشخصيّة الفريدة في عصرها طوارئ مختلفة:

- في الأحوال الماديّة والمعاشيّة.
- وفي الترقي في درجات التعليم.
- وفي الانتقال إلى مرتبة «الأكاديميين» بعد أن اختير عضوًا عاملًا في

المجمع العلمي العربي سنة ١٩٤٢.

- وفي تبدّل أحواله الصحيّة التي أثرت تدريجًا في نظره، وقوة بدنه، وتماسك أحواله...
- وفي تأثر أحواله النفسية مع تلك التغيرات التي دهمته تدريجًا.

وصف البزم

اهتم الدكتور إبراهيم الكيلاني وغيره بأحوال البِزم في هيئته العامّة، وفي عاداته التي صارت كأنها طبيعةٌ، أَو خلقةٌ فيه. قال[١]: «كان البِزم طويل القامة، ذا بهاءٍ ومنظرٍ حسنٍ يملأ العين، كبير الرأس، عريضَ المَنْكِبَيْن، هادئَ الحركات، **قد أكسبه طولُ قامَتِه نوعًا من التعالي**، يفرضُ على ناظِريه ومحدّثيه، مع ما يبدو عليه من مَظاهِر «الكابرية» الأرستقراطية، والخروج عن الأشكال الآدمية المألوفة.

ومن الغريب أن **البِزم كان يُخفي تحت هٰذا الاتزان والبرود روحًا عنيفةً، وطبعًا حادًّا، ومزاجًا ناريًّا** لا يعرفُ الهوادةَ واللِّين يُبعده عن التزام الوسط، جانحًا به إلى النقيضين...».

وقد تناول عدد من عارفيه، ومن طلابه سَمْتَهُ وهيئته وشكله الخارجي، فقد كان ذلك - عندهم - جزءًا من تكميل الشخصيّة؛ فقال ظافر القاسمي[٢] في رسم صورة أُستاذه:

«مديد القامة من غير سوء، هادئ المشية في غير تثاقل، عصبي المزاج، كثير الاعتداد بنفسه، حريص على كرامته حرصه على حياته، سريع الانفعال، حادّ الذكاء. أَلِفَ الفُصْحى حتى لا يكادُ يعرفُ غيرها لغةً للخطاب...».

---

(١) محمَّد البِزم، إبراهيم الكيلاني: ٢٠١.

(٢) مكتب عنبر: ٥٤ - ٥٥.

وقال لي الدكتور عبد الغني عرفة، وهو من تلاميذه[1]:

«كان أُستاذًا يحظى بتقدير الطلبة وإعجابهم، يضبط الصف باحترام وتقدير لا عن إخافةٍ، وكان رجلًا نحيفًا، طويلًا أو هو يميلُ إلى الطول، مهذبًا، يفرض «احترامه» على التلاميذ...».

في الهيئة

وكان محمَّد البِزم من أكثر أَهل عصرِه أَناقةً، وعنايةً بلباسه، وإنفاقًا على شؤون نفسه، وكانت حياتُه التي سَبقت قصيدة له أوّلها[2]:

وذي حـــسَبٍ زاهٍ لـــه مـــن بيانـــهِ إذا أعْـرَضَ الأحباب صـهباءُ قَرْقَـفُ

قال فيها:

شـكا جَولـةً الأحـداثِ في وَفْـرِ مالِـه ففـي القلـب شَـجْوٌ والمـدامِعُ ذُرَّفُ

أبـى أنْ يـراه الكاشـحون أخـا أسَـى حليـف الأذى والـضيم والحـرُّ يـأنَفُ

وإن لم تكن القصيدة صفحة من السيرة الذاتية منظومة شعرًا موجهة توجيهًا فنيًّا (بتصوير أحداث حلم) فإنها تعبّر عن حال الشاعر تعبيرًا مناسبًا.

وقد روى لي ابنه الأُستاذ حسان، وكتبتُ عنه أَنَّ زوجته كانت كل ليلةٍ تملأ زبدية (وعاءً صغيرًا من خزف عادةً) بالليرات الذهبية، وتعطيه إيّاها قبل خروجه إلى سهرته مع أصحابه... وكان يعود وليس معه من المال شيء... ليتجدّد هٰذا في الليلة التالية.

لقد كان ذَوّاقةً، شابَّ مجتمع، غَرِقَ في ملاهي الحياة مدّةً أنفدت من صحته مثل

(١) في مقابلة خاصة في مقرّ عمله بشارع المهدي بن بركة بدمشق سنة ٢٠١٢.

(٢) ديوان البِزم ٢: ١٢ - ١٣.

الذي أنفدت من ماله.

ووصف الدكتور عَرفة أستاذَه البِزم، وقد رافق البِزم في رحلة[1]، فقال فيه: كان معنا في تلك الرحلة دَمِثًا، ودودًا، متواضعًا...

ووصفه الدكتور إبراهيم حقّي[2]، وكان من تلاميذه أيضًا فقال: إن البِزم كان شديد الاعتزاز بنفسه، وبدمشقيّته، وعروبته، وكان حين درس عليه د.حقّي مُطَرْبشًا. (يلبس غطاء الرأس: الطربوش).

وقد أفدتُ من لقاء الدكتور حقّي إفادةً عظيمة عن أسلوب البِزم في التّعليم، والتفهيم، وقدّم لي صورًا ثمينة من دروسه ومحاضراته في عدد من مفردات مواد اللغة العربيّة سأعود إليها.

من ثورة الشباب إلى قرارة الكهولة

وفي جملة أجزاء صورة البِزم العامّة: ما سلكه في مدّةٍ من شبابه، وقد مرّ الدكتور الكيلاني على هٰذا الجانب فقال فيه:

«وتَهالكَ على اللهو شابًّا، فغاصَ في لُجّةِ التَّهَتُّكِ والمُجون بشكل ينوءُ عن تحمّله ذوو البنيان المتين...». إلى أن قال: «عاش البِزم حتى نَيّف على الستّين، وكان قد خَرَجَ من ثورة الشباب محطّمًا مكدودًا كَمَنْ خرج من معركة طاحنة، فتعاوَرَتْهُ الأوجاع والأمراض والأوهام في بداية كهولته حتى صار يتحامل على عصاه: يملأ جيوبه بالعقاقير والأدوية، ويقول عن نفسه إنّه «**صيدليّةٌ متنقلةٌ**»، وكان يُجيبُ في أواخِر أَيّامِه مَنْ يسألهُ عن صحّته: إن فِيَّ ثلاثين علّةً أيسرها الناسور...». قال[3]:

---

(١) في مجموعة أوراق البِزم ومذكراته مجموعة صور، فيها عددٌ النُّقِطَ في مواضع مختلفة من سورية ولبنان (طرابلس وغيرها)؛ وهذا يؤكد حياة البِزم الاجتماعيّة، وائتلافه مع من حَوْله.

(٢) من مقابلة خاصة في منزله العامر في شارع أبي رمانة بدمشق سنة ٢٠١٢.

(٣) محمَّد البِزم، إبراهيم الكيلاني: ٢٠٥.

«وقد شاء القدرُ الأسودُ (والنص للدكتور الكيلاني) ملاحقته حتى النهاية، فكفَّ بصَرُهُ، وجفاه الناس، ولو لم يعطف عليه أولياءُ الأمر فينقل إلى المشفى العسكريّ حيث ظلّ ثلاث سنوات مريضًا مكفوفًا لكانت نهايتهُ فظيعة...».

وعلّل الأستاذ ظافر القاسمي دخول محمَّد البِزم سلك التعليم بنفاد ما كان معه، وحاجته إلى دخلٍ يقوتُه، ويقوم بأمره وأمر أُسرته. ووصف حال أستاذه بين الشباب والكهولة، ومرّ على قضية العمل الذي أُلجِئَ إليه، وقد جعل القاسمي عنوان كلامه على أستاذه: «محمَّد البِزم «**فَنّانٌ حُمِلَ على التعليم**»، قال[1]:

«حَدَّثنا لِداتُه أنه قضى صباهُ مُتْرَفًا، ناعم البال، موفور الرزق، كثير النَّشب[2]، لا يَقْلَقُ له بال، ولا يعرفُ الهموم آخذًا بوصيّة ابن أبي ربيعة التي قال فيها: يا ابْنَيْ أخي! خُلقتُ مولعًا بالجمال أتبعه، فتمتّعا بشبابكما قبل أَن يزول؛ فإن الشباب نعمةٌ لا تدوم».

ثم «**أنزله الدّهرُ على حكمه من شامخ عالٍ إلى خَفْضٍ**»، و«**غاله الدهر بوفر الغنى**»، **فلم يَبْقَ له مالٌ سوى العِرْض**[3]، وكان الشبابُ في إبّانه، والصِّبَا في عنفوانه، **فَحُمِلَ على التكسب بالتعليم**؛ ولم يكن ذلك في حسابه ولا في ميزانه، فوفدَ عليه وفودَ الفنان، ولعله حسِبَهُ مجلسًا للقيان.... ثم ما لبث أنْ فَجأه الواقع.

الفصحى من المعلم إلى التلميذ

وقال القاسمي[4]: «**عَشِق الفُصْحى، وفَنِيَ فيها**، فما عَهِدناه تحدّث بغيرها، في

---

(١) مكتب عنبر: ٥٤ – ٥٥.

(٢) النشب: يقال في المال والعقار.

(٣) أدرج القاسمي بيتَين مشهورين ونثرهما.

(٤) مكتب عنبر: ٥٥.

مكتب عنبر على الأَقلّ. وقد أطاعتهُ في الحديث أكثر مما أطاعتهُ في الشعر والنثر. كانت تتدفّقُ على لسانه كالرحيق السَّلسل، وكان له **غَرامٌ باختيار الألفاظ**[1] **كالصائغ الماهر الذي يُحسن تنسيق الجواهر النّفيسة**، ويؤلف منها حليته. أمّا تركيبُ جُمله فكان نسيج وَحْدِه لا يكادُ يقلّده فيه أحد... وإني لأذكر أنني **رافقتُه مرّاتٍ في الطريق فكان يحدّثني وكأنه في قاعة للمحاضرات: لا يبالي بتدافع الناس، ولا بضجيج السيّارات، ولا بضيق الأرصفة: تسلسلٌ في الفكر، وفصاحةٌ في النطق، وتدفّقٌ في انتقاء الألفاظ، وبراعة في الجُمَل**».

وهٰذا الوصف العام الذي قدمه القاسمي عن أستاذه البِزم في تعامله مع الفصحى، وفي هَيْمَنَتِها على دُروسه، ولقاءاته مع طلابه: يتكرّر على صور مقاربة أو مشابهة عند تلاميذ آخرين.

ونقرأ لنجاة قصاب حسن[2]: «... لقد كنّا نأنَسُ للغته الفريدة و**نحبّ أجوبته المسكتة**، ونتناقل قصصه. كان بيننا حَيًّا ونراهُ كلّ ساعة. **وظلّ أسطورة**، ولعمري إنّ هٰذا أعجبُ من العَجب. فالعهدُ أنّ العِشرةَ تبدّد الهالات، وتحطم التيجان المضفورة من وَهْمٍ، وأن «**طول مقام المرء في الحيّ مخلقٌ لجدّته**»...»[3].

---

(١) ذكّرني ما قاله القاسمي في لغة محمَّد البِزم، وقدرته على اختيار الألفاظ - ولو كان ذلك في الكلام الاعتيادي اليومي - ما قاله نزار قباني - وهو تلميذ للبِزم - عن اختيار ألفاظ شعره: «... وأصبحت رقابتي على الحروف من القسوة بحيث أختارُ الكلمة بين المئة، وأستعرض حشودَ الكلمات قبل أن أمدّ يدي لألتقط واحدة منها...». وانظر تعليق أ.سامي الكيالي على أقوال نزار في (الأدب العربي المعاصر في سورية): ٢١٢ - ٢١٤.

(٢) جيل الشجاعة حتى عام ١٩٤٥، نجاة قصاب حسن: ٢٢٩ - ٢٣٠.

(٣) نثر قول أبي تمام:

وطـولُ مُقـام المـرءِ في الحـيّ مُخلـقٌ لديباجَتَيْـــهِ فـــاغْتَرِبْ تَتجـــدّدِ

- وترى أُسلوب البِزم ساريًا في ما يكتب تلامذته نثرًا وشعرًا.

وكتب أحد تلامذته – وكان من ليبيا – في مقالةٍ له: «لقد كان البِزم واسع المعرفة باللغة العربية، كثير المحفوظ من الشعر والنثر، حَسَن التمرّس في إنشائه، نقّادًا عنيفًا... ولقد أخذ الطلبة يُقبلون على دروسه، ويميلون إليها، بعد أنْ أدركوا طريقته الجديدة في تعليم اللغة، **وسَحَرهُمْ أسْلُوبُه الواضحُ الدقيق**[1].

وكان أ. أحمد راتب النفّاخ من تلامذته، وأظنّه استفاد من أستاذه البِزم التزام الفُصحى في أحاديثه ومحاضراته، وفي الكلام اليوميّ الاعتيادي الذي به يتصرف الإنسان في مجالات العيش وحركة الحياة. وقد ذكر الأستاذ صلاح الدين موسى[2] معرفة أ. النفاخ بالعروض، وإجابته – قبل غيرِهِ من الطلبة – عن الوزن الشعري حين يسأل البِزم: ما وزن هٰذا البيت؟

قضية التزام

هٰذه الدّقة في استخدام العربية الفصيحة، والتزام ذلك في الدّروس، والندوات، والمحاورات، وصولًا إلى تصريف شؤون الحياة اليوميّة: أكانت تفاصحًا وتكلفًا، أم كانت عادةً تمكّنت حتى صارت كالطبع؟

أجاب د.الكيلاني عن هٰذا، وقال: «كان خصوم البِزم يدّعون أنّ كلامه بالفُصحى هو من قبيل التنطّع والتفاصح... لا! وإنّما استقامت لغته من إدمانِه على الكتب الصفراء[3] وحبه للعربية، وشغفه بها، حتى صارت ملكة أصيلة، بل: جزءًا من نفسه، وتركيبه الذّهني تتجاوبُ وانفعالاته..». وذكر د.الكيلاني عنصرين

(١) المعلم الشاعر محمَّد محمود البِزم: صلاح الدين بن موسى، مجلة الثقافة، دمشق، أيار، ١٩٨٢، ص٣٩.

(٢) المرجع السابق: ٤٠.

(٣) محمَّد البِزم – إبراهيم الكيلاني: ٢٠٤. وأراد بالصفراء هنا: التّراثية (في طبعاتها القديمة). و«للكتب الصفراء» كناية ليست مرادةً هنا. وقد بسطتُ القول في هذا في كتابي: معجم الكنايات المعاصرة.

حفزاه – أَو ساعداه – :

الأول: عدم تأثره بأية ثقافة أجنبية، فقد بقي ضمن حدود الثقافة العربية القديمة، تحدّرت إليه رأسًا من الخليل وسيبويه والأخفش وأبي تمام والبحتري والمتنبي والمعري. وقد أشار الدكتور صليبا إلى مثل هٰذا (انظر فقرة: محمَّد البِزم في آثار الدارسين في مقدمة الكتاب).

والثاني: عوامل نفسيّة، فقد كانت فيه – كما قال واقترح – «حوافز دفينة، ومركبات وعقد نفسية تدفعه إلى إجادة اللغة، ونظم الشعر، والتفوق في مضمارها بعد أنْ حُرِم من العلم طويلًا، فكأنه إذا أجاد اللغة، والنظم أو خاطب الناس بلغةٍ أشرف من لغتهم وأنقى، وجَد في ذلك تميّزًا ومثالةً، ومخالفة لما أَلِفوه من عجمة ورطانةٍ وركاكةٍ، وقديمًا قيلَ: التباينُ رائد الاستعلاء»[1].

وقد استطاع البِزم بالتزامه الفصحى – حيث كان، وفي كل وقت – أن يصبح هٰذا الملمح جزءًا من شخصيته: عرفه الناس بها، وأضافها هو إلى رصيده.

وفي قصيدته: **حسرة على النابهين**[2] إشارة واضحة إلى هٰذا الملمح فيه، ودفاع عن الموقف، وثباتٌ عليه:

يعيبون مني لهجةً يعربيّةً ونَهْجَةَ صدقٍ أعوزَتْ مَنْ يَرُودُها

ولو عن هُدًى قالوا لأَسْمَعَ قَوْلُهُمْ ولكنها الأحشاءُ ثارت حقودُها

وقد أثنى تلامذة البِزم – جميعًا – على هٰذه اللهجة، وذلك النّهج، وأكبروا هٰذه المقدرة، وذلك الثبات.

(١) محمَّد البِزم – إبراهيم الكيلاني: ٢٠٤.

(٢) ديوان البِزم ٢: ١٠٩.

والبِزم مسلم، تظهر في شعره صورة المؤمن المحوط بالسَّلامة، قال[1]:

مـــا إنْ صَـــبَوْتُ ولا احتقبـــ ... ـــتُ إلى ســوى جَـدْواكَ صَـبْوا
يقـــظُ اليقـــين منبّـــه الـــ ... إيـــمان، مـــا دانيـــتُ غَفْـــوا
مـــا خـــامَرَتْ منـــي الـــشكو ... كُ بعفـــوكَ الفـــضفاضِ قِنْـــوا
ولأَنْـــتَ أكْـــرَمُ مَـــنْ أبـــا ... حَ الـــضارعينَ إليـــه حَبْـــوا

وقد استرسل البِزم في سبحات إيمانية، وتطلّع وجداني عميق إلى مشاهد القيامة في قصيدته (تحيّة) وهو يحاور صديقه أحمد عبيد بمناسبة أدائه فريضة الحجّ[2]. قال في آخرها:

قـــد ينفـــع الـــذِّكرُ بأهـــلِ النّقـــى ... ويُرْتجـــى الخـــيرُ بأخيارِهـــا
وكلنـــا لـــولا التّقـــى والحِجَـــا ... مـــن معـــدنِ الأرضِ وفَخّارِهـــا

وقد أدار كثيرًا من نقده الاجتماعي[3] على المقاصد الشرعيّة، والملامح الأخلاقية المبنية عليها.

وفي الديوان قصيدة بعنوان: «محمَّد ﷺ» جمع فيها بَيْن الكلام على النبي الكريم: شخصه، وشمائله، وخصائصه، والكلام على الدّعوةِ الإسلاميةِ التي خلّصت العرب، وسائر الأمم، ونقلتهم إلى دين الحقّ، والكلام على سماحة الإسلام مع الأديان السّماوية. والتفت أيضًا إلى نتائج الدعوة الإسلامية من انتشار العدل، وإنصاف الناس، وبث الرّحمة في الدُّنيا.

---

(١) من قصيدة نجوى في ديوانه ١: ٧٠.

(٢) ديوان البِزم ١: ٢٧٥ - ٢٧٨.

(٣) في هٰذا الكتاب فقرة عن شعره في النقد الاجتماعي.

مطلع القصيدة[1]:

مُحَمَّـــدُ إنّ الـــشـعر عنـــك لقــاصِرٌ وشـــأو بيـــاني دون مـــا أنـــا طالِبُـــهْ

وفيها:

فجئـتَ بقـرآنٍ حـوى كـل حكمـةٍ أنـارت منـاحي الـدّاجياتِ كواكِبُـهْ

فحـرّرتَ مــن أسْرِ الجهالــة أنفـسًا وقـد رانهـا التّـضليل سُـودًا سـبائِبُهْ

وقوّمْتَ من زَيْـغِ الأعاريـب فاستَوَوْا عــلى مَــنْهَجٍ للعــدلِ يــأمَنُ راكِبُــهْ

جلـوتَ عَمايـاتِ القلـوبِ فأبـصرتْ وزِيحَـتْ عـن اللُّـبِّ الـسّليمِ عناكِبُـهْ

ثم أقول: إنّ في مكوّنات ثقافة محمَّد البِزم العامّة ثقافة إسلامية واسعة، وخصوصًا في تفاسير القرآن الكريم وعلومه. وقد روى أنور العطار عنه أنه «كان كثير المطالعة للقرآن الكريم، عميق الغوص في شروحه وتفاسيره، فضلًا عن أنه إذا أراد أن يكتب أو ينظم عكف على القرآن يتلو آياته البيّنات؛ حتى إذا امتلأت نفسه ببلاغته وسحر بيانه فزع إلى الكتابة أو النظم»[2].

الاعتداد بالنفس

للبِزم في شعره، وفي ثنايا بُحوثه ودراساته (أو مشروعاتها في محاضرات محدودة وجذاذات واسعة) شخصية واضحة؛ وهو بمزاياه: العلميّة، والتعليميّة، والشعريّة ونظرياته (أو طلائع نظرياته) في النحو واللغة، يجد نفسه شخصيّة متميّزة تستحق أن تأخذ مكانها ومكانتها. ورُدود الفعل على هٰذه «المزايا» لم تكن على ما يُحِبّ: لا في الذي يطمح إليه، ولا بالسُّرعة التي كان يرجوها.

(١) ديوان البِزم ١: ٧٧ – ٨٠.

(٢) شعر محمَّد البِزم: ١٩.

ومن هنا كان الاعتداد بالنفس يجيء، كثيرًا، مقرونًا بالتحدّي، أو مَوْصولًا بالتعريض، والتلميح والتّلويح...

فهو يعتدّ بانتمائه العربي، ويُكثر من ذكر أصله العراقي وحقيقته الشامية، في إطار العرب والعروبة، دون انفصال. على أنّ اعتداده الشّامي عالي الصوت عميق في خبايا نفسه وظواهر نفسه وملامح عاطفته.

لقد بدأ الديوان[1] بقصيدة (دمشق). وهي نسيج واحد تخللته عنوانات متوالية، فيها واحد عنوانه: (**بنو أمية**)، وفيه:

أَمَعاقِدَ التيجان يَبْهَرُ نورُها ... مُقَلَ الشموسِ جواهرًا وفريدا
ودّتْ أباطحُ مكّةٍ وصعيدُها ... لو كنّ منك أباطحًا وصعيدا
والوَحْيُ - لولا حكمةٌ أزليَّةٌ - ... لطوى إليك سباسبًا ونُهودا

وقال في آخرها؛ يُدخل نفسه في الإخلاص للشام والعروبة[2]:

أبني أبي والنّيّراتُ شواهدٌ ... وكفى بنيّرةِ النّجومِ شهيدا
هٰذا دمي وقفٌ لأَوْلِ هَبّةٍ ... تهبُ العروبةَ حقّها المنشودا

واعتدادُه بشعره كثيرٌ في الديوان، فاشٍ، ومنه[3]:

أنا الفَحْلُ في صوغ القريضِ مُجَرَّبٌ ... وإنَّ ضلالًا أن يُرازَ المُجَرَّبُ
وإنّيَ أفعى الشعرِ أحْمِي ذمارَهُ ... إذا دَبَّت الضرّاءَ للشعرِ عقربُ

---

(١) الديوان ١: ١ - ١٤. (أباطح جمع أبطح: مَسِيلٌ واسع فيه رمل ودقائق الحصى، والسباسب جمع السبسب: المفازة والأرض المستوية، والنهود جمع النهد، ويستعار للأرض المرتفعة). [القاموس]

(٢) ديوان البِزم ١: ١٤.

(٣) ديوان البِزم ١: ٢٣١. لاحظ وصف البِزم نفسه بالفَحْل، وانظر قول أ.الأفغاني إن محمَّد البِزم «يُعنى بطبع طلابه بالطابع الأدبي الفحل»: فقرة: **في آثار الدارسين**، من مقدمة الكتاب.

فمــن رامَ خَطْــوِي أو تــأثّر نَهْجتــي فَقُلْ حَلّقت في الجَوِّ عَنقاءُ مُغْرِبُ!

ولم يكتف بإثبات أوْليّته، وزادَ، فهدّد من يحاول مجاراته! لقد جعل نفسه الطائر الأُسطوريّ الذي لا يُغلب ولا يُقْهر!

- وفي فقرة (الشّعر والشاعر) المثبتة في مكان آخر كلام على نظرة البِزم إلى ذاته، وإبداعه؛ ولكن هٰذه النظرة لا تقف عند الشعر. فقد رأى البِزم في نفسه شخصًا يؤدّي مهمّة، وهو يُحسن أَداءَها، فهو صوتٌ للأمّة، وهو موقظ للغافلين: كاتب، شاعر، باحث، فَرْدٌ - نعم! - ولكنه في قوة جيش[1]:

إنْ أُمْسِ قد وهَنْتْ قُوايَ وكفكفت خطـوي الخطـوبُ وقلّلـتْ أَخـداني
فلطالمــا أيقظــتُ راقــدةَ الثَّــرى وَطْـأً، و**أشـعرتُ الـشموسَ مكـاني**
وحَلَلْتُ مـن حَـرمِ القلـوبِ بـسُدّةٍ نــشزت بِمَنْعَتِهــا عــلى التّيجــانِ
ولطالمــا ازْدَهَــرَ النَّــدِيُّ بِمَــشْهَدِي وهفَــا بــساميةِ العُقــول بيــاني

وصوت البِزم في هٰذا الجانب عالٍ جدًّا، صَدّاحٌ في الآفاق[2]:

وشــحنتُ أفئــدةَ الأحبّــةِ والعِــدا حــسدًا يَهُــدُّ مــواطِنَ الأضــغانِ
وبعثْتُ مـن عِظَـمِ العروبـة شـامخًا شــمًّا يُطــلُّ بهــا عــلى الــشهبانِ

وهو عبقري أو هو في ظلالِ العبقرية:

ألقــت إليــه العبقريّــةُ قَوْدَهــا طَوْعًــا، ومــا نــصبت لــه قــدمانِ

وهو لا يقبل أن يكون في أية منطقة وُسطى!...

أنــا المُجَــلّي في البيــا ... نِ لم أكـنْ قَـطُّ الوسَـطْ!

---

(١) ديوان البِزم ١: ٣٣٠ - ٣٣١.

(٢) ديوان البِزم ١: ٣٣١.

صلابة المواقف

في مواقفِ محمَّد البِزم رأيًا، وفكرًا، ونقاشًا: نوع من الصّلابة قد يصل إلى القسوة الشديدة، وكان البِزم إذا أنضج رأيًا أو فكرةً وقف عند رأيِهِ وفكرتِهِ، ولم يجد محاوِرُه سبيلًا إلى معاندته، أو مجاولته. وقيل في ذلك أَقوال يقترب بعضها من بعض، منها في بحث إسماعيل عبد الكريم[1]: «فهو صلب عنيف قاس عنيد، وصلابَتُه ترجع إلى بيئتهِ القريبة من البداوة (كذا في الأصل) وعناده يرجع إلى نشأته، وقسوتُه وعنفهُ يرجعان إلى توالي أمراضه ومصائبه. وهو لين رقيق ناعم، دمث سهل الخلق لطيف المعشر، ورقته وليدة حساسيته المرهفة، ووليدة المُثل العُليا التي غُذّيها في بيئته وثقافته وإسلامه وعروبته» انتهى. وكأني بالباحث يريد أن يقول إنه جمع المتناقضات بين تلك السماحة واللطف والرقة، وبين القسوة والشدّة والصّلابة.

وقد قال البِزم في مقصد قريب من هٰذا، وواضح أنه يتحدّث عن نفسه، أو عن رجل كبير هو يشبهه شبهًا كبيرًا، قال[2]:

مَـــزَج الوداعـــةَ بالـــشِّماسِ فـــدارُهُ	ربــضُ الأســـودِ ومـــألفُ الغـــزلانِ
والحـــرُّ لـــيس بكامـــلٍ في شـــأنهِ	حتـــى يـــشوبَ شراســـةً بليـــانِ!!

في «الطبع»

هناك كلامٌ كثيرٌ تردّد في بعض الدّراسات عن البِزم، تحدّثَ عن طبع جافٍ، ونظرة سوداء، وحقدٍ على النّاس (والمجتمع)، وشكٍّ منه في مَنْ حوله، واحتقارٍ لكثير منهم... وعدّ بعضهم هٰذه الأمور داخلةً تحت عنوان (الطبع) فكأنّ الرجل

(١) شعر محمَّد البِزم: ٧٠.

(٢) ديوان البِزم ١: ٣٣٢.

وُلِدَ على هٰذه الحال. والخَطأ هو أقل وصف توصف به هٰذه الأقوال على إطلاقها.

ونحنُ لا نعرف مشكلةً عانى البِزم منها في السنوات العشرين الأولى من حياته. لقد كان مؤتلفًا مع حياة العمل «الناجح» في محل تجاري يربح أصحابه، وتقوم لهم منه مكانة اجتماعية.

ومرّت المدة الثانية من حياته رخاءً: تعلّم، وظهر بين الناس وبرع في العلم ونبغ في الشعر، ولمّا اضطرّ إلى العمل - وكانت **هٰذه صدمته الأولى** - وجد في دخله من التعليم ما يغطي تلك المشكلة.

وعاش حياته في تلك المدة طولًا وعَرْضًا حتى **واجهته الصّدمة الثانية**: وهي رغبته في الانتقال من ملاك التعليم الابتدائي إلى الثانوي، وقد فَصَّلْتُ في غير هٰذا المكان تلك القضية... واستطالت الصّدمة: لا يستطيع **الحصول على المؤهّل المطلوب** (وهو حقيقة قد تجاوزه عمليًّا). ولا يقبل أن يقدّم امتحان **اجتياز حلقة**، وبقي الدخول إلى المجمع العلمي العربي.

ووقف زملاؤه في التعليم من أعضاء المجمع أَمام دخوله إليه (وهٰذه روايته، ورواية من كتبوا عنه). **واحتدم الصِّراع**: هو شاعرٌ نابغ، ومعلّم عبقريّ صارت له سمةٌ خاصّة بين المدرسين جميعًا، وهو باحث في النحو والصّرف واللغة، ويعرف ما قد لا يعرفه بعض أعضاء المجمع (من وجهة نظره على الأقلّ).

ولمّا هدأت عقابيل تلك «الأزمة» بدخوله المجمع بسعيٍ من الأستاذ فارس الخوري لم تكتمل هدأته، ولا فرحته، **فقد بدأت الأمراض تصطلح عليه تدريجًا**.

وفي الوقت الذي قرّر فيه (في توسيعٍ لبعض آراءِ المعرّي واستنباط شخصيّ أيضًا) أَنّ النحاة الأعاجم ضللوا، وأفسدوا وأعلن غضبته عليهم كان يرى أن شعره خير من شعر منافسيه في دمشق، وأن علمه في النحو واللغة والصّرف علم يستحقّ

التقدير (ودخول المجمع على الأقل).

اجتماع هٰذه الأمور، وتصاعد أحوال مرضه، وتعدّدها أدّى تدريجًا إلى تلك المظاهر العصبيّة، وتلك الغضبات العالية الصّوت أَو المكتومة.

ثم أقول: إنّ الأصل عند البِزم **التعايش مع مَنْ حوله**، فإذا أَحسَّ هو بالغَبْن أو الظّلم أَو الإهانة وما شابه ذلك انتقل إلى الجانب الآخر بالقوّةِ اللازمة، والضجيج الصاخب المناسب.

ومن هنا قيل فيه إنه يقول بفلسفة القُوّة. وحقيقة الأمر ما ذكرتُه آنفًا؛ والخطابُ في البيتين الآتيين يصلحُ أن يكون خطابًا للذات، وخطابًا للآخرين[1].

نـــاهِضْ خـــصومكَ وارمِهِـــمْ بلظـــى الـــرَّدى مـــا ذَرّ شـــارِقْ
وَكُـــنِ الأعـــزّ، فـــإنْ أَبَـــوْا فـــازج الرّواعـــدَ والبـــوارقْ

وقال من أُخرى في نغمة عالية ونبرةٍ قويّة[2]:

ولِـنْ لمـن قـد حبـاكَ الـودَّ خالِـصَهُ وإن رأيـتَ التعـدّي لا تكـنْ دَمِثـا!

وفيصل القول في موقفه مما سُمّي فلسفة القوة، في قصيدة (تنكّبْ طريقي)[3]:

ومَـنْ كـفّ عنّـي عاديـاتِ اعتدائِـه فـلا هـو يرمينـي، ولا أنـا صـائِبُهْ

الحَظّ

يكثر في شعر البِزم الكلام في الحياة والموت، ويقول إنه لا يبالي الموت، وهو قدَرٌ محتوم. ويجدُ قارئ شعره أَحيانًا تمنيًا للموت أيضًا. ومن الواضح البيّن أن هٰذه

(١) ديوان البِزم ٢: ١٠٣.
(٢) الديوان ٢: ١١٣.
(٣) الديوان ٢: ١٤٣.

الخواطر مرّت بالشاعر، وصحّتهُ حَسنةٌ أو مُستقرّة؛ وقَلمُه الذي خَطّ به ذلك الشعر يستوي مع تلك المدّة من حياته. فالمعرّي – وهو من أساتذته كالمتنبي – كان يمرّ بهٰذه الأفكار، والمتنبي قال، وقد خاب أمَلُه من كبير «الفحول البيض» سيف الدولة:

كفى بك داءً أن ترى الموت شافيًا وحَسْبُ المنايا أن يكنّ أمانيا

إلى أن قال:

وذاك أنّ الفحولَ البيضَ عاجزةٌ عن الجميلِ فكيف الخصيةُ السُّود؟

وعوامل الخيبة في حياة البِزم، كما تَصَوَّرَها، أكثر بكثير مما جرى على المتنبي والمعرّي.

لقد طمح إلى الانتقال إلى التعليم الثانوي ونَجح، وطمح إلى دخول المَجمع وتمّ ذلك، وارتقى فدرَّس في دار المعلمين العليا، وبَرع. ولكنّ ذلك تأخّر في الزمن، فما استقر له ذلك حتى بدأت العافية تنسلّ من بين يديه.

وفي الدّيوان قصيدةٌ بعنوان (**الجَدّ العاثر**) تلخص سيرة حياته من وجهة نظره، أو بما يلامس الواقع. قد تكون اعترافًا ذاتيًا، وقد تكون قطعة فنية جاءت موافقةً لصفة حاله، قال[1]:

سامَهُ الدّهرُ خُضوعًا فأَبى ودعاهُ للمَعالي فحَبا

عَشِقَ المَجْدَ وليدًا فمشى نَحْوَ إدارك المُنى فانجذَبا

ركبَ الأهوالَ عَمْدًا عالمًا أنّ وِرْدَ الموتِ في ما رَكِبا

عاف صفْوَ العيشِ في ظلّ الوَنى وارْتَضى وِرْدَ المنايا مَشْرَبا

فَرَعَ الشُّمَّ إلى غاياتِهِ فتولّى، فَدنا، فاقْتَرَبا

(١) ديوان البِزم ٢: ١ – ٢.

فثنَــاهُ الــدهرُ عـــن آمالِـــهِ فــانْثَنى واري الحَــشا مُكتئبــا!

....

كــان نَــصْلًا لَهْــذَمًا فاســتَلَّهُ أخـرقٌ فارتـدَّ مفلـولَ الـشَّــبا

أو كذي فَـوْدَيْنِ في لـونِ الـدُّجا عـاد مـن هـولِ الرّزايـا أشْـيَبا

ذكـــرَ العِـــزَّ وأيّـــامَ الــصِّبا فبكَـى العِـزَّ وريعـانَ الـصِّبا!

شـبَّ ضـوءُ العـزم في أحْـشائِه ثــم غَلُّــوهُ، فأكــدى، وخَبــا

أومـــضَتْ في أُفقـــهِ بارقـــةٌ للمعـــالي ثــم عــادتْ خُلّبــا

بَـسمَ الــدهرُ لــهُ، ثــم انثنــى مكفهـرَّ الوَجْـهِ يُزجـي العطَبـا

أنـــشب المقـــدارُ فيـــه مخْلبًــا يَـزْدَرِي وَقْـدَ اللّظـى والقُـضُبا

ثــم أمْـسى لعـبَ الـدهرُ بـه يُـضمِرُ الجِـدّ ويُبـدي اللعبـا

وكــذا الحــرُّ إذا خَطْــبٌ عَــرا أظهـرَ البِـشرَ وأخفـى الغـضَبا

....

نُـــوَبٌ تَـــتْرى، **وجَـــدٌّ عـــاثرٌ** آهِ مــا أفْجــعَ هٰــذي النُّوَبــا!

نظرة إلى «الناس»

في شعر البِزم أحيانًا تعميمٌ، يخرج بالخُصوص من الناس الذين له عليهم مآخذ إلى العموم؛ ومن هٰذا قطعة من خمسة أبيات عنوانها (هُم الناس)[1]:

تمرّسـوا بـضروب الـشرّ مـذ فُـصِلوا عــن الـتراب وروّتْ أرضَــهم مطَـرُ

وجُمّعـــت جُمَـــلُ الأدنـــاسِ ناطقـــةً فــيهم فلـيس لهـم إن قُـدّموا خَطَـرُ

(١) ديوان البِزم ٢: ١٦٠. ضبطت الكلمة في الديوان بضم الفاء، والصوابُ: فَصَلُوا، يقال: فصل عن كذا خرج عنه.

عُمْيٌ عن الحقِّ لا يرجوهُ عاقِلُهم ... في كل ما نطقوا قِدْمًا وما سَطَرُوا

فكيف يُطلب في دهمائهم أَنَفٌ ... عن الدَّنيَّة أو في رفعةٍ وَطَرُ؟

وما تعلّمَ آتي الشرّ فِعْلتَهُ ... مما استفاد، ولكنْ ساءتِ الفِطَرُ!

وهٰذه **مبالغة عريضة**، فالفَسادُ - على رأي الشاعر - في هؤلاء ليس عارضًا مستفادًا من ظروف مختلفة، ولكنه فطرة!..

ويَلْفِتُ نظرَ قارئ الديوان أكثرُ من قصيدة تبدأ بكلمة (كلهم)

- فواحدة عنوانها: «كلهم نمر»[1]، وفيها:

نَفَسُوا على النّمرِ المُدِلّ حياتَهُ ... فتطلّبوه بكلّ أرضٍ سَبْسَبِ

وتنازعوا سلَبَ الضعيف فكلّهم ... نَمِرٌ يصولُ على الضعيف بمخلبِ

- وأخرى عنوانها «كلهم هرّة»[2] ذكر فيها ما يظنّ الناس في «الشاعر» من نَبْوَة أو جَفوة، وعَلّق بعد ذلك:

يا خليليهِ وهل يدعو الفتى ... في الخطوب السُّودِ إلّا منقذا

لا تلوماه على نَبْوَتِهِ ... إن للنّابِهِ عنهم مأخذا

كلهم والغَدْرُ من أخلاقهم ... هرّةٌ ترقبُ ليلًا جُرَذا!!

- وثالثة بعنوان «كلهم حِرباء»[3]، وفيها:

لا يخدعَنّكَ من خِبّ موادعةٌ ... فكلّهم وأبيك الخير حِرْباءُ!

إن آنسُوا الضعف من ذي غِرَّةٍ دَلَفَتْ ... إليه فَوّارَةٌ بالشرّ شهباءُ

---

(١) ديوان البِزم ٢: ٥٥.

(٢) ديوان البِزم ٢: ٧٧.

(٣) ديوان البِزم ٢: ١٤٥.

لهـم نفـوسٌ بغـير اللـؤمِ مـا نزلـتْ وهـل تقـومُ بغـير الجـسم حَوْبـاءُ؟!

(والحَوْباءُ: النّفْس).

من رؤى المَعرّي

تردّد قول المعري قديمًا:

هٰــذا جنــاه أبي عــليّ ... ومـا جَنيـتُ عـلى أحَـدْ

ووقف عنده بعض الشعراء والأدباء مواقف مختلفة. وكان البِزم واحدًا في هؤلاء، ولكنّه كان أقوى عبارة وأشدّ انتقادًا. وقد أعلن السُّخط في مثل قولِه[1]:

طـال سُـخطي عـلى الحيـاة فويـلٌ لغبيّـين في الـورى أَوجَـداني

ضـقتُ ذرعًـا بِظُلـمِ هٰـذي الليـالي وبَنيهـا مـن نـازحٍ ومُـدَانِ

أَعـوزتني فيهـا الخيانـةُ واللـؤ ... مُ، وخَتْـلُ الأعـداءِ والأخـدانِ

- فقد زاد شعرُه، على شعر المعري، في حدّة العبارة، وزيادة الاعتراض.

- وكان المعرّي من «أساتذة البِزم»، وكان هو والمتنبي أقرب شاعرين من القدماء إليه؛ ولكنّهُ استفاد من المعرّي نظرات كثيرة في الحياة وقضاياها.

وفي شعر البِزم، وهو يناجي أبا العلاء[2]:

وعلّمْتَنِـي أن أصـحبَ النَّـاسَ راميًـا سعيدًا، وبعـضُ اليـأس يَـنْعَمُ زاخِـرُهْ

يمزّق جلدَ الصّبر صَبري على الأسى كأن الأسى في مهجتي شبّ عـاصِرُهْ

ويكفي أَن يقول الشّاعر إنّه صَحِبَ اليأسَ، وإنه صَبر على الأسى كأنّه وُلِدَ معهما، وعاش معهما[3].

---

(١) ديوان البِزم ٢: ٢٣.

(٢) ديوان البِزم ١: ٢٠٢.

(٣) من تعليق د.الدّهان: الشعراء الأعلام في سورية: ٥٢.

ومن هٰذه الرؤية قول البِزم[1]:

نزلــتُ مــن الوجــود **بــدار غــيٍّ** وداء الغـــيّ في الـــدُّنيا قـــديمُ!

الشطرنج

ويبدو أن هواية الشطرنج لازمته طويلًا، وقد استخدم مفردات الشطرنج، وبعض عبارات اللّعب به في بعض قصائده.

والشطرنج، قد يكون هو البديل عن جمهرة النّاس، يسلي به همومه مع صديق صدوق[2].

إذا اعتوَرتْ صدري الشجونُ وأَرهقَتْ همــوم، ولم أُبْــصِرْ إلى اللهــو مَهْيَعــا

دعــوتُ بهــا دون الــذراع، وجــاءني خليــلٌ يراهــا في النوائــب مَفْزَعــا

(والمَهْيَعُ من الطرق: البَيّن).

وقد سُقْتُ من أخباره معرِفَتَهُ بألعابٍ شَتّى كان يمارسها بمهارة، وينافِسَ فيها المُحترفين.

من جانب آخر – الدعابة

وكان في الأُستاذ دُعابةٌ تَظْهَرُ في مواضع كثيرة من شعره أكثرها في الجزء الثاني من الدّيوان. وبقيت أخبارٌ تدل على مثل ذلك في بعض جوانب علاقاته مع مَنْ حوله. وكان أيضًا يحتملُ الدُّعابة، ويُغضي عنها إذا وجد لها مَساغًا.

وهٰذا الرأي فيه ليس مُطلقًا، فإنّ دعاباته أحيانًا كانت تتجاوز ما يعرف الناس من الدعابة والمزاح العابر. وقد تتداخل مع مساجلاته مع زملائه فتختلط الدُّعابة

(١) ديوان البِزم ٢: ٥٨.

(٢) ديوان البِزم ١: ٣٥١.

بالمساجلة الجادّة.

وأضرب أمثلة تكشف **عن هٰذا الجانب في شخصية محمَّد البِزم** العامّة

– من ذكريات ظافر القاسمي أنّ البِزم كان مرّة يصحّح للطلاب وظيفة الإنشاء في الصّف. فاستدعاهم واحدًا بعد آخر ينظرُ في أوراقهم، ويشير بقلمه إلى مواضع الخطأ، وإلى ما يَحْسُن استبدالُه، ويعطي النصائح. وكان طبيعيًّا أن ينشغلَ الطلاب بانتظار نوبتهم، وأن يقع بعض الضجيج، فتبرّم، ودعا للسكوت، فلم يسكتوا؛ وإذا به يختارُ طالبًا طويل القامة كان يجلس في آخر مقعد، ويقول له: ابحث لي عن مصدر «التشويش»... وكان الطالب أريبًا فقال للشيخ بعد هنيهة: أستاذ! **لم أجد المصدر، وإنما وجدتُ اسم الفاعل!** لقد ضحك يومئذ ضحكَ الغاضِب، فما كان يمكن أن يفوته ما في جواب الطالب من تهكم، ولكنّه أغضى إغضاء الأب الرحيم[1].

– وفي مطالعات د.إبراهيم الكيلاني:

وكل مَنْ تتلمذ عليه يذكر عبارات **تجمعُ إلى البلاغةِ مسحة النُّكتة** يتناقَلُها جيلٌ عن جيل على سبيل التندّر الممزوج بالإعجاب.

وأشار نجاة قصاب حسن إلى هٰذه الدّعابة أَيضًا؛ وفي ما قال:

«منذ الساعة الأولى التي حضرتُ فيها درسه رأيتني أمام واحدٍ من العمالقة ليس فقط من طول القامة، وحُسن السّمت، وأثرهما في نفس التلاميذ الصغار لا يُنكر؛ لكنْ كذلك من هٰذه اللغة الحلوة الفصيحة الملوّنة التي كان يديرُ بها بحوث النحو، ومن تذليله أحكامَها حتى تلينَ في كفّ الفتى الناشئ؛ ومن ربطه القواعد

(١) مكتب عنبر – ظافر القاسمي: ٥٦ وقال في أثناء الخبر: «وأظن أنّ الصَّوابَ التهويش، فليس في المعاجم: تشويش». وانظر مادتي (ش و ش) و(هـ و ش) من المعجم الوسيط.
– التشويش من الكلمات المولّدة.

بالشواهد من أجود شعر العرب، **ومن قدرته العجيبة على النقد في دعابةٍ تَلْسَعُ ولا تؤلم**، وتصيبُ فلا تؤذي...»[1].

وقال في مجال آخر عن شيخه البِزم، ممّا نحن بسبيله: «كان لسانهُ طويلًا ولكنه مستحبّ، ما نجا قطُّ من يديه أحدٌ من طلابه، وما منّا أحدٌ إلا وناله من هٰذا اللسان شيء كوقع السياط ودونما ألم...»[2].

وفي أخبار البِزم، من مطالعات إبراهيم الكيلاني ومتابعاته ما سَمّاه: **نوادر**، وهي في الأغلب، تدخل في الدعابات التي وصفها نجاة قصاب حسن.

قال الكيلاني[3]: «**ومن النوادر المأثورة** التي يتناقلها جيلنا الذي عاصره وتتلمذ عليه أنه لم يكن ينجو من تحرّشاته أحد من معارفه وزملائه مدرّسي العربيّة سوى أستاذنا المرحوم الشيخ سليم الجندي...». وروى الكيلاني اختلاف البِزم والشيخ عبد القادر المبارك في **الغلاظة** أهي بفتح الغين أم بكسرها... وثبت خطأ البِزم حين قال: إنها بفتح الغين فهي الغِلاظة بالكسر ومعناها: الفظاظة والقسوة. واشتهرت عبارة البِزم التي قالها ضاحكًا – ولم تَفُتْهُ الدّعابةُ – الحمد لله فقد غَلبني بالغِلاظة!

قال نجاة قصاب حسن عند هٰذه النادرة: «وكان في رُوعِنا أنّ البِزم هو الغالبُ أبدًا في كل مجال (في مساجلاته مع زملائه) إلا في مجال واحدٍ لعلّه تعمّد الخطأ فيه!!»[4].

– ويبدو أن النادرةَ إذا حضرت لم يفوّتها البِزم، ومن هنا نفهم إغضاءه عن

---

(١) جيل الشجاعة – نجاة قصاب حسن: ٢٢٨ – ٢٢٩.

(٢) المرجع السابق: ٢٣٠.

(٣) محمَّد البِزم – إبراهيم الكيلاني: ٢٠٢.

(٤) جيل الشجاعة – نجاة قصاب حسن: ٢٣٠. والرُّوع: القلب، والذّهن، والعقل.

بعض نوادر طلّابه معه – على قلّتها في ما وصل إلينا من أخبار – وتمريرها بردٍّ ساخر أو كلمة عابرة دالّة.

وفي هٰذه النوادر التي تَجْمَعُ الطُّرفة الحارّة، والنقد اللاذع خبر مشهور عن البِزم، أرويه كما أورده أحمد الجندي (وقد كان الجندي بارعًا في التقاط النادرة وروايتها) قال:

«كان محمَّد البِزم حاضرًا في مهرجان تكريم شوقي أَمير الشعراء في دمشق عام ١٩٢٤، وكان يجلسُ إلى جانبه أحمد شاكر الكَرْمي، وهو الذي كان يقوم بدور شيطان الشعر بالنسبة له؛ لأَنّه كان يثيرهُ ويخلق له المشاكل والموضوعات الشعرية. والشعر بيد البِزم أداةٌ طيّعةٌ لا تغيضُ. وقام الشاعر خليل مردم يقول قصيدته الرائعة في شوقي ومطلعها:

بَـــرزَتْ بزينتهـــا إليـــكَ الـــشّامُ وافْـــتَرَّ بِـــشرًا ثغرُهـــا البَـــسّامُ

ثم قام شفيق جبري فتغنى بقصيدته العصماء أيضًا، ومطلعها:

حَنّـــت إلى بـــردى فَحَـــيِّ رجالَهـــا اللهُ مكّـــنَ في العيـــونِ مثالَهـــا

وسأله أحمد شاكر الكرمي عن الشاعرين: أيّهما المُجَلّي وأيّهما المُصَلّي: وكان الجوابُ الرائع اللاذع: كلاهما يَعْبُد رَبّه!» انتهى بحروفه.

وفي الكلام نكتة بلاغية، مع اللذع النقدي! فالمُجَلّي هو سابق الخيل في الحَلْبة؛ وهو الأَوّلُ والسَّابق. والمُصَلّي هو الثاني أو التالي للأول. لأن رأس الفرس الثاني يتأخر فيجيء قريبًا من صَلا الأول. وتُستعار صفة المصلّي للإنسان إذا كان تاليًا للأول في أيّ عمل كان. والصّلا: جانب الذنب عن يمينه وشماله.

وفي قوله المصلّي: تورية. المعنى الظاهر: الذي يعبدُ ربّه، والمعنى المقصود هو أنه

التالي لا الأوّل. (ولم يحرز أيّ منهما المركز الأول في رأي البِزم!).

- وقد وَجَدْتُ أقرب أوصاف محمَّد البِزم إليه في أحواله المختلفة ما كتبه عنه تلامذته وطلبته، أو ما رووه فوصل إلينا. ونأخذ من أصحابه ما يأتلفُ مع شخصيّته لا يضِلُّ عنها، ونعدُّ أقوال الدارسين وجهات نظر تصيب وتخيب؛ ونأخذ ما قاله خصومه عنه مأخذ الحذر الشديد.

ومن طرائفه مع طُلّابه أنه قال لأحدهم وقد سأله عن اسم الجَرس، حين قُرِعَ إيذانًا بانتهاء الدَّرْس: «احْمَدِ الله على أنه لم يُعَلّق في رقبتك!» هكذا رواها د.الكيلاني، وتتضح الطرفة حين نعلم أن البِزم كان يسمّي الجرس باسم (الجُلْجُل)[1] فكأن التلميذ أراد أن يسمع الكلمة من فم أستاذه مرّة أُخرى (إعجابًا بطريقة نطقها؟) فقال له ما قال!... ففهم البِزم مراده، وأعطاه «جواب الحكيم!»[2].

وقال لطالب تكلم بكلام فيه رطانةٌ وعُجْمةٌ: يا هٰذا! ابحث في أَرُومتك لعلّك تنتسبُ إلى جَدٍّ أَرمنيٍّ أو بربريٍّ أو أعجميّ!

وكانت طرائف درس البِزم مرتبطة كما ترى باللغة، أو مشربة بروح الدُّعابة تُفلت من أحدهم لمناسبة طارئة... وكان يحتمل ذلك منهم مع «أجوبة مسكتة» غالبًا.

وقال لتلميذ جاء حليق الرأس تمامًا: «يا هٰذا استر عورتك». دعابةٌ واضحة مع نقدٍ لذلك المنظر؛ فردّ عليه التلميذ: لعن الله الناظر والمنظور!! فقال له: والله يا خبيث لولا حسنُ جوابك... (وأتمّ العبارة بنقد لاذع)! إذن: عربيّة البِزم في كلّ

---

(١) قال نجاة قصاب حسن (٢٣٠) إن الدروس تبدأ «بما كان يسمّيه الأستاذ **الجُلْجُل**، وتنتهي به في وقت يحدّده المعيدُ لا الأُستاذ...».

- والجلجل في اللغة: الجرس الصغير.

(٢) محمَّد البِزم - إبراهيم الكيلاني: ٢٠٤.

وقت، في كل مكان، مع المخاطبين جميعًا!

قال د.الكيلاني: ولم يَمْنَعْهُ تبايُنُ درجات الناس، واختلاف أنصبائهم من العلم والمعرفة من مخاطبتهم بلغة سليمةٍ يُعجبُ بها الخاصة والسوقةُ على السَّواء. كنا مرّة بصحبة البِزم في مقهى، ولما أحسّ بالجوع نادى خادم المطعم وقال له: ائتني بقصعةٍ من الحمّص، وإياك أن تذرّ عليها شيئًا من التوابل والأفاويه، وجنّبني ما استطعت الحامض والزيت. فوجمَ الخادمُ، وطفق ينقّل نظره فينا. ولّما لم يلحظْ بوادر نكتة أو مزاح علم أنّ الأمرَ جِدّ!

ولم يقتصر في خطابِه بالفُصْحى على النّاس في مجالسه، بل كان يخاطِبُ طلابه دومًا بها في أحوالِ الجِدّ، وفي لَمحاتِ الدُّعابة. وكل مَنْ تتلمذَ عليه يذكر عباراتٍ تجمع إلى البلاغة مسحة النكتة، يتناقلها جيلٌ عن جيل على سبيل التندّر الممزوج بالإعجاب.

ولم تغادر محمَّد البِزم دعابَتُه - على طريقته - حتى المرحلة الأخيرة من حياته. حدّثني الدكتور عبد الفتّاح البِزم قال: عزم والدي على زيارة الأستاذ محمَّد البِزم في مقامه في المستشفى العسكري بدمشق، وسأل عمي أَن يُرَافِقه، فوافقه، ولكنّه قال: أخشى أَن ينالنا من لَذْعِ لسان ابن عمّنا ما نعرفُه منه! قال: وكان والدي وعَمّي قد تَذاكرا في الطَّريق في إعراب «كلا» و«كلتا» ثم قال والدي: سنسأل الأستاذ عنهما حين نلقاه فنستزيدُ من علمه. فَلَمَّا وصَلا إليه، واستأذنا بالدُّخول قال لوالدي: أَتيتَ متقاضيًا أَم زائرًا؟ فقال له: بل زائرًا. قال: تفضلوا.

قال د.البِزم: واسترسل الحديث بينهم، حتى سألاه عن كلا وكلتا. قال د.البِزم: فشرح لهما، وأَوْضَح، ثم قال: خُذوا شاهدًا مناسبًا، قال الشَّاعر:

كــلا الأخــوين (.....) ولكــنْ شهابُ الـدين (.....) مـن أخيـه!

فلما خرجوا، قال د.البِزم: التفت عمّي إلى والدي، وقال له: ألم أَقُلْ لكَ؟!.

في ظلال المُجْتَمع

في ذكريات علي الطنطاوي[1] استرسال إلى ذكر أحد المقاهي في دمشق، قال: «أنا لم أكن ممّن يرتادُ القهوات[2]، ولكنها فُتِحت في تلك الأيام قهوة في طرف غوطة دمشق عند بوابة الصالحية كانت تدعى قهوة فاروق؛ وهي أشبه بمنتزهٍ، خالية من كل مُحَرّم، تقام فيها صلوات الجماعة إذا دخل وقتُها، يقعدُ فيها من أساتذتنا[3]: سليم الجندي، وجودة الهاشمي، ومحمَّد البِزم؛ ومن إخواننا: سعيد الأفغاني، وأنور العطار، وحلمي اللحام، ومحمَّد الجيرودي...».

وذَكّر البِزم صديقه خير الدين الزركلي بذكريات الشباب القديمة حين كان يخرج معه (ومع الصحب الآخرين) إلى المنازه، و«السيارين»[4] قال[5]:

أَذْكرتنـــي، والـــذِّكرُ مـــن شِـــيَمي زمـــنَ النّعـــيمِ، وعهـــدَ أُلْفَتِنـــا

---

(١) ذكريات علي الطنطاوي ٤: ٨٦ - ٨٧.

(٢) أورد كلمة (قهوة) للمكان بعلاقة المجاز، وجمعها، هكذا: قهوات، والشائع الآن أن يقول الثاقفون مقهى، وأنْ يقول الناس: قهوة.

(٣) لم يكن البِزم من أساتذة الطنطاوي، ولكنه أدرج البِزم فيهم لمعنى: مِن جيل أساتذته ورصفائهم. وقد قال في ذكريات ١: ١٢٥: «ولم نقرأ عليه. لقد قرأ عليه مَنْ جاء بعدنا من التلاميذ، وكان منهم أخي ناجي، وأخي عبد الغني...الخ».

(٤) السَّيارين جمع سيران، وهي كلمة شاميّة، المقصود منها رحلةٌ قصيرة (ساعات قليلة وقد تمتد نهارًا كاملًا، وبعض ليلٍ أيضًا)، يخرجون إلى المنازه العامة، وإلى الرياض والحدائق وأطراف بردى وفروعه. يمتد ذلك من نبع بردى إلى عُروقه وشراينه في أقصى الغوطتين (الشرقية والغربية)، ويكون معهم الأكل، أو آلاتهُ ممّا يطبخ ويشوى...الخ. وتأصيل كلمة (سيران) من مادة (س ي ر) الفصيحة. ولنا كلام عليها في كتاب: معجم العادات والتقاليد الشامية. وكتاب: فنّ السَّلتَة.
- وقريبٌ منها في مصر: **فُسحة**. وفي الخليج العربي: **كَشْتَه** (دخيلة).

(٥) ديوان البِزم ١: ٣١٠.

أذكرتنـــي (قَلَمُـــون) نـــاضِرةً جَنّاتُـــهُ تـــوحي لنـــا اللَّـــسَنا[1]
أيّـــام تنحُـــو الـــروضَ تهـــصرُ في ذوب اللُّجَـــيْنِ مـــن المنـــى فَننـــا

مساجلة

- في كتابه «**تاريخ يتكلّم**» أثبت فخري البارودي مساجلة جَرتْ بينه وبين محمَّد البِزم، ونُثبتُها كما رواها، قال[2]:

رأيت محمَّد البِزم يفكّر فكتبتُ له بيتًا، فأجابني عليه، وجرتْ بيننا المناقشة الآتية:

فخري:

أراكَ كثـيرَ الهَـمِّ منقـبضَ الـصَّـدْرِ أصابَك عِشقٌ أم سئمتَ من الضُّرِّ؟

محمَّد:

أجلْ! قد مللتُ العمرَ، والعمرُ مَلّني و شِـمْتُ مـن الأيـام حادثـةَ النُّكْـرِ

فخري:

بحقّك خفّفْ من همومك «نتفةً»[3] فـما العُمْـرُ إلا مـا يَمُـرُّ مِـنَ الـدَّهرِ
ومـا الهـمُّ إلا وَهْـمُ فكـرٍ فـلا تكـنْ أسـيرًا لأوهـامِ الخيـالِ أو الفكـرِ!

محمَّد:

عـــلى أننـــي واللهُ يَـــشهَدُ أَنّنـــي أَخـو هِمّـةٍ لا تَقْتَـضِيني سـوى الفَخْـرِ

---

(١) «توحي لنا اللسنا»: تحرّضنا - بما فيها - على نظم الشعر. والعرب تكني باللسان عن الشعر أيضًا.

(٢) تاريخ يتكلم: ٨٣.

(٣) النتفة: كلمة فصيحة: ما يُنتف (يُنتزع) من الريش (كنتف الدجاجة)، والقطعة المنتوفة. يقال: نتفة من طعام، ونتفة من علم: قطعة منه والجمع نتف، وهي من المفردات الكثيرة الاستعمال في الشام. وهي في استعمالهم أقل من «شويّة».

فخري:

أَخُو الفخرِ من لا ييأسُ – العَمْرَ – إنّما أَخو الفخر مَنْ قد عاشَ متّسِعَ الصَّدْرِ

– وفي دراسة أحمد الجندي لمحمَّد البِزم[1] روى عن الشاعر الدمشقي أنور العطّار، وكان صديقًا لمحمَّد البِزم قال:

«... كان بارعًا في شتّى الألعاب التي تخطر على البال: في الشطرنج، والضّاما، والنّرْد، والبليارد، والوَرق... وكان يسهرُ الليالي الطّوال لا يملّ ولا يكلّ؛ إلى حُبٍّ للسماع، وإصغاءٍ لفنونِ الموسيقا؛ حتى إذا قرأ بعد كل هٰذا الجَهْد قرأ بتفهّم وإمعان، وأدرك بالنظرة العَجْلى ما لا يُدرِكُ غيرهُ بأيّام. ولقد تزوّجَ، وأنجب أولادًا، ولكنه كان يديمُ الجلوسَ إلى المقهى مع أصحابه القلائل **فلا تفارِقهُ نكتته اللاذعة، ولا تندّ عنه البسمةُ الناقمة**».

وكان من تلاميذ البِزم واحد من أسرة (شلبي) من مدينة التلّ. حدثني أ. محمَّد شفيق ياسين أنه كانَ – في العام الدراسي ١٩٤٤ – ١٩٤٥ – تلميذًا في السنة الرابعة الابتدائية في مدرسة أنموذج دوما[2]. وكان في النصوص المقررة قطعة من شعر محمَّد البِزم، قال: وكان معلمنا واحدًا من تلاميذه من آل شلبي من التلّ. يومًا، دعا المعلم أستاذه البِزم فزارنا في المدرسة، وألقى فينا كلمة، وأنشدنا القصيدة التي اختير منها ذلك النصّ كاملةً.

قال: وما زلتُ أذكرُه بهيئتِهِ، وهيبتهِ، وطريقةِ إلقائه الشّعر، وحُسن حديثه معنا؛

---

(١) شعراء سورية، أحمد الجندي: ٧٧.

(٢) ثم سُمّيت بعد ذلك باسم «مدرسة غازي الأول» وهو الملك غازي بن الفيصل بن الحُسَيْن. و(أنموذج دوما) هي مدرستي التي بدأت فيها رحلتي التعليميّة. وموقعها في شارع أسعد خورشيد، ثم صارت مدرسة ثانوية للإناث.

وإن كنا تلاميذ في المرحلة الابتدائية.

قلت: لعل هٰذا المعلم الفاضل هو: «جمال شلبي» فقد وجدتُ اسْمَهُ مُدْرَجًا مع زملائه في أَحد الصّفوف التي كان يدرّسها البِزم، في دفترٍ هو سجلٌّ لعلاماتِ طلابه مكتوبٌ بخطّ يده.

وهٰذه الزّيارة – كما يبدو – لم تكن غريبةً، ولم تكن شاردةً، لأنَّ البِزم كان يُدْعى إلى المُناسبات فيلبّي مستَمِعًا ومتحدثًا ومُلقيًا من شعره أَيضًا.

وهي صورةٌ من صور هٰذه الشخصيّة الدَّمِثَة: لقد كان البِزم يُحسن التّعامل مع المُجتمع من حوله، ويَسُرّه لقاؤُه مَنْ كانوا تلامذةً له، ويَستجيبُ لِدَعواتهم ولو في مدرسةٍ ابتدائية... لقد كان يُواصِلُ رعايةَ النهج التّعليمي الذي نَذَر قسمًا كبيرًا من جهوده وعلمه ووقته، من أجله.

ولا يخفى أن في هٰذا الخبر وأمثاله ما يدل على محبَّة طلاب محمَّد البِزم لأستاذهم ووفائهم له، وتكريمه بالطريقة – وبالقدر – الذي يستطيعونه.

خصومات

قال الدكتور الكيلاني[1] في خصومات البِزم:

«أما عداواتهُ فلديّ مثالٌ عنها، وكان بودّي أن أتجاوز عن ذكره لولا أنه قويُّ الدلالةِ على نفسيّةِ الرجل، وأَنه أصبح بعد موت صاحبي الشأن من نصيب الحقيقة والتاريخ؛ وهو ما وقع بينه وبين المرحوم الأستاذ الرئيس[2] محمَّد كردعلي. وقد مهد

(١) محمَّد البِزم – إبراهيم الكيلاني: ٢٠٢.

(٢) حظي كردعلي من الناس بلقب «الأستاذ الرئيس» واشتهر بهٰذا اللقب، وكان يخاطَبُ به. وأصل اللقب قديمًا هو «الشيخ الرئيس» وكان يُطلق على ابن سينا.

لذلك العداء أمورٌ منها: تشابه مزاجي الرجلين في الحدّة والعصبيّة.

وكان كردعلي يتعالى على البِزم، وينظر إليه نظرة المُنعم المتفضّل من جهة، ونظرة استخفاف وعدم اكتراث بما يقول ويفعل، وهٰذا شأن كردعلي رحمه الله مع الذين لا يجيدون الكتابة من العلماء وشيوخ الدين، إلى أن كانت **حادثة المهرجان**، فقد نظم البِزم قصيدةً في مهرجان المعرّي أربت أبياتها على مئة وستين بيتًا؛ وأوكل تلاوتها إلى أحد مريديه. والمعروف أنّ شعر البِزم يتصفُ بالجزالةِ والتّعقيد اللغوي؛ ولم يكن جوّ المهرجان – وفيه خليط من المثقفين، وأنصاف المتعلمين، والمتطفلين من النظّارة – ليسمحَ بإلقاء القصيدة برمّتها. ولمّا ظهرت بوادرُ الفوضى في المدرّج أومى كردعلي، وهو المُشرف على المهرجان بأن يكفّ عن التِّلاوة اعتقادًا منه – كما قال في ما بعد – «أن البِزم أَساء التَّصرُّف في عدم تقديرهِ للظرفِ ومُقتضى الحال؛ على أن القصيدة سَتُنْشَرُ في كتاب المهرجان، فيطّلعُ عليها مَنْ فاتَهُ سماعُها ممّن يفهمون شعر البِزم. **ويستجيدونه**».

وتابع د.الكيلاني: «ولكنّ هٰذا العمل – وحده – كان كافيًا **بأنْ يعدّه البِزم إهانةً لشاعريّتهِ، وانتقاصًا لقدره**، فانتقل منذئذٍ من صديق مهادن إلى عدو مكاشِف، على عادته في الشطط والشُّذوذ (كذا في الأصل) قاذفًا ظِهرِيًّا صداقةَ ثلاثين سنة، غير مُصْغٍ لعذر صديقه المقبول، وغير عابِئٍ بما قدّمه له من معروف سالف بإدخاله عضوًا في المجمع العلمي العربي ممّا وفر له فوائد معاشية، و«اعتبارًا» علميًّا رسميًّا. وكان البِزم لا يدع فرصةً أو مناسبةً دون أن يُمْعِنَ في كردعلي سبًّا وشتمًا وتجهيلًا. وكان هٰذا يقابِلُ العداء بالإشفاق والازدراء على عادته مع الناقدين والخصوم»[1].

قلت: دفاع الدكتور الكيلاني عن كردعلي رؤيةٌ توفيقيّةٌ شكليَّة محض، فالذي

(١) محمَّد البِزم – إبراهيم الكيلاني: ٢٠٢ – ٢٠٣.

يحضر الندوات يجيء لكي يستمع إلى موادّها في وقتها، وإلّا فما معنى «الاحتفال» و«المهرجان»؟

وقصيدة البِزم[1] **في المعرّي من عيون شعره**، وهي نوع من الاحتفاء بشاعر يحبّه، وتلخيص لأبرز مجريات حياته، وإشرافٌ على كثير من نوازع أفكاره، وشوارد آرائه. وقد رتّبها البِزم (وهي قصيدة واحدة متماسكة) في ثماني عشرة فقرة. وهي «١: مهرجانه، ٢: ذكاؤه وقوة طبعه، ٣: ثورته على الملوك، ٤: هو والناس، ٥: بيانُه وغفرانه، ٦: أنفته وشموخُه، ٧: إشفاقه على الإنسان والحيوان، ٨: خلوده، ٩: شعره لله والخير والحق والأخلاق، ١٠: الدنيا وحقائق الكون في شعره، ١١: شعره دِهْقَانُ[2] العقول ومعلم القوّة، ١٢: سقط الزند، ١٣: العروبة، ١٤: وفاء الشاعر للعروبة، ١٥: ترفّعُه عن اللحن، ١٦: ثورته على النُّحاة، ١٧: أنا والنحاةُ بعده، ١٨: الختام».

فالقصيدة ملمح واحد ونسيج متشابك الخيوط متناسق الألوان. وللبِزم غَرَضٌ في أن يصل السامع (ومن ثم القارئ) إلى القسم الأخير ، وله فيه نظرية، وهو يتحدث مع المعري عن اللحن والنحو، وعن متابعته إياه...

وقد اطّلع محمَّد كردعلي، وهو رئيس المهرجان، والمشرف عليه أيضًا على قصيدة البِزم، ولو من الجانب الإجرائي المحض، وعرف طولها، وما احتوت عليه.

والذي جرى على قصيدة البِزم في المهرجان، بلا شكّ، خطأ في حقّه شخصيًّا، وخطأ آخر إجرائيّ فإن مقاطعة المتحدث (خطيبًا أو شاعرًا أو متكلمًا) لا يفسَّرُ إلا على وجهه الذي يراه الناس.

---

(١) ديوان البِزم ١: ١٨٧ – ٢٠٢.

(٢) دهقان: كلمة معربة لها معان منها: رئيس القرية، ورئيس الإقليم...الخ ومراد الشاعر معنى المدبّر والقوي على الشيء.

- وفي أول قصيدة المعري:

أَجَلْ! هو يومُ الشعر تطغى عباقِرُهْ وتوقِظُ أَسماعَ الزمانِ منابِرُهْ

مشى مهرجان الدهر فيه مُبَاهِرًا فخفّت له الأفلامُ نشوى تباهِرُهْ[1]

وقام جلال الحقّ يَسْعى وأَقبلتْ وفودُ النُّهى من كل صوبٍ تسايِرُهْ

ومَنْ حضرَ مهرجانًا للمعرّي لا يَشُقُّ عليه الاستماعُ إلى مثلِ هٰذا الشعر، ولا يصعبُ عليه متابعته...

(١) تباهره: تفاخِره.

الفصل الثالث

جوانب محمَّد البِزم

كان تلامذة البِزم وطلَّابه أعْرفَ الناس بجوانب البِزم؛ كان ينطلقُ في دروسه ومحاضراته في بيان منهجه في النحو والصرف واللغة، وتتبيّن لهم آراؤه النقدية وهو يشرح لهم النصوص، ويعلّق على ما يستشهدُ به من شعرٍ ونثرٍ، إضافةً إلى ما يقدّمه لهم من أشعاره التي يختارها من ديوانه في دروس الإنشاء والاستظهار، والتطبيقات المُختلفة.

وكان ما ينشره في الصحف والمجلَّات من شعره، ومقالاته الأدبيّة والنقدية قليلًا قياسًا إلى حقيقة نشاطه الأدبي واللغوي والنقدي، وكان أثره خارج سورية قليلًا جدًّا، وعلّق أ.علي الطنطاوي في ذكرياته[1] على هٰذا الأمر؛ قال: «والعجيبُ أنّ البِزم لم يُعْرَفْ في غير سورية، وقد كان أمثالُه – بل لقد كان تلاميذه – معروفين. ولما نَشَرَ في «الرِّسالة» في أوائل الثلاثينيات (يعني قصيدة من شعره) وضع الزيّات في رأسِ مقالته: للأديب محمَّد البِزم، مع أنه كان يكتبُ لي، وأنا بمثابة تلميذ البِزم: للأستاذ فلان...».وعَجَبُ الطنطاوي يستندُ إلى مكانة البِزم في شعراء سورية في تلك المدّة،وكان قال – وهو حكم نجدُ مثله في كتب الأدب والنقد التي عالجت الحركة الأدبية في سورية – : «والأستاذ **محمَّد البِزم الشاعر الفحل** الذي كان يُعَدّ يومئذٍ أحد شعراء دمشق الأربعة، وهم: خير

(١) ذكريات علي الطنطاوي ١: ١٢٥.

الدِّين الزركلي... وخليل مردم بك... وشفيق جبري...»[1].

وكان د.الكيلاني قال عن البِزم إن له «شخصية مثلثة: **النّحوي والشاعر والأديب**»[2]، وهٰذا يوافق ما ذكره سائرُ مَنْ كتب عن البِزم. وقد أضفتُ إلى جانب تلك الثلاثة شخصيّة «المعلّم» وهو أمرٌ مشهور عنه. وإنما أَضفته إلى تلك الثلاث لأَنّه **كان معلّمًا مربّيًا ذا مزايا تخصّه، وترتبط باسمه** في مجالات تعليم العربيّة. وأخبارُ البِزم ترجّح ما أذهبُ إليه، وتؤكد حقيقته. وقد قال الدكتور إبراهيم الكيلاني، وهو يقدم شخصيّة البِزم في مطلع حديثه عنه: «عَرف جيلي ولِداتي **أربعة معلّمين تفرّد كلُّ واحدٍ منهم بعلمٍ عُرِف به**، وغلب عليه إلى جانب المشاركة بناحيةٍ أو أكثر من الثقافة الإسلامية؛ وهم: الشيخُ عبد القادر المبارك في اللغة، والأستاذ الرئيس **محمَّد كردعلي في التاريخ والاجتماع والإنشاء**، ومحمَّد البِزم في النحو، والشيخ محمَّد سليم الجندي في الأدب، وتَجْمَعُ هؤلاء، - على اختلاف أمزجتهم وظروف حيواتهم وعقلياتِهِمْ - **صفة العصامية**....»[3].

وقبل أن يفكّر في اتخاذ التعليم مهنةً يؤدي فيه مهمّته، وينشرُ فكره العربيّ الإسلاميّ، أو: قبل أن يُلْجأَ إلى ذلك، كما عَبّر ظافر القاسمي وغيره (وقد مرّ هٰذا في فقرات بهٰذا الكتاب)؛ كانت دراسات البِزم ومطالعاته، ومن ثَمَّ إبداعه في الشعر خاصّة ترشّحه - وقد اتّفق له ذلك - أن يكون معلمًا ناجحًا. وقد أدار تعليمه كله على الوصول بتلاميذه إلى معرفة حقائق اللغة، وإتقانها، والحفظ منها، والانغماس فيها، وحمل رسالتها.

---

(١) المرجع السّابق.....

(٢) شخصيّات: ٧٣.

(٣) شخصيّات: ٦٧ - ٦٨.

وهكذا كان البِزم، حين انخرط في «سِلك» التعليم مهيّأً **ليكون معلّمًا، ناجحًا، متقنًا، صاحب رسالة**. وقادرًا على أن يقدّم لطّلابه، ولحركة التعليم - تعليم العربيّة خاصة - منهجًا فائقًا جديرًا بأنْ تُرْصَد جوانبه المختلفة، وتطبّق في الصفوف، وفي سائر الأنشطة المدرسية، وأن تُجمع الموادّ التي قدّمها البِزم في سنوات تدريسه، وهي طويلة، وتُصنع منها، وعلى نهجها كتبٌ مدرسيّةٌ متدرّجة. إذن لكان لحركة تعليم العربية (بالتآزر مع جهود سائر المشتغلين بالتعليم من رفاقه) شأن آخر.

وفي شهادة أ.ظافر القاسمي على أستاذه، من هٰذا الجانب في شخصية البِزم: «**اتّخذَ التعليمَ فنًّا**، فأبْدَعَ فيه، وحَلّق في سماواته»[1].

مدخل إلى آثار محمَّد البزم الأدبية واللغوية والنقديّة

(١)

قد يكون من الغريب أن يصرّح دارسٌ بمثل هٰذا العنوان وقد توفّي المُنَوَّهُ به قبل أن يُصْدِرَ أي أثر من آثاره، حتى إن ديوانه الذي يضم شطر مجده الأدبي والفني طُبِع بعد وفاته.

ولكنّ حقيقة البِزم أنه مُبْدِع في ما نصب نفسه له في ثلاث شعب:

١- **التعليم**، حتى صار فَرْدًا في نهجه وأُسلوبه، ونفاذ طريقته، ونجاح طلّابه في اكتساب العربيّة في درجةٍ عالية من الجودة. ولهٰذا الملمح أصداءٌ عظيمة كتبها طلابه وزملاء له، ومحبّون، ونطقت بها أحوال مبدعين كثُر تخرّجوا على يديه، وفيهم الأديب، والطبيب، والمحامي، والضابط، والأستاذ الجامعي.

(١) مكتب عنبر: ٥٩.

٢- **الشّعر**: فقد نبغ بالشعر، وارتقى فيه حتى صار أحد أعلامه في دمشق، وسائر بلاد الشام. واختط لنفسه نهجًا فيه، وأسلوبًا يخصُّه، ورؤيةً يصدر عنها. وقد كان البِزم – وما يزال – مفردًا في صنعته الشعرية في العصر الحديث في بلاد الشام، وأقول: في غيرها أيضًا.

٣- **النّحو (والصرف وشؤون اللغة)**: لقد نجح البِزم في إعادة النظر – عمليًّا – في مسألة النحو وقضاياه. وكان تلامذته وطلابه مسرح تجربته الرائدة. طبّق رؤيته عمليًّا. وكتب موادّ كثيرة غزيرة هي كافية لتكوين نظرية في النحو: أصوله، ومصطلحاته، وتدريسه، والرجوع إلى الأصالة والفطرة فيه قبل أن تَعْبَث به أيدي علماء (في العصر العباسي) – كما يرى البِزم – وتحجّره، وتجمّده، وتصعّبه على العرب وغيرهم. وقد قال البِزم في بعض شعره[1] على لسان هؤلاء:

لنقضِيَنّ على العَرْباءِ ما بقيتْ ... للعُجمِ باقيةٌ تَخْلُو بِمُعْتَكِرِ
لنخمدنّ مضيئًا من فصاحَتها ... ونفسِدَنّ عليها صِحّةَ الفِطرِ

(٢)

كان محمَّد البِزم في حدود سنّ الأربعين حين سأله صديقه محمَّد ياسين عرفة[2] أن يقدم لطبعة[3] من كتاب (طوق الحمامة في الألفة والأُلّاف) لأبي محمَّد بن حزم الأندلسي (المتوفى ٤٥٦): ومن المفيد حَقًّا – أن أقتطف من مقدمته تلك جزءًا، لأنه

(١) ديوان البِزم ١: ٣٤٦.

(٢) صاحب مكتبة عرفة بدمشق، وقد كنتُ أراه في مكتبته بالمسكية عند الجامع الأموي وأنا في ذلك المكان. فقد كانت المسكية أشهر أماكن بيع الكتب المدرسية، وغيرها.

(٣) طبع كتاب (طوق الحمامة) في دمشق سنة ١٣٤٩هـ، عن نسخة المستشرق بتروف.

مناسبٌ في هٰذا المكان من البحث. قال في مطلع المقدّمة[1]:

«ما وُفِّقَ البشر - ولن يوفّق - إلى خدعةٍ أطرف وأظرف من **خدعة تكريم العظماء، وتعظيم النابغين**، والتنويه بذكرهم، ودلالة الناس على عظمتهم، والرفع من أقدارهم إلى حيث ينالون بعض ما يجبُ لهم من لَهَجِ الناس بهم، والحرص على ما أسْأَرُوه[2] من آثار قيّمة، ومتاع باقٍ مُستقرّ.

ولهٰذا: ما نراه وما نسمعهُ من إقامة المهارج[3]، والاحتفال في عقد المواسم، ورفع النُّصب، والتماثيل، والحفاوة **بإخراج الكتب بتراجم** الرجال، وأحوال العبقريين: فُرادى ومجتمعين.

وسواء أكان النابغ فاتحًا قذف بنفسه في لَهوات الموت في الذّودِ عن أُمّته، أو **عالمًا أذاب مهجته في مهج الحنادس**[4]، **وقضى دهره بالاستنباط والتأليف**، أو مخترعًا وقفَ عمره على نفع أبناء جلدته، أو الإنسانية جمعاء، أو **شاعرًا سكب روحه دموعًا، ونفسه حسرات، وأراق دمه بعبرات بل شعرٍ يبقى بقاء** الدّهر، ويجري جَريان الفَلَك؛ فإن للأُمَّة في تكريمه، والصعود بشأنِه غايةً واحدةً لا تتعدّى الارتفاق بما تركه لها من تراث. ولا فرقَ عندها أن يكون هٰذا التراث سيرةً أو عِلمًا؛ اختراعًا أو شعرًا، أو أيَّ شيءٍ غير ذلك ممّا يعودُ عليها بالنفع.

وقد تنخدعُ الأمّة بنفسها فيذهب بها الظنُّ إلى أن تَحَفّيها بنابغتها إنْ هو الأريحيّة المهيمنة، وهِزّةُ الكَرمِ الغالبة، في حين أنّ من تُعنى بشأنِه، وتُشِيدُ بذائع صيتهِ **كثيرًا ما**

(١) من الصفحة (ح) إلى الصفحة (خ): فقد رقمت صفحات المقدمات بالحروف.

(٢) ما أبقوه.

(٣) جمع مهرجان.

(٤) الحنادس جمع الحندس: الظُّلمة؛ والليل الشديد الظّلمة. [المعجم الوسيط]

يكونُ مِمَّن أوْسَعتهم مقتًا وهجرانًا، وطوتْ كشحها عنهم جفاءً وإعراضًا، فلم ينالوا من بِرّها إلَّا أنهم نجوا بعض النجاة من كيدها وعُدوانها؛ إذ لم تكن المباشرة قتْلهم **إلا بغمطها حقوقهم والانصراف عنهم، والتلهّي بمن لا يَعْلَقُ بغبارهم**[1]. حتى إذا مات أحدهم بحسرته حتفَ أنفه **تلك الميتةَ البائسة** الشقيّة، وقيّض الله له من نُظرائه البائسين أو غير البائسين **مَنْ يجمعُ أخباره ويدوّنُ أحواله**، ويشير إلى القيّم من آثاره ليُحِلَّهُ التّاريخُ من صدره مكانًا رَحْبًا، ومقعد صدقٍ مكين. ثم استمرّ الفلكُ في دورته، والأيامُ في تقلّبها، واعْتَوَرَت الأمّةَ الأحداثُ، ومست الحاجة إلى الارتفاق بما ترك ذلك النّابغ، هبّت الأمَّةُ أو نفرٌ منها تُعلي من أمره، وتُحيي ما كاد يندثرُ من إرثه. وهٰذا لا يكونُ منها – على الغالب – إلّا بعد أنْ تطمئن من أنه أمسى سرًّا مُكَتَّمًا بين ثنايا التراب، ونهبًا في أَحشاء ديدان الأرض. أي: لا تفعلُ هٰذا لشيءٍ من العطف عليه، أو لخيرٍ تريدُه له بل لتثيرَ به الهمم، وتحرّك النفوس، وتبعث في بعض القلوب نار التأسّي، وحرارة حبّ الاقتداء؛ فلا تعدم من أبنائها على وجه الدّهر، وكرّ الأعصار رهطًا يجودُ بنفسه على التفادي في سبيلها في ناحية من نَواحي الحَياة...».

وهٰذا النصّ من مقدمة البِزم على «طوق الحمامة» يبدأ بالكلام على ابن حزم الذي **عانى في حياته من محاولات التّغييب، ومن مؤامرات التّهجير**، والذي أُحرقت كتبُه برأي صاحب السُّلطة في إشبيلية وقرطبة...

وتجد النصّ مرآة ذات وجهين: ترى في أحدهما ابن حزم القرطبي ذا الأَنَفةِ والكبرياءِ والعظَمةِ العلمية، وترى في الآخر محمَّد البِزم الذي يرى أنه لم ينل حظه – كما ينبغي – ويعاني من محاولات الإقصاء، ومن الإغفال والإهمال...

---

(١) العبارة من قول المتنبي؛ والفاعل في قوله (إذا شاءَ...) هو ضمير يعود على سيف الدولة:

إذا شاء أن يلهو بلحيةِ أحمقٍ أراهُ غباري ثم قال له: الحَقِ!!

وانظر إلى وصفه موت العبقريّ ميتةً بائسة... أكان ينطقُ - والله أَعْلَم - بقدرٍ من القدر، ورؤية «كُشِف عنها الحجاب» كما يقول الناس.؟؟

(٣)

أعانت ظروف مختلفة على عدم طباعة شيء من نتاج البِزم المذكور في حياته، على رأسها **مطاولَتُه للزَّمن، وغَرَقُه في قضايا إصلاح النحو**، ورفع أَذى بعض اللغويين والنحويين الذين عقّدوه - وفي رأيه أنهم قصدوا إلى ذلك قَصْدًا -. ومن الأسباب **استبحاره في استنباط أساليب تعليم العربية**. وقد أجاد وأَحْسَن، ولكنّه «لم يورّث» ذلك المنهج وتلك الأساليب لغيره... فذهبت عبقريته في تعليم العربية، وذهبت مشروعاته الكبيرة الأهميّة، وتبدّدت... ومن **ذلك التفاتهُ - جادًّا أو هازلًا - إلى بعض زملائه ومعاصريه** يثير قضايا ومشكلات جانبية... لكنها تضيعُ الوقت، وتزعج النّفس، وتأخذُ من الهمّة أخذًا شديدًا.

وقد **رَجَعْتُ إلى تراث محمَّد البِزم**، كما وجدته في مكتبة ولده الأستاذ حسان، فإنّه لّما أحسّ مني الجدّ في العمل، والصّدق في الإضاءة على شخصية البِزم في أستذته، وعلمه، وتربيته، ومحاضراته، وأشعاره، وضع ما عنده من تراث أَبيه رحمه الله بين يديّ وقد أشرتُ إلى هٰذا.

و**رجعت أيضًا إلى تاريخ الحركة العلمية في الشَّام في عصر البِزم**، وقرأت ما كتبه عنه الأُدباء والمؤرّخون. ودخلت - من جديد - في ظلال ديوانه الذي قرأتُه قديمًا، وكان في صدر مكتبتي الشّاميّة، إلى سائر ما كتب البِزم في الأدب والنقد، وهو قليل محدود جدًّا.

وقد **اجتهدتُ في قراءة تراث البِزم**، وأكثره دفاتر قديمة وجُذاذات مجموعة، ومتناثرة. وأوراق مرّ عليها سنوات طوال، وخطوط كادت تمّحي بمرور الزمن أو

بسوء الورق، والقلم معًا.

وبعض آثار البِزم التي وصلت إليّ كانت صورًا لا أصلًا. صُوِّرت قديمًا، وكادت تمّحي، فهٰذا بيان من جهةٍ، واعتذارٌ حين أضع نقاطًا في مواضع في النّقول عن تلك الأَوراق من جهة أُخرى.

وفي الصفحات التّالية عرضٌ للدِّيوان (عرضًا عامًّا) وكلامٌ في كتاب (الأجوبة المسكتة) أقرب آثاره إلى أن يكون قابلًا للنشر بعد مراجعة وإصلاح وتقديم. وكلام آخر يختلف كثرة وقلّةً، في التعريف بكتبه أو رسائله التي ألّفها ولم يتح له نشرها، لأنّها لم تتمّ أو لم تهيّأ كما ينبغي لتصلح للنشر.

وهٰذا العَرْض ضروريّ للإجابة عن تساؤلات مَنْ كَتَبَ عن البِزم أو تحدّث عنه، وأساسيّ في تصوير ثقافة البِزم، وتوجّهاته في ما يكتبُ ويؤلف، ويهتمّ...، وتاريخيّ لأنّ محمَّد البِزم قد احتلّ مكانةً في تاريخ التعليم في سورية، وفي الحركة الشعرية في الشّام، وخارجها أيضًا... وتسجيليّ، بعد أنْ مرّ ذلك الزمن المُتطاول: والناس يسمعون عن البِزم وعظمته، وحُبّ تلاميذه له، وعن جوانب ثقافته وغزارة نتاجه...

وذلك محكومٌ بعدم الإفاضة، والاكتفاء بالقَدْرِ الدالّ على أطراف القضيّة.

نشاطه للتأليف

اعتدّ محمَّد البِزم ببحوثه التي ألّفها، والتي أعدّها لتكونَ كتبًا منشورةً على الناس، أو هو أرادها كذلك، ثم حالت دون ذلك حوائل مختلفة مرّ الكلام عليها في هٰذا الكتاب.

وقد تحدّى ببحوثه هٰذه القدماء، والمعاصرين له. ونقرأ له في قصيدة «عبد: تبصَّرْ»[1]:

(١) ديوان البِزم ٢: ٥٠.

عَبْـد تَبَـصَّرْ واخْـشَ هَـوْلَ المَعْمَعَـهْ ولا تكـــنْ فيهـــا ضـــعيفًا إمَّعَـــهْ

فهٰذا تحدٍّ للمعاصرين، بخطابٍ واحدٍ فيهم.

وقال في آخرها - وهو يتحدّى أبا الفتح بن جِنّي - :

يـا قاتـلَ اللهُ بـروق المَطْمَعَـهْ إنّ أبـا الفـتح ومـا قـد صَـوْمَعَهْ

مـن كتـبٍ منـشورةٍ بـصومَعهْ لو يُبتعثْ أجريتُ حزنًا مِدمعَهْ

ومـا نـوى في دهـره وأزمعَـهْ وحاشَـــهُ في عُمـــرهِ وجَمّعَـــهْ

وإن أيّـــامي لتَـــشؤوا جُمعَـــهْ ومَخْـدعي يعلُـو بفـضلي مَجْمعَـهْ

ولـــو رأى **أبحـــاثيَ المُلَمَّعَـــهْ** لالتهمـــت «تمامَـــهُ» و«لُمَعَـــهْ»

وانتظمـــت فـــؤادَهُ ومَـــسْمَعَهْ!

ونقبل شيئًا مما وَرد عن صحة البِزم[1] من أنّ جَوّ المرض الدائم الذي كان يعيشُ فيه خلق لديه[2] أمراضًا وهميّةً كانت تزعجُه، فلم يكن يسمع بمرضٍ خطيرٍ إلا ويتوهّمُ أنه فيه، وقد جعله هذا شقيًّا بنفسه، وكُلّ مَنْ حوله أَشقياءَ به.

ولكنّ ناقل هٰذه الحال عن البِزم أسرف كثيرًا وهو يستعين بدراسات نفسيّة متعدّدة، وأُخرى في علم الطباع، ويطبق ذلك تطبيقًا عشوائيًّا على البِزم![3]

* * *

(١) شعر محمَّد البِزم: ٤٧.

(٢) كذا في الأصل: خَلقَ.

(٣) شعر محمَّد البِزم: ٦٨ - ٧٢. وهناك استنتاجات لصاحب تلك الدراسة غريبة جدًّا، لا يَسْلَمُ شيء منها كما كَتَبه.

١- كتب، ومشروعات كتب، وبحوث
الأَجْوِبَةُ المُسْكِتَة

في مقالةٍ لنجاة قصاب حسن، وهو من تلاميذ البِزم المحبين له، المعجبين به: «كان لسانُه طويلًا، ولكنّه مستحبٌّ، ما نجا قطُّ من يديه أحدٌ من طلابه، وما منّا أحدٌ إلا وناله من هٰذا اللسان شيءٌ **كوقعِ السّياط، دونما ألم**، ولقد كنّا نأنسُ للغته الفريدة، **وأجوبته المسكتة**. ونتناقل قصصه...»[١].

وأشار د.الكيلاني إلى مثل هٰذا في ترجمته له ودراسته عنه[٢]، قال: «ولم يقتصر (البِزم) في خِطابه بالفصحى على الناس في مجالسه، بل كان يخاطب طلابه دَوْمًا بها. وكلّ مَنْ تتلمذ عليه يذكر عبارات تجمعُ إلى البلاغة مسحة النكتة؛ يتناقلها جيلٌ عن جيل، على سبيل التندّرِ الممزوج بالإعجاب...».

ويَسْهُل الرّبط بين مثل هٰذه الأخبار عن سيرة محمَّد البِزم وبين جمعه مادّةً غزيرة، تقع لو طبعت، في مجلّد كبير.

ولم يطّلع محمَّد البِزم على كتاب تراثي ممّا أُلِفّ في موضوع الأجوبة المُسكتة على ما يبدو؛ فإن أكثرها صدر بعد وفاة البِزم بزمن ولكنّ القارئ النّهِمَ، الطُّلَعَة، القاصِدَ كالبِزم يستطيع التقاطها في أثناء مراجعاته ومطالعاته ودراساته.

وثبتُ المصادر التي رجع البِزم إليها لجمع مادّته واختيارها كبير. ولا شك في أنه أمضى في تصنيفه زمنًا طويلًا.

وقد نقل الأستاذ قدري الحكيم، وهو من أصدقاء البِزم قوله عن كتابه الموعود:

---

(١) جيل الشجاعة: ٢٣٠.

(٢) محمَّد البِزم، د.إبراهيم الكيلاني: ٢٠٠.

الأجوبة المسكتة إنه يبيع به العَقْلَ والذكاء للناس؛ وقال فيه أ. الحكيم: «ولكنه لم ينسّقه، ولم يربط بين أَجزائه، ولم يُخرِجهُ في حُلّتِهِ الأخيرة، **فبقي ككل آثارِهِ** مشروعًا لكتاب، وعملًا ناقصًا لم يُستكمل»[1].

والحقيقةُ أنّ الكتاب كان يحتاج إلى مقدّمةٍ، وإلى مراجعةٍ أَخيرةٍ لينتقي من أخباره ما يَرْضى عن عرضهِ وتقديمهِ للقرّاء. ومنهجُ البِزم المدقق والانتقائي كان سيسوقه إلى مثل هٰذا، فإن في ما جمعَ (أو اجتمع له) ما لا يدخل في الأجوبة المسكتة، أو يصحّ السكوت عنه.

وقد اعتنى الدكتور عبد الفَتّاح البِزم[2]، وهو من أقارب الشاعر المؤلف بكتاب الأجوبة المسكتة، فبيّضه، واستخرج مصادره ومراجعه، كما صنعها المؤلّف. وكان الكتاب قصاصاتٍ، استعارها من ابن الشاعر الأستاذ حسان ثم ردّها إليه. وجاء الكتاب، في صنعة الدكتور البِزم في دفترين اجتهد في قراءة ما فيهما. وقد رتّب ما في الدفترين على المصادر التي استقى البِزم منها أخباره وحكاياته. وفَضَلَ من ذلك بقيّةٌ لم تذكر الأصول المخطوطةُ مصادرها، فأوردها في آخر كل دفتر منها.

قلت: ولكنّ الفقرات والعبارات والقصص والحكايات والمواقف التي تنضوي تحت عنوان: الأجوبة المسكتة لم تكن وحدها مادة ذينك الدَّفترين، فقد ورَد فيها نصوصٌ مختارةٌ مجموعة تخرج عن ذلك العنوان إلى قضايا أخرى سأمرُّ بها في ما يأتي.

وربما التبست الاختيارات وتداخلت. فإن الفقرة التي تَرِدُ تحت عنوان: الأجوبة المسكتة قد تصلح للورود تحت عنوان آخر.

---

(١) شعر محمَّد البِزم، إسماعيل عبد الكريم: ٧٣.

(٢) هو اليوم مفتي دمشق، إلى أعمال أكاديمية وإداريّة أُخرى.

لقد جمع البِزم مادّة كتابه هٰذا من كتب الأدب والتواريخ والتراجم والجغرافية، وكتب الثقافة العامة، والدّواوين وغيرها.

ورَوّجَ البِزم لكتابه هٰذا كثيرًا، واشتهر أمرهُ بين النّاس، كما رَوّج لكتب أُخرى بدأ بكتابتها، أو جمع مادّتها.

وقد أعانه على جمع مادة كتابه هٰذا - وكتبه الأُخرى - أَنَّه فهرس بصنعة يده كتبًا كثيرة لم تفهرس حين طبعت في ذلك الحين. وفي أوراق البِزم ثلاث رزم كبيرة فيها فهارس لكتبٍ كثيرة كانت في مصادره ومراجعه.

وقد مرّ البِزم بذكر عدد من الكتب ذات الصلة بالأجوبة المُسكتة التي اشتهرت بصفة «المُسكتة» مثل:

- كتاب «**الجوابات**» لمحمَّد بن العباس اليزيدي.
- وكتاب «**الجوابات الحاضرة**» لابن قتيبة.
- و: **الأجوبة المُسكتة** لمحيي الدين محمَّد بن علي بن عربي، وهو كتاب: «**الأجوبة المُسكتة عن سؤالات الحكيم الترمذي**».

و**المراد بـ**«**المُسكتة**» أنّها تجيء مناسبة، قويّةً لاذعةً، نافذةً، محيطةً بالسؤال، خاتمةً للكلام فيه؛ فكأنها بذلك تمنع السائل (وفي نفسه نِيّةٌ عادةً) من جوابِ الجواب، أو الردّ عليه، وتمنعه أيضًا عن أن يسترسل في سؤالٍ آخر!

وقد اقترح محمَّد البِزم - في الدفتر الثاني من صنعة الدكتور عبد الفتاح البِزم[1] - أن تكون أول فقرة في كتابه العتيد جواب الله تعالى على ألسنة ملائكته لإبليس - لعنه الله - على أسئلته السبعة. وأحالَ على كتاب «الملل والنحل» للشهرستاني، و«النجوم

(١) الدفتر الثاني ٢: ٥٩.

الزاهرة» لابن تغْري بَرْدي.

وأكبر كتابٍ طُبِعَ في ما أطلعت عليه من كتب «الأجوبة المُسكتة» هو كتاب إبراهيم بن محمَّد بن أبي عَوْن المُتوَفّى ٣٢٢هـ (٩٣٤م)، درسته ونالت به درجة علمية، وحققته الدكتورة ميّ أحمد يوسف، وقد طبع في القاهرة سنة ١٩٩٦[١].

وكان قد صدر كتابٌ بعنوان «الأجوبة المُسكتة» لابن أبي عون نشره عبد القادر عطا، ولكنه صغيرُ الحجم، هو قريبٌ من ربع حجم الكتاب الأصلي.

وهناك كتاب الأجوبة المسكتة الواردة عن العرب والفلاسفة وغيرهم[٢].

- والأجوبة المسكتة لإبراهيم عبد الله الحازمي[٣].
- والأجوبة المسكتة: اختارها وألّف بينها، وقدّم لها: محمَّد إبراهيم سليم[٤].
- والأجوبة المُسكتة (إعداد - هكذا وردت -) مأمون بن محيي الدين الجناب - دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م.

الجحيم

ذكر الزركلي - صديق البِزم - حين ترجم له[٥]. - أنّ في كتبه واحدًا «على نَسق رسالة الغفران، لم يبيّضْهُ، ولم يُتمّه سَمّاه: **الجحيم**؛ قرأ لي فصلًا منه في نقد أئمةٍ من النُّحاة واللّغويّين».

---

(١) دار (عين) للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية.

(٢) مؤلّفه أحمد صابر - طبع بمطبعة الواعظ: ١٩٠٥.

(٣) صدر الأَوّل منه ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م بدار الشريف - الرياض.

(٤) صدر سنة ١٤١٧هـ - ١٩٩٦ عن دار الطلائع بالقاهرة.

(٥) الأعلام (في ترجمة محمَّد البِزم).

وللبِزم في ديوانه[1] قصيدة عنوانُها: «**على ضفاف الجحيم**»، فالفكرةُ والقضيّة حَيّةٌ في خاطره، وعقله ووجدانه، تابَعَها على منهجٍ واحدٍ وبأساليب مختلفة، وأسماءٍ شتى بين شعر ونثر.

وأَدْرجَ أحد الباحثين[2] هٰذا الكتاب تحت عنوان **طلائع الجحيم**[3]، وفيه أنه «كتابٌ لم يُستكمل، يقع في سبعين ومئة صفحة ألفه على غرار (رسالة الغفران) لأبي العلاء المعرّي: عرض من خلاله انتقاداته اللاذعة لبعض أعضاء المجمع العلمي العربي بدمشق، وآراءَهُ الجريئة في عدد من المشكلات اللغوية، والنحوية والدِّينية التي كانت تشغله...».

وفي دفترٍ، من آثار البِزم، موضوعاتٌ شتّى بخطّهِ، فيها قسم كبيرٌ من ديوانه، ومحاورات واسعة لم تبدأ بعنوان، ولكنَّها هي من صفحاتِ الجحيم، ظهرت فيها أسماء مجموعة من معاصريه: في دمشق من زملاء العمل التعليمي، وزمالة الانتساب المجمعي مثل: شفيق جبري، وعبد القادر المغربي، وعبد القادر المبارك، وسليم الجندي، وحليم دمّوس، وأنستاس الكرملي، ومحمَّد إسعاف النشاشيبي، وأشار البِزم إلى نفسه في هٰذه المحاورات والمساجلات والمبارزات بلقب **شيخ النَّيربين**.

وهناك أسماء خياليّة لتكتَمِلَ للبِزم **الصورة** «**الدرامية**» مثل «عبقرارة» و«عيذارة».

وأَنْطَق بعضَ شخُوصه (الحقيقيّة) بشعرٍ أنشدهُ هو بلسان من يُسَمّي منهم؛ ومن هٰذا الشعر أرجوزة نظمها على لسان الشيخ المبارك على سبيل الدُّعابة، واستفاد

---

(١) ديوان البِزم ١: ٣٣٩.

(٢) شعر محمَّد البِزم - إسماعيل عبد الكريم: ١٤ - ١٥.

(٣) في أوراق البِزم ملف صغير جدًّا فيه قصاصات تصعب الاستفادة منها لامّحاء حبرها تقريبًا. مكتوب عليه بغير خط البِزم: طلائع الجحيم.

من أساليب رسّامي «الكاريكاتور». ولا يخفى أن للبِزم قدرة على التخيّل، والتقاط الخصائص، واصطناع المتناقضات ليُحكم الوصول إلى غرضه بين إثارة ابتسامة، وتقرير رأي، و«ردّ الصاع صاعين» أَو أكثر.

وأُرجوزته هٰذه ثابتة في الديوان المطبوع[1]، عنوانها أَجَلْ! نعم! وفيها من أوّلها:

أَجَلْ نَعمْ، بلى بَجَلْ لاحَ يقينٌ وانبجَلْ

وذكر البِزم في طرفٍ من الجحيم، مجلسًا يرأسه أحد الجِنّ يحكم فيه بين شعراء تلك المدّة، الذين جمعهم البِزم: سليم الجندي، وشفيق جبري، والشيخ المبارك، ووقع التحدّي بإنشادِ شعر على مثالٍ عَرَضه ذلك الجِنّي، فقال البِزم في ذلك[2]:

إنّ الهوى هَوَانْ ودُلُّهُ أَلوانْ

فَسِلْمُه عُدوانْ وسُخطُه رضوانْ

وسرُّهُ عنوانْ يقظانُهُ سَهْوان

إلى آخر القصيدة.

ويتفوّق البِزم بشعره - في تلك المحاورة - على سائر زملائه؛ ويضع على ألسنتهم اعترافًا بذلك.

والمَشْهد يذكّرُ برسالة **التوابع والزوابع**، وما كان يصنعه ابن شهيد في كل لقاءٍ يُجريهِ مع شياطين الشعراء والكتاب الذين كان يلقاهم، فينشدهم، وينال تقريظهم[3].

---

(١) ديوان البِزم ٢: ٧٦.

(٢) ديوان البِزم ٢: ٤١.

(٣) الرسالة في الذخيرة لابن بسّام ١: ١٩١ - ٣٣٦، مع ترجمته وأخباره. وانظر مثلًا: الأندلس - د.شوقي ضيف ٤٤٨ - ٤٥٨، عصر الطوائف والمرابطين - د.إحسان عباس: ٣٤٠ - ٣٤٤، وفي الأدب الأندلسي - محمَّد رضوان الداية: ٢٤٣ - ٢٧٨.

ولغة الكتاب، في ما اطلعت عليه، وتبيّنتهُ، لغة مسجوعة، تنحو منحى لغة المقامات في الجمع بين الجِدّ والهزل. وفي تلك النصوص النثرية التي كان يُجريها على ألسنة أصحابها ميل كبيرٌ إلى استعمال لغة الناس، وألفاظهم: مرتفعةً لتكون صحيحة اللغة، مع احتفاظها باللَّذعة، والنّكتة القاصدة، والاستفادة من إيحاء العبارات التي يوردها من تلك البيئة.

ونقرأ على لسان الشّيخ المغربي: «...وأنا أيضًا ما عَرّجْتُ على القريض إلا خَطرَه[1]، ولقد وَدِدْتُ ألا يجودَ عليَّ شيطاني بعدها بِقَطْرَه. ولكنه، لعنه الله، يهتبل الهبلة[2]، ويوثّبُ عليَّ شِبْلَهْ، فأطمعُ أن يزيلَ عن قلبي دَبْلَه[3]، ويُدَغْدِغني دغدغة المُلاطف، ويُثير منّي الهواجسَ والنَّواصف. وقُصاراه أنّي من صناعة هٰذا الكلام مملوء الحشا بالكِلام، فكلَّما حاولتُه عُريان رجعتُ منه مدفوعًا خَزْيان!».

وبعد هٰذه الفقرة، بعد فاصل قصير، الفقرة الآتية، ولم يوضع إلى جانبها اسم وحَرِيٌّ أن تكون من البِزم عن نفسه وشعره.

---

(١) الخَطْرة المرّةُ من الخطور، من قولهم: خطر ببالي: وقع فيه. [المعجم الوسيط]

– والعامة تستعمل الخطرة لمعنى المرّة مطلقًا: خطرة كنت في الحميدية...الخ.

(٢) من معنى اهْتَبل .....اغتنم. [المعجم الوسيط]

– وكلمة الهبلة لها إيحاء في الدّارجة، وهي من مقلوب (بله) قالوا أَهْبَل على أسلوب القلب المعروف، والمراد: أبله.

(٣) الدّبلة – من معانيها – دُمّل يظهر في الجوف فيقتل صاحبه غالبًا.

– واستفاد البِزم من عبارة شائعة في الدارجة: حديث فلان يُذْهِب عن القلب الدَّبلة. وقالوا فلان «دَبل قلبي»: أرهقني جدًّا.

وقد بيّنت استفادة البِزم، بكثرة، من التراث اللّغوي والاجتماعي والبِيئيّ في شعره ونثره في هٰذه الدراسة. وفي بحث: الخصائص اللغوية والأسلوبية في شعر محمَّد البِزم (ذُكر في المصادر والمراجع).

«وإن بابي في شارع الشّعر لخَوْخة[1] على عَلم تُشَبّ أمامه في كل ليلةٍ نار، ويُعقد عليها لطالب الشعر زنّار. إنْ أَمَّهُ السّاري اهتدى، وإن كان عاريًا ارتدى. ولقد أَدّت النعومة من شعري إلى حِرْزٍ مكينٍ، ممّا لم يَتّفِقْ بعضهُ لأحدٍ من الواشين أو الحائكين؛ حتى كأني صَنعتهُ من زغب أجنحة الملائكة، فليست تقعُ البنان منه على شائكة!».

ونقرأ في فقرة أخرى، لم يظهر أمامها اسمٌ أنقلها لطرافتها:

«أَمَا والخَوْخِ والكُمَّثْرى، ومَنْ أصابَ من الشعر حتى أثرى، إني لقادِرٌ على أنْ أَبْخصَ بجيّد شعري عينك، وأُظْهِرَ للملأ عُرّك ومَيْنكَ وشَيْنَك؛ لأنك تحاولُ منه الهَبْرَةَ فتصيبُ العَصب، وقد أَخذ منك النَّصَبُ والوَصَب. أمّا برودَةُ شِعرك فأَشَدُّ قَرْسًا من الصّحو في الكوانين، وأَظْهَرُ عُرّةً ممّن يمشي عاريًا في الشعانين. وإنّ رأيك في الشعر لفاتِر، وقديمًا ضُمّنت المَهاترُ الدفاتر، وهل شعرك إلّا شعار على ما فيه من الجِلّة والأَبعار!

ووالله لو أُعطِيتُ مقادةَ الشعر لما جَعَلْتك بَلّانًا في حَمّامِه، ولا كشّاشًا في بُرج حَمامِه. وإنّ شعرك لو كان خلقًا لكان أُعشوشًا أو نقدًا لكان بَهْرَجًا زَيْفًا ستّوقًا مغشوشًا!!».

ونلاحظ لهجة **السخرية** والتهكّم في العبارة والوَصْف، والتنقل بين المواقف. وزاد من حدّة **السخرية** ما استظهر الكاتب به من استعمال ألفاظ لها إيحاءاتها في كلام الناس؛ وإن أبقاها الكاتب على صحّتها وسلامتها، فمن ذلك:

- قسمه بالخوخ والكُمّثرى!

---

(١) «الخوخة: باب صغير وسط باب كبير...» هذا معناها في الشام. وزاد في الوسيط: نُصِبَ حاجزًا بين دارين، وكانت دار آل البِزم في الشاغور ذات باب مزدوج (يقال فيه باب: بابين) لتتمكن الخيل والجمال وغيرها من العبور إن كان في الدار إصطبل.

- وقوله: «أَبخص عينك»: من الفصيح: بَخص عينه: فقأها. والعامة تورد المادة على الحقيقة: «ضربه على عينه... بخصها»، وعلى المجاز عند التحدّي: «أبخص عينك...». وللكلمة في الدارجة إيحاءٌ واسع.
- الهَبْرة، وهي في الفصيح: «قطعة من لحم لا عظم فيها». وقد استفاد من إيحاء الكلمة في الدّارجة فإنهم يشبهون الأمر الجيد، أو العالي الحسن بأنه هبرة، أو كالهَبْرة... (على المجاز).
- يضرب المثل بالبرد في شَهْرَي قُماح، وهما كانون الأول، وكانون الآخر. ويقال فيهما في الدارجة: الكوانين، ويضرب المثل في البارد البليد: أبرد من كوانين. أو أبرد من ماء الكوانين، أو من طين الكوانين.
- شبّه شِعرهُ بالجلّة والبعر. والجلّة (بفتح الجيم وكسرها): الرَّوْثُ، والبَعر وهي في الدارجة الشامية أقراص تعمل من روث الحيوانات، أكثرها البقر، وتجفف في الشمس، ويُستوقد بها شتاء في التّنانير والكوانين (جمع كانون لما يُطبخُ عليه)... ويُنْبَزُ بالجلّة والبعر في الخصومات. وفي الدعابات «الثقيلة».

وقد كان كتاب الجحيم فرصةً **لِيَلْقى الشاعر في استحضار** فَنيٍّ **شخوصًا** من **النحويين واللغويين القدماء، وآخرين من معاصريه**. أمَّا القدامى فعند محمَّد البِزم مهمّةٌ نصب نفسه لأدائها، وهي تبيين ما أفسده أولئك القدماء من نصاعة اللغة. وما صنعوه في تعقيدها. وأمّا المعاصرون فإن ما أجراه على ألسنتهم من كلام فيقصد منه إلى تبيان تفوقه في الشعر عليهم، وإلى تصويرهم – دعابةً أو تشفّيًا – تصويرًا ساخرًا.

وأَتَمُّ العبارةَ التي سلفتْ عن قصيدة البِزم «**على ضفاف الجحيم**» فإنه استفاد مِمّا نُسَمّيه اليوم: «**الخيال العلمي**»، وخرج في المنام ليشاهد من أهل النار، ومن أهل الجنّة نفرًا يسمّيهم أو يشير إليهم. ووضع في النار عددًا من أولئك اللغويين

والنحويين الذين «أفسدوا اللغة، وأضاعوا على الناس السليقة، وعقّدوا بالقواعد سلاسة اللغة وسيرورتها....

أَغْفَيْتُ أبغي جمامًا من ضنى السَّهرِ ... وما أكابِدُ من وَجْدٍ على القَدَرِ
فلم يَرُعْنِي سوى الميزانِ تنصبُه ... غُرُّ الملائكِ، والأقوامُ في ضَجرِ»[1]

ومضى يصف يوم القيامة، وشيئًا من أحواله وأهواله التي عرفها جيّدًا في دراساته القديمة... وأشرف الشاعر على جانب من جهنم. ولقي ابن جِنّي وهو يشكو اللظى، ويذكر للبِزم مَنْ معه من «مشيخة» النحو واللغة كالفارسي،

... ولقي كيسان تلميذ أبي عبيدة، وكانا من عُتاةِ الشعوبية... وقال على لسانه إنه خلّف (في العصر الحديث) من يقوم بمهمّة الشعوبيين أمثاله:

خَلّفْتُ فيكم، وما أبغي به بدلًا ... «علّان» يُحْسِنُ دَسَّ السُّمِّ في الثُّغَرِ[2]
يؤلف المَيْنَ شتّى في مثالبكمْ ... يَومًا، وترمي إليه الرومُ بالبِدَرِ
ومثل «علّان» آلاف مؤلّفة ... تسطو بكم في حَنايا الليلِ والبُكَرِ

ومما قاله ذلك الشعوبيّ:

فما نَجا من أذانا شعرُ باديةٍ ... وقد عبثنا بشعرِ القومِ في الحَضَرِ
زخارفٌ نسّقتها من خواطرنا ... كفٌّ أبتْ غيرَ شَوْبِ الصّفْوِ بالعَكَرِ!

وفي أواخر القصيدة، وهي طويلة (من أكثر من مئة بيت) انتفضَ الشاعر من هؤلاء وأمثالهم غضبًا، وزاد فيهم ابن المُسْتَنِير (قُطْرُب).

---

(١) ديوان البِزم ١: ٣٣٩ - ٣٤٧.

(٢) «عَلّان» كلمة تورد في الكلام الشائع بعد «فلان» على الإتباع معطوفة بالواو. يقال: «دَعْنِي من فلان وعلّان» وفلان - كما في المعجم الوسيط - كناية عن العلم المذكر العاقل، وهي فلانة، وللكلام هناك صلة.

وصَحا البِزم من مَنامِه الخيالي، على أصوات الطيور صباحًا وختم قصيدته:

فقلتُ: خيرٌ، وأين الخيرُ من وَجَعٍ يرى العروبةَ نَهْبًا في يد الغِيَرِ؟![1]

اللَّحْنُ

هٰذا كتابٌ نفيس، تركه البِزم وهو قريب من النَّجاز: لكنه بقي جزازات، على طريقته، غير منتظمة (وهي الآن بين يديّ غير مرتبة). وهو كتاب - بحسب ما طالعتُ في أوراقه - يعالج قضية اللّحْن: في تاريخه، وأصالة الفصاحة عند العرب، ودواعي اللّحن، والحرص على تجنبه، وتدريب الأولاد على الفصاحة والسَّلامة... وهو يُقدِّم نماذج كثيرة من أخبار اللحن، ويعرّج على النحويين واللغويين والعلماء، من تخصّصات مختلفة من هٰذه القضية...

وفي هٰذا الملفّ:

١- «**اللّحنُ هو الذي أنجب ما أنجب من ملوك النحو وأقيال العربيّة**. كما أنه هو أهوى بكثيرٍ من الآناف الأبيّة والخدود المتصّعرة إلى عتبات النحاة، ومكّنهم من إرهاق خَصْرِ الدنيا في سُرَّةِ الدُّنياجذبًا وتمكينًا...

فلولا اللّحْنُ لم يكن سيبويه هٰذا الذي تردّد اسمُه، وكُفِيَتْ أعلام العربية هٰذا الوزن الجامع بين أشتات: الأسماءُ عربيّةٌ، والزّنَةُ فارسية وغيرُها. فلم نسمع لأبي العلاء

استنبط العُربُ، لفظًا وانبرى نَبَطٌ يخاطبونك من أفواه أعرابِ

كلمت باللحن أهل اللحن أُونِسُهُمْ إذ كان عيبيَ عند القوم إعرابي!

.... **ولولا اللحنُ لنجا النحو [من] أن يقع بتلك الخيبة** الناجمة عن ظفر

(١) يقول الصاحي من نومه، وقد رأى منامًا: «خير! اللَّهم اجعله خيرًا».

البصريين الباغين، بإخوانهم الكوفيين الضارعين القاسطين... ولأُعفيت أسماعُ الناس اثني عشر قرنًا من قولة بصري وكوفي، ولبقي الجنين الموؤود: (المذهب) البغدادي في بعض ما يشتمل عليه طيَّ العَدم، أو أخيه الغيب، ولكان مكان هٰذا التنازع على زعامة العربيّة بين المشارقة والمغاربة بإجماع على تلك الدساتير التي قذفتها رَحِمُ الطبيعة لألاءةً مشرقةً، غنجة مطواعة، سائغة بعد الهضم، والتمثل، في كل (ملكةٍ؟) أو روح أو ثقافة عربيّة».

٢- وقال الحسن ولعله البصري، وهو أحد الأربعة الذين لم تؤخذ عليهم لحنة لبعض جلسائه: توضَّيتَ؟ فقيل له: أَتَلْحَنُ يا أبا سعيد؟ فقال: إنّها لغة هذيل. وأنا **أكاد أعتقد أنّه طرحها أُحبولةً لِيَلْحَنَ** فيدلَّ على مكانه من الفصاحة والعلم والاتّساع بمعرفة كلام العرب، فكان له ما أراد، ففعل.

ولقد كان له قُدوةٌ وسلفٌ بهٰذا من نظيره **الشعبي** عند عبد الملك [بن مروان].

٣- ولقد كان الحَجَّاج شديد الحرص، عظيم النزوع لأَنْ يكونَ في جملة من تناولهم الإحصاء بأنهم لم يلحنوا قطّ في جِدٍّ ولا هزل...الخ.

٤- ولقد بلغ من **إكبارهم اللحن** وهَوْلِ فظاعتَهِ من نفوسهم، ووَهنِ الفطرة وفَساد الطبع أنهم اتّخذوه الدليل كلَّ الدليل على وهن النَّحيزة[1]، الداعي إلى الشك بعروبة صاحبها، حتى إنّ أبا بكر كان يرى للقارئ أن يُسْقِط اللفظة الملحون بها عن أن يسجّل على نفسه اللحن بنطقها؛ لأنه في إسقاطها لا يعدو أن يكون ناسيًا أو ذاهلًا.... وليس في النسيان أو الذّهول ما يدلّ على خَوَرِ الطبيعة العربية. وهٰذا ما حملَ الحَجَّاجَ وهو ما هو عنجهيّةً عربيّةً (ولوثة؟) حضرية على إسقاط اللام من خبر

(١) النّحيزة: الطبيعة. [المعجم الوسيط]

إنّ، وقد سبقه لسانُه إلى فتحها[1]...

.... ولهٰذا، أو بعضه، أو ما هٰذا بعضُه **أَلْزمَ بنو أميَّةَ أبناءهم الخروجَ إلى البادية**، والعكوفَ على كلام العرب في الحَضَر.

٥- قال ابن أبي إسحاق لبكير بن حبيب: ما أَلْحَنُ في شيء! وقال: فَخُذْ عليّ كِلْمَة، فقال: هٰذه واحدة. قل كَلِمَة. ومرّت به سِنّوْرَةٌ فقال لها: **اخْسَيْ**، فقال له: أَخطأت: إنما هو **اخْسَئِي**!...

[العامّي الفصيح][2]

في الملف الذي يحتوي على جذاذات (اللحن) أوراق كثيرةٌ فيها مادّة واسعة، في موضوع **العامّي الفصيح**. ويقعُ المتابع على أوراق متناثرة في سائر الملفّات في هٰذا الموضوع. وهٰذه منتخبات مما سجّل البِزم:

- انْضَافَ وانعدمَ مثل: انفهمَ وانعتق.
- انْبَغى (في اللسان ١٧: ٨٢) خلافًا للمصباح في نقص تصرّفه أو أنّ ماضيه مُمَات.
- انْكَمشَ: (في اللسان ١٣: ٥٦) والتاج عنه: الكَمُوش: الصغيرة الضَّرع لانكماش ضرعها، أي: تقلّصه.
- الخربَشَةُ: والخرمشة، الدمار والتّشويش.
- غَلِيَت القِدْرُ في (التاج ١٠: ٢٧٠، والمصباح: ١٩٤).

---

(١) في قراءته الآية الكريمة: ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾ [العاديات: ١١].

(٢) ما وضعته من العناوين بين معكوفتين، فهو من اقتراحي، ولم يرد في الأصل.

[الأَخْطَاء الشّائعة]

في أوراق محمَّد البِزم موادّ كثيرة في موضوع الأخطاء الشائعة. كان البِزم يورد اللفظة، ويبيّن وجه الخطأ فيها، ويذكر الصّواب أيضًا.

- تضلّع في كذا... بل: مِن كذا.
- تَهرّب.... بل: هَرَب فقط.
- أضفى عليه أي: أسْبَغَ... بل: ضَفا الثوبُ فقط.
- التنظير في ألفاظ العلماء غير موجود، فضلًا عن سماجته!
- تحتّم: لا يستدرك التاج صحّتها عن المصباح.
- الفاخوري والفواخيري: صوابُها: فَخّاري، وفخّارون.
- المَهْجَر:... المُهاجَر.
- النزيف: من نزف دمُه؛ صفة مشبّهة لا مصدر.
- ذُبابة (الجمهرة ١: ١٨٥) أما قول العامة ذبانًا فخطأ. (اللسان ١: ٤٦٨): ذُباب، ولا تقل: ذبابة. وعن التهذيب: واحد الذِّبان: بغير هاء. ولا يقال ذبابة...الخ. (كذا فيه).
- البداية بالياء بدل الهمزة عامّي نصّ عليه ابن بري (المصباح ٦٦).
- البدّال: صوابها البقّال[1].

---

(١) في ملف آخر سمّي: (شؤون في اللغة) تتمة لهذه العبارة، وفي: البدّال: البقّال، والثانية عامّية إلا لبائع البقل.

- ترى محمَّد البِزم يتابع المسألة. ولو كانت صغيرة، ولو كان ذلك في موضعين أو في زمنين مختلفين.

* وفي الملف (عن اللحن) فقرات مرقمة (من ١ إلى ٥) بخط المؤلف، قسم الصفحة قسمين: وفي أعلى الصفحة كلمتا: الخطأ، والصواب، وتحتهما ما يناسب المقصد، وهٰذه أمثلة:

الخطأ	الصواب
١ – أهاج	هاج، وهَيّجَ
٢ – في العشر الأخير من الشهر	في العشر الأواخر
٣ – لا أدري هل يسافر فلان	... هل يسافرُ أم لا.
٤ – التجوّل	التجوال
٥ – داهمني الأمر	دَهمني، أو: فَجأني
٦ – هٰذه الأعمال يترتب عليها كذا	... يُبْنى، وينجمُ عنها كذا
٧ – ذهبنا سويّةً	... معًا أو متصاحبَيْن؛ فإن كان جمعًا فـ: متصاحِبين...
٨ – سلام عاطِر	... عَطِر (كطرِب) و(تَعِب) من طَرِبَ وتَعِبَ
٩ – فَفشِلْتُ...	أخفقْتُ، و: أكْدِيتُ، وخِبْتُ، وأما الفشل فهو الجُبْنُ والضعف.
١٠ – الليونة مصدر: لَانَ	اللين

• وقد يجيءُ بما يصحُّ، وما هو أصحُّ منه أو أفصح، ومنه:

١ – الفنّان والفنّانون...	خيرُ منها: المُفْتَنُّ والمتفنّنُ. أما الفنّان فهو حمار الوحش، وإن كان نعتًا له، فقد ....

الخطأ	الصواب
.....	جرى مجرى العَلَمِ إلا أن تريدَ منها: الآتي بالفنون. ولا نظير لهٰذا في اللغة
٢ - المرأةُ لا تساوي جزءًا من عظمة وقوة الرجل	الفصيح: من عَظمة الرجلِ وقُوّتِه، وإن جاءَ في الشعر: يا من رأى عارضًا يُسَرُّ بهِ بين ذِرَاعَيْ وجبهة الأسَدِ أي بين ذراعي الأسد وجبهته.
٣ - كم هي فَرِحةٌ مسرورة	الأصح والأفصح: كم فَرِحَت وكم سُرَّتْ!

التذكرتان

وهما كناشان صغيران، وضع على كل واحد منها عنوان (التذكرة). وهي قصاصات فيها أمور متعدّدة من اللغة، والنحو، وفوائد مختلفة.

وفي هٰذه الأوراق كلمات وعبارات **من العامي الفصيح**: أورده ونَبّه على صحته، ومن ذلك:

- من العامّي الفصيح: اصطبرْ[1].
- من العامّي الفصيح: الفَضْلة: (البقية)، والبالوعة وجمعها بلاليع.
- من العامي الفصيح: غطّيت الشيء فَتَغَطّى.

(١) ما يزالون في الشّام يقولون: اصطبرْ لمعنى: اصْبِرْ. تقول الأم لولدها، وقد مدّ يده إلى الطعام: اصطبر حتى يجي أبوك.

- ومنه: فَلَع يَفْلَعُ: شقّ، وتفلّع: تشقّق، وانْفَلع[1]..
- ومنه: شَبَكهُ عن الشيء: شغله.
- ومنه: فرحان وفرحانة،
  - و: أكلني رأسي.
  - وما لي حَيْل (والحيل: القوّة)[2].

- ومن الفوائد فيه: الظروف كلّها مذكرة (عن ابن سيده).
- ومن الطريف أن البِزم أورد بيتًا قلّب فيه رأيه في صياغته، وهو من قصيدة في ديوانه[3]، وروايته في الديوان:

يقــترحُ المجــدَ عــلى دَهْــرِه ورُبّ مَجْــدٍ جَــرّه الاقــتراحْ

وفي إحدى التذكرتين، في بناء الشطر الثاني هٰذه الاحتمالات:

ورُبّ مجــد حــازَه ذو اقــتراحْ

وأيُّ مجــدٍ جــاءَ غــيرَ اقــتراحْ

ورب مجــد قــد أتــى بــاقتراحْ

وأي مجــدٍ لم يكــنْ بــاقتراحْ؟

- واقترح تغيير كلمة بأخرى في بيت آخر من قصيدة[4] هي في الديوان المطبوع: (تُرَدُّ) وهي في التذكرة: (تناهى)، والبيت هو.

---

(١) يقولون في الشّام: أَسمعتهُ كلامًا يفلع الصَّخر.

(٢) يقول أحدهم: ما لي حيل أمشي خطوة!

(٣) ديوان محمَّد البِزم ٢: ١٣٧.

(٤) ديوان محمَّد البِزم ١: ١٨٦.

أبى ليَ خُلق كالزُّلالِ، وخاطِرٌ إلى الملأ الأعلى تُرَدُّ سلائلهُ

- وعَلّق على كلمة في بيتٍ من قصيدة في الديوان[1]، وهو:

وكم غَوِيٍّ تُشِيبُ الليلَ جَهْلَتُهُ شعارُهُ حين يلقى الناس مِسْباحُ

قال: جاءت في شعر المعرّي. (يعني كلمة مسباح: للمَسْبحة)[2].

الموالي

تحت هٰذا العنوان جمع محمَّد البِزم قدرًا كبيرًا من أخبار (الموالي)، وقد استفادها من كتب شتى، من التواريخ، وكتب المعارف العامة، والثقافة العامة وكتب التراجم، وكتب الأدب، ودواوين الشعر...

ولو قدّم البِزم لهٰذه الاختيارات، بمقدّمة تبيّن القصد من الكتاب، والرّؤية التّاريخية للقضيّة، وحلل تلك الأخبار أَو وضع لها منهج تحليل، وما شابه ذلك، لكان الكتاب، وإن كان مجموعًا من تفاريق، كتابًا مفيدًا طريفًا.

وأوّل خبر فيه أخذه عن تاريخ الأُمم والملوك (تاريخ الطبري) وفيه: «أنّ عمر ابن الخطاب رضي الله عنه قال للهُرْمُزان حين آمَنَهُ: لا بأس! انْصَحْ لي. قال: نعم! قال: إنّ فارس اليوم رأس وجَناحان. قال: وأين الرأسُ؟ قال: نهاوَنْد مع بُندار، فإن معه أساوِرَة كسرى وأهل أصبهان. قال: وأين الجناحان؟ فذكر مكانًا، قال: فاقْطَع الجناحين يَمِنِ الرأس. فقال عمر: كذبْتَ يا عدوَّ الله! بل أعْمِدُ إلى الرأس فأقطعه، فإذا قطعه الله لم يَعْصَ عليه الجناحان[3].

---

(١) المصدر السابق ٢: ١٥٠.

(٢) في المعجم الوسيط: المَسْبَحة «خرزات منظومة للتسبيح». وأورد بعدها: «السُّبْحة» وقال: مولّدة.

(٣) يعني لم يصعب الجناحان على الفاتحين.

فِقَرٌ وفِكَر

في ملفّ خاص عنوانه المدون على الغلاف: (فِقَر وفكر) مجموعة من البطاقات والأَوراق والقصاصات أكثرها غير منتظم الشكل والقدّ. وأكثرُ ما فيها يخص النّحو واللّغة، وأعلامًا من اللغويين والنّحويين: مراجعةً لهم، أو اعتراضًا عليهم: كالزمخشري والسيوطي. وهناك قصاصة في بعض آراء ابن حزم الأندلسي في (الفِصَل).

وأختار من هٰذا الملف:

١- من عجيب أمرِ النُّحَاة أنك ترى من كثيرٍ منهم شخصين مختلفين: فهو إذا ألّف في النحو أراكَ العجبَ جمودًا وتقليدًا... وإذا ذهب يشرح شعرًا أو يفسّرُ القرآن طلع عليك منه شخصٌ آخر لا تكاد تظفر بنصفِه مؤلفًا في النحو. والأمثال كثيرة عندي. هٰذا الزمخشري على كثرة ما حاول من الهزّة في كتابه (المفصّل)، ووفرة ما تحرّر من قيود، فهو [في] كثير من الأبواب تعروه غفلة.

٢- «أَعطوني إنسانًا حفظ مئتي بيت **من شعر العرب**، وثَقِفَتْها نَفْسُه، وأُشرِبَتْها روحُه، إلى مثلها **من أمثال العرب، وآي كتاب الله**، مع كوكبةٍ **من أخبار العرب، ورقائقها**، ثم طالبوني به بعد ستّة أشهر، **وخذوهُ وهو يجملُ من العربيّة والنحو ما لا يزيد عليه عالم عَلِمَها منذ خَلق الله العربيّة** حتى اليوم، إلّا ما من حقّه أن يرجعَ به إلى المعجم، (طُفِل بهِ على النّحو ظُلَمًا يتزيّدُ في حجمِ النّحو فقط، ويهوّل به، وهو بنسبة الواحد من العشرة، كشواذ النسب، والتصغير، وبعض مضايق الإعلال والإبدال)[1]. بل **خُذوهُ نقّادًا**

(١) ما بين قوسين في الأصل. وكأن البِزم ينتقد ما يصنعه المعلّمون، وتفرضه المناهج السائدة إغراق التلاميذ والطلبة بما يصعب ولا لزوم له من النحو...

مُرًّا بشب نار النّكير، ويُسَعّر وطيسَ الثورة على المُمَخرقين المخرفشين يرفعُ الأدلّة، وينصب البراهين، ويقيم موازين العقوبة دون أنْ ينحرف عن المعقول قِيدَ أنملة في كلّ ما يقول».

شعرُ المَدْرَسة

في هٰذا الملفّ مجموعة كبيرة من النصوص الشعرية، اختارها محمَّد البِزم من عصور مختلفة، ومن موضوعات متعدّدة. وأكثرها نصوص صمّاء لا شرح عليها، ولا إضافة، ولا تعليق.

ومع بعض النصوص ملاحظات سريعة أو تَقْدِمات: فَتَحْتَ عنوان: (الحرب): - وفيه قطع شعريّة - قال: «قالت العرب: الحَرْبُ غَشُوم لأنها تنالُ غير الجاني».

وقد يجيء مع النص بِخَبَرٍ ممهّدٍ أو لاحق، ومنه: «كان المأمون يقول: الغيرةُ بهيميّة. وقال أيضًا: هي ضَرْبٌ من البُخل»، أنشدني محمَّد بن عمر للخُرَيمي (والخبر كله في عيون الأخبار ٤/ ٧٧ كما نصّ البِزم):

مـا أحْـسَنَ الغَـيْرَةَ في حِينهـا ... وأقـبحَ الغَـيرةَ في غـير حِـينْ

وهي أوراق غير مرتّبة، وغير مرقمة، وأَوّلُ ما وجدتُ فيها قطعتين لابن خفاجة الأندلسي في صفة الجبل، إحداهما:

وأَرْعـنَ طَـمّاحِ الذّؤابـةِ بـاذخ ... يطـاولُ أَعْنَـانَ الـسّماءِ بغـاربِ

ولم أجد في النصوص شيئًا من شعر البِزم هنا.

نـثر اللزوم

في هٰذا الملف ورقتان مُشَوّشتان[1]، وهما بغير خط محمَّد البِزم، وفيها فقراتٌ

(١) في الصحاح: التشويش التخليط: وقيل: التشويش من كلام المولدين، وأصله: التهويش. (الوسيط). وقد مرت الكلمة مع تعليق عليها في خبر.

كأنّها كتبت مُسَوّدة سريعة في الأصل ثم نقلها الناقلُ بغيرِ إتقان ولا فهمٍ لما يكتب.

والعبارة توحي بنشر شيءٍ من اللزوميات (لزوميات المعري) أو لزوميات الشاعر، وهي كثيرة جدًّا، فاشيةٌ في الجزء الثاني من الديوان.

الشطْرنـج

كان محمَّد البِزم شطرنجيًّا بارعًا، إضافةً إلى براعةٍ مشهورةٍ له بلعبة «البلياردو» وغيرها.

وفي ديوان البِزم قصيدة بعنوان (**الشّطرنج**)[1] أوّلُها:

وميـدانِ حَـرْبٍ فيـهِ قِـدْمًا تـسابقَتْ خيولُ النُّهى لم تعرف الـدَّهْرَ - مَهْجَعا

صَوَّر فيها رقعة الشطرنج كاملةً، ووصف لعبة جَرَتْ بينه وبين صديقٍ له، وأدارها معركةً كالذي يكون في ساحة الحرب، ولكنها معركة ذهنيّة عقليّة:

وثـار عَجـاجُ الفِكْـرِ واحْتَـدم الـوغى ولم يُلْفِ باغي العيش للمـوتِ مَـدْفَعا

فجرّدتْـــهُ جَيْـــشًا يمـــج عُبَابـــهُ قـــذائف حَـــزمٍ كالعقـــاربِ لُـــسَّعا

وقال في آخرها:

إذا مـا رمـى الحِـدْثانُ رُخَّـكَ بـالرّدى فلا تُبْقِ دونَ الفيـل في القـوسِ مَنْزِعـا

وإمّـا أضـاعَ الـرُّخُّ خَـصْمَك قـل لـه: عَثَـرْتَ وبـدّدْتَ البيـادِقَ؛ لا لعـا[2]

فقد انتهت اللُّعبة، وخسر الرخُّ معركته!... (في اصطلاح الشطرنجييّن: شاه مات!).

---

(١) ديوان محمَّد البِزم ١: ٣٢١ - ٣٢٥.

(٢) «لعًا»: صوتٌ معناه الدّعاء للعاثر بأن يرتفعَ من عثرتِه. يُقال: لعًا لفلان. وفي الدّعاءِ عليه بالنّفْيِ، يقولون: لا لعًا له. وفي كلام أهل الشام «الله لا يقيمُه» أي هو يستحقُّ السّقطة أو العثرة: ماديّةً كانت أو معنوية.

وملف «الشطرنج» في آثار البِزم: أوراق مجموعة، على الطريقة المألوفة في أوراقه، عن هٰذه اللّعبة، وأخبار الشطرنجيين، وما قيل في الشطرنج من شعر ونثر.

- وورق الملفّ مادّةٌ لم تكتمل.

[معجم ألفاظ «المعالجة» ومعانيها]

هٰذا عنوان مقترح لمواد لغوية يمكنُ ترتيبُها لتُصبِحَ معجمًا خاصًّا، كاملًا، وقد سماه بعض الدارسين[1]: «ألفاظ النكاح»، ولم أجد هٰذا العنوان في هٰذا الملفّ. ولكنه عنوان مناسب للمادّة.

وهي موادّ تستوفي الأسماء والأفعال والصفات في تفصيل وتطويل. كتبت بأقلام مختلفة، وفي أوقات متباعدة كما يبدو. وهي من كتابة البِزم.

ومع هٰذه المواد الخاصة، موادّ أُخرى في موضوعات لغوية شتى عرضت للشاعر المؤلف فأوردها حيث خطرت أو عَرَضتْ.

مختارات من النصوص العربيّة: شعرًا ونثرًا

وضع هٰذا العنوان على غلافٍ حديثٍ لملفّ فيه مجموعة كبيرة من النصوص الشعرية والنثرية. وكثير منها يصلح للتّعليم والتطبيق، وهي تنفعُ للمذاكرة والمحاضرة.

وهي من النصوص التراثية.

فوائد

- **القاموس**: مادة (و ل ث): الولث: العهد الغير الأكيد؛ ولم يقع بها اللسان.
- **المُغني**: (٢: ٤٠٦) وجميعُ أسماء الاستفهام فإنهن لطلب التصور لا غير، وقد تقدم أن هٰذا لحن[2].

---

(١) شعر محمَّد البِزم: إسماعيل عبد الكريم حسين: ١٧.

(٢) انظر فقرة (اللحن) من عَرْضِ كتب البِزم.

- **اللسان**: الأزهري: ويقال للعصا: عصاة، بالهاء؛ يقال أخذتُ عصاته. قال ومنهم من كره هٰذه اللغة. الأصمعي قال: ولا يجوز مَدُّ العَصا، ولا إدخال التاء.
- **الحيوان** (١: ٣٣) قصيدة المقنع الكندي وفيها كثيرٌ ممّا ليس في المعاجم.
- **بلاط**: ليس في اللسان ولا غيره ما يؤذن منها بمعنى القصر، أو: الدار للملك؛ ولكن جاء في اللسان لأبي دُؤَاد الإيادي:

ولقد كانَ ذا كتائبَ خُضْرٍ وبلاطٍ يشادُ بالأجرُون

- بَيّاع: استدركها المُرتضى.

- خُذا من صَبا نجدٍ أمانًا لقلبِه فقد كادَ رَيّاها يطير بِلُبِّهِ

لابن الخياط الدمشقي

- بعَثَ به: بل: بعثه بكذا أشهر وأفصح وأَولى.
- اللّزوم إلى كذا: الحاجة.
- الخزانة (٣: ٤١٨) **خَطّأ** المبرّد في الروضة قول أبي نواس:

شمولٌ تخطّاها المنون فقد أتتْ سنينٌ لها في دَنّها وسنينُ

ولَحَنَهُ[1] في قوله بعد هٰذا:

تخيّرها بعد السنين.....

لأنه جمعَ في كلمة واحدةٍ بين إعرابين: بالحرف، والحركة.

قِدم النَّحْو

- «... وأنا مهما عجزتُ عن تحديد هٰذا النحو القديم الذي كان للّغة قبل

(١) انظر فقرة اللحن أيضًا.

الإسلام فلن أعجز عن المقاربة فيه عندما أزوّد بالقوّة لمراجعة كل ما لديّ من نصوص، وإن لم أكن على يأسٍ منها الآن.

- ويروى أن رجلًا قال لعليّ: قتل الناس عثمان فقال: بيّن الفاعل من المفعول.
- ولو سبق في لَوْحِ القضاء أن يتأخّر مولد الإسلام مئةً أو مئتي عام لانكشف لنا عن **نحو الجاهليّة** كثير من الشؤون، ولأُزيحت ستورٌ وراءها ستورٌ، ممّا لا يبقى معه مجال للشكّ أو مدى يحول دون اليقين بأنَّ أبا الأسود وغيره ممّن عُزِي إليهم أوّلُ النحو ما وضعوا شيئًا إلا على رُسومٍ هٰذا النحو القديم، وحدوده.
- وكان من العقوق، أقصى درجات العقوق أن تُفْرَط تلك الرّسوم، ويعفى عليها، ثم يكون ما يُشبه الإجماع (حتى؟) على الإعراض عن الإشارة إليها.

فَعْل وأفْعَال

نَقَل عن (المُقابسات) لأبي حيّان التوحيدي (ص: ٩٥) قال: «قال الصّاحب يومًا: فَعْل وأفعال قليل، وزعم النحويّون أنه ما جاءَ إلا زَند وأزناد، وفَرْخ وأفراخ، وفَرد وأفراد. فقلت له: أنا أحفظ ثلاثين حرفًا كلها: فَعْل وأفعال...».

– والصاحب هو كاتب ابن العميد وزير بني بويه المستولين على الدولة العباسية في القرن الرابع الهجري. وكان سخيف الرأي، كثير العُجْب، مدّعيًا في أكثر ما يصدر عنه، أو يصدرُ باسمه، من الكتب. وقد أُغرِيَ بأبي حيان التوحيدي، ونقص من مكانته وحقّه. وأُغْرِيَ بالمتنبي الذي رفض أن يمدحه، وأغرى به بعض الكتّاب كالحاتمي.

ولم أجد في ملف (فَعْل وأفعال) مما جمع البِزم أَو عَلَّق... وإنما هي نخبٌ غير منظمة في موضوعات شتى.

مُدَّخَرُ الشواهد

أَو: **شواهد الاستشهاد**، وهي مجموعة من الاختبارات الشعريّة، التقطها من أشعار عصور التألّق من الجاهلية إلى آخر العصر العباسي، ويدخل في ذلك ملتقطات من أهل الأندلس والمغرب.

وقد تداخلت أوراق من هٰذا الكُتَيب (أو الرسالة) في أوراق كتاب: الأجوبة المسكتة...

وميزان الاختيار: ذوق الشاعر، ورؤيته الفنيّة، ورغبته في تقديم نماذج شعرية تفيد القارئ، وتُنَمّي مخزونه الشعري، وتُرْهِفُ ذوقه الأدبي، وتضيفُ إليه من الألفاظ في إطار استعمالها الجَيّد، ومن معاني الشعر من العصور المختلفة، ومن الشعراء المنتخبين.

وتشغل هٰذه الشّواهد ما بين الصفحتين ٩١ و١١٢. وهي في قسمين:

١) اختيارات عامّة لشعراء مختلفين.

٢) وقطع منتقاة من أشعار أبي العلاء المعرّي.

ونلاحظ هنا ذوق البِزم في تقديم أبي العلاء إلى قرّائه - وطلابه خاصّة - وهو الذي تأثر به، وألف فيه قصيدةً مطولة، و«تناغَم معه» في عدد من آرائه، وأقواله. ولنا كلام على هٰذا الملمح في دراسة شعر البِزم في ما يأتي.

وكان البِزم قد يوردُ بعض الشروح أَو المناسبات، أو التعليقات.

- اختار قول عمرو بن معدي كرب:

ولــو أنَّ قــومي أنطقتنــي رمــاحُهم نطقــتُ ولكــنَّ الرمــاحَ أَجَــرَّتِ

وقال: الجرار: عودٌ يعرض في فم الفصيل، أو يُشق به لسانهُ لئلّا يرضع، فهو مُجرّ....

جمال اللغة العربية

في ملف عنوانُه (جمال اللغة العربية) مقالةٌ في نحو ثلاث صفحات مضى فيها محمَّد البِزم على منهجه في تبيان محاسن العربية، وخَصائصها، والتغنّي بها من جهات مختلفة. وكتبها تحت تأثير إعجابه الشديد، وقناعته المبنية على أسس موضوعية بأنها «أجملُ لغات الدُّنيا. وعَرَّج على ما عانتهُ اللغة العربية من سطوة النحاة...».

وفي هٰذه المقالة: «ما افْتَنّت الطبيعة في إحكام لغةٍ افتنانَها في إحكام لغة العرب: جمالَ ألفاظٍ، وتناهِيَ تأنّقٍ في فنونها نحوًا وصرفًا وبلاغةً وإيجازًا. فلو هَبّ في العرب مصلحٌ جبّار، وأجمع العرب على طاعته في ما يَرُدُّ عليهم مَجْدَهُم لكان خَيْرَ ما يحملهم عليه إطلاعُهمْ على محاسنِ لغتهم، وحَثُّهم على الفتنة بها كل الفتنة. ولو كانت عبادةُ اللغات عادةً للأمم ثم رجعت عنها، لما كان للعرب - خاصّةً - أن يرجعوا عن عبادة لُغَتهم. ولو كان لا يُعْبَدُ من لغات الأرضِ إلَّا المتناهية الجمال، أو المُجْتَمِعُ فيها من فنون الحسن ما لا يكون في سواها لوجب على العرب ألّا يحيدوا عن معبودهم: العربيّة قابَ قوسٍ، أو قِيدَ أنملة؛ وما عكف العاكفون على لغة لجمالها دون أية غاية مادية أو معنوية كما عكف العاكفون على العربية منذ القديم حتى اليوم؛ ولا رُزِقت لغةٌ من إخلاص أبنائها وأتباعهم من مواليهم: حَمَلتها ما رُزقته العربيةُ من إخلاص رجالها المنقِّبين عن غُرَرِها وجمالها؛ ولا تضافرت العبقرياتُ الطاغية، والعقول العاتية، والخواطر المتوقّدة على السهر في سبيل لغةٍ تضافُرَها في الإخلاص والسهر على لغة العرب....».

والمقالة انطباعية مُغْرِقةٌ في حُبّ اللّغة. وهي توافقُ ما كتبه وألّفه وتزيدُ عليه إغراقًا في الإعجاب. وهي تصلح مقدمة لكتاب أَو رسالةٍ تجتمع من خطراته وآرائه.

* * *

٢- مقالات نقدية

بدأ محمَّد البِزم نشر مقالات أدبية ونقدية مبكّرًا، ولو استمر، كما بدأ، لكان له شأن في مجالات الأدب والنّقد. ولكنه اقتصر على القليل، وتوجّه إلى الشؤون التي شغلته: الشعر، والتعليم الجادّ، والبُحوث النحوية واللغوية والصرفية.

١) أربع مقالات نقدية[١]

أ) **معنى النقد**: ناقش فيها قضية النقد عامة، والنقد عند العرب، وفي مقدمة ابن سلام، وبعض مصطلحات النقد في تراثنا اللغوي والنّقدي - البلاغي. وقارن بين كلمتي النقد و«التّتَبُّع» التي زاحمتها في مرحلةٍ سابقة.

ب) **كلمات في شعراء دمشق**[٢]: وهم: خير الدين الزركلي، وشفيق جبري، وخليل مردم بك، وعز الدين علم الدين (التنوخي)، وأحمد عبيد، وعبد الرحمن القصار، وسليم عنحوري، وسليم الجندي، وعبد القادر المبارك.

- ومما قاله في الزركلي بعد مقدّمة مدحية: «... يركّب معانيه من متون لفظه ما يقرّب عليه كل بعيد، ويشأى[٣] بهِ الفحولَ من

(١) مجلة الثقافة الجزء الثاني - السنة الأولى...

(٢) الميزان: ٣٠، ٣١ (آب - أيلول: ١٩٢٥). وقد أعاد د.الكيلاني نشرها في ذيل دراسته. انظر: محمَّد البِزم للدكتور إبراهيم الكيلاني: ٢٢٧ - ٢٤٠.

(٣) يشأى القوم: يسبقهم. [المعجم الوسيط]

معاصريه؛ فهو في الشام من حيث صياغةُ اللّفظ والحرص على حسن السبك كحافظ في مصر، والشبيبي في العراق، وليس للشعر مذهبٌ إلا وله فيه جولات مجلّيات...».

- ومما قاله في خليل مردم بك: «... وقد يقذفُ القطعةَ من الشعر فيأخذ بمجامع بعضِ القُلوب؛ حتى إذا وقعتْ بيد علماء الأنسابِ رَدُّوها إلى أصولها، وأرْجَعُوها إلى مصادِرها، فإذا به وليسَ له فيها إلا روابطُ وحروفٌ، وتقديمٌ وتأخيرٌ: يحمدُه له الكثير من أصدقائهِ ومحبّيه...»!!

وتجري المقالات على هٰذا النحو: انطباعيةً خالصةً، يلمسُ فيها الناقدُ نتاجَ الشاعرِ أو الكاتبِ لمسًا رفيقًا، ويغرقُ في ذاتيّة شخصيّة، مع لمحاتٍ تخصّ الموضوع وتدخلُ فيه. ونلاحظُ كيف اختلف الكلام بين نتاجِ صديقهِ الزّركلي، ونتاجِ خليل مردم بك، ولم تكن له عنده حظوة... وقد يكون الموقف نفورًا (ولو لم يكن ظاهرًا...).

ج) **عُروج أَبي العلاء**[1]: كان الأَديب الكاتب خير الدين الأسدي ترجم قصيدة للشاعر الأرمني أويديك إسحاقيان. فكتب محمَّد البِزم مقالة في ترجمة الأسدي لتلك القصيدة.

د) **من وحي المرأة**[2]: هٰذا العنوان هو لديوان شعري صغير للشاعر العربي المصري عبد الرحمن صدقي أصدره تذكارًا لزوجته (ماري). حمد البِزم في مقالته موقف الشاعر من زوجته المتوفاة، ووفاءه لذكراها. وقال: إن مثل هٰذا في الشعر العربي قليل.

---

(١) مجلة المجمع العلمي العربي - المجلد ١٩ (تموز وآب ١٩٤٤) ص: ٣٦٥.

(٢) المرجع السابق - المجلد ٢١ ص: ٢٥٨.

٣) مقدمة كتاب طوق الحمامة[١]

بدأ البِزم مقدمته بكلامٍ على فكرة تكريم العلماء والأدباء والشعراء بالاحتفالات والمهرجانات. ورأى أن ذلك يتمّ بعد موت أحد هؤلاء بحسرته مُهْمَلًا فقيرًا تعِسًا... وأن أمّته لا تفعلُ ذلك لشيء من العطف عليه أو لشيء تريده له بل لتثير بهِ الهممَ ويخرج من بينها أمثال أولئك المبدعين[٢]...

وعتب على المؤرخين وأهل الشأن تقصيرهم في حق ابن حزم، وأعلى البِزم من شأنه فإنه يستحق ذلك، ومما قاله: «لم يستطع أحدٌ مِمّن تكلم عن ابن حزم أن يصعد بنا إلى القمّة، التي تربّع ذروتها، واحتلَّ قُنّتها، كما أنهم عجزوا بعض العجز أو كله عن أن يأخذوا بيد قارئ ترجمته إلى حيث يجب أن يقف من إعظام الرَّجُلِ وإكباره....»[٣].

ونقل من شعر ابن حزم قطعةً، هي عنده دليلٌ على حسرة ابن حزم من تضييع أَهل بلده له، وإزرائهم بحقّه...

أنـــا العِلْـــقُ الـــذي لا عَيْـــبَ فيـــه ... ســـوى بلـــدي، وأَنّي غـــيرُ طـــاري[٤]

تُقِـــرُّ لي العـــراق، ومَـــنْ يليهـــا ... وأهـــــلُ الأرض إلا أهـــــلُ داري

طـــووا حـــسدًا عـــلى أدبٍ وفهـــمٍ ... وعلـــم مـــا يُـــشَقُّ لـــه غُبـــاري

---

(١) طوق الحمامة في الألف والأُلّاف - ابن حزم الأندلسي - مكتبة عرفة بدمشق - ١٣٤٩هـ - من الصفحة (الحرف ك) إلى الصفحة (الحرف خ) أي ١٤ صفحة.

(٢) مررت على هٰذه الفكرة في موضع آخر بتفصيل وتوضيح.

(٣) مقدمة طوق الحمامة: الصفحة: م.

(٤) العلق: النفيس. غير طاري: غير طارئ، لستُ غريبًا وافدًا يهتمّون له. وكانت الأندلس ترحّب بالقادمين إليها من المشرق وتحتفي بهم. وربّما كان ذلك على حساب أبناء البلد (المواطنين). انظر مثلًا ديوان يحيى بن حكم (الأندلسي: (الصفحات ١٦، ٣٦، ٣٧)).

فمهـــما طـــار في الآفـــاق ذِكـــري فـــما سَـــطَع الـــدخانُ بغـــيرِ نـــارِ!

وأخذ البِزم في موضوع كتاب ابن حزم، وكلام العرب في الحبِّ وتأليفهم فيه، وأشار إلى سبق ابن حزم إلى الكتابة في موضوع الحبّ في الأدب العربي. وانتبه بجذل إلى حُسن اختيار ابن حزم لعنوان كتابه، وأثنى على الأندلسيين عامة. وأشار إلى رسالة لابن سينا في العشق، ولكنه أبقى ابن حزم في مكانته.

وقد أشار د.الطّاهر مكّي في مقدمة طبعته لطوق الحمامة[1] إلى طبعة دار عرفة، وإلى مقدمة البِزم؛ وبلا أيّ داعٍ أو مُسوّغ قال: «**وقدّم له مَنْ دعاهُ شاعرًا كبيرًا محمَّد البِزم**»، وهٰذه سقطةٌ من د.الطاهر وهو مَنْ هو في مجال الثقافة العربيّة عامة، والتّراث الأندلسي خاصّة. وفات د.الطاهر، أنْ يرجعَ إلى ديوان البِزم المطبوع، وقد طبع أيّام الوحدة بين مصر والشام، ومنه نسخٌ وافية في مكتبات مصر جميعًا. وأعرفُ أن نزعة د.الطاهر مكّي العروبية صافية عالية.

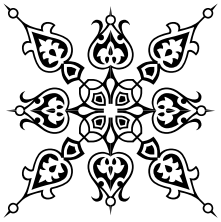

(١) طوق الحمامة في الأُلفة والأُلّاف: ضبط نصّه وحرّر هوامشه د.الطاهر أحمد مكي – دار المعارف بالقاهرة – الطبعة الأولى ١٣٩٥هـ – ١٩٧٥م – ص: ٦ – ٧.

٣- بحوث نحويَّة

(١)

قال البِزم في سيرته الموجزة إنّه ازداد انغماسًا في دراسة النّحو، والالتفات إلى النحو عن طريق دواوين الشعر وكتب الأدب: إعرابًا وتشريحًا وتحليلًا ممّا لم يُتح لنحوي قبله، قال: «لأني قصدتهُ قصدًا، وحملتُ التلاميذ عليه حَمْلًا؛ لأنّه جزءٌ من عَملي السّابق، فكان لي فيه من هؤلاء الأطفال عون كبيرٌ لا يكاد يصدّقه إلّا مَنْ عانى التعليم، ورأى من غرائب فِطَنِ التلاميذ، وعجائب سُرعة خواطرهم في النقد، والوقوع على كثير من حقائق العربية ووقائعها، عَفْوَ الخاطرِ، ونُهَزَ القرائح، ووَقدات الأذهان، ونَزوات العقول ما لم أزل أنعمُ به كلّ اليوم».

وبحث طوالَ ثلاثين عامًا عن السّبب الذي نَفَّر النَّاس من النحو لكي يزيله... ورأى بعد تجربته أن «من أسهل السّهل تحويل النحو إلى متعة ولهو ولعب يتناوله الأطفال فكاهةً وتسليةً لا يُحسّون معها بشيء من تلك الوحشة».

لقد اعتمد البِزم على النصوص الأدبية الجيّدة الصّالحة للحفظ من التراث، ونَفَذ من الشاهد إلى القاعدة... ليفهموا من سياق الحديث وجوّ النصّ.

قال الدكتور الكيلاني[1]: ومن يرجع إلى أمالي البِزم يجد فيها تعريفاتٍ وتحديداتٍ وتأويلاتٍ خرَج في معظمها عما اصطلح عليه النحو المدرسي. ومن الأمثلة:

(١) محمَّد البِزم، د.إبراهيم الكيلاني: ٢٠٦ – ٢٠٧، وكان يعلّق على ما قاله البِزم، ويمثل له من محاضراته.

الأفعال النّاقصّة: «كان الأجدر أن تُسَمّى بالنواسخ لمباشرتها المبتدأ والخبر. ونسخها عامل الابتداء، وليس من الإنصاف أن تُدعى أفعالًا لأنّه لم يبق بها من معاني الأفعال إلا الدلالة على الزمن. وأهم ما في الفعل دلالاته على الحدث؛ فهي بالحقيقة ظروفٌ تحتاج إلى متعلّق، ومتعلّقها خبرٌ لها. فـ(كان) لم ترفع الاسم وتنصب الخبر إلّا لتجرّدها من معنى الوجود والوقوع. وكذلك الشأن في أخواتها، فلو لم تتجرّد من معانيها الأصلية لم تُدْعَ ناقصة، فقولنا: «كان زيدٌ عالمًا» في قوة قولنا: «علمُ زيدٍ في ما مضى».

- وقال البِزم في **باب النداء**: «عندما جُمِعَ النحو **حاول النُّحاةُ أن يُخرجوه للناس ضخمًا هائلًا** فأساؤوا إلى اللغة إساءة لا تُغتفر. فممّا أساؤوا إليها، وهو كثير، **إحداثهم باب النداء**؛ وهو جاءَ من المفعول به؛ لأنك لا تقول «يا رجلًا» إلا وأنت تريد: أدعو، أو أنادي رجلًا.
- وقال في **تعريف إنّما**: «أَداة حصر لا عمل لها، ولا تمنع من العمل، وهي تتضمّن معنى (ما) و(إن) فإذا قلت: إنما أنا تلميذ، فكأن القول: ما أنا إلّا تلميذ».
- وقال في **إنّ**: «استحقت (إنّ) الزعامةَ على أخواتها بشدّةِ نفوذها، أي: إنها تعمل وهي غائبة، ولأنها كثيرة الورود في الكلام».

(٢)

لم يكن البِزم هو الصوت الوحيد الذي نادى بإصلاح النّحو أو تجديده، فقد كان في القدماء – مثلًا – ابن مضاء القرطبي؛ وعادت القضية في العصر الحديث، فألفت كتب في إحياء النحو، وتجديده، ووصل شيء من ذلك إلى مناهج اللّغة العربيّة للمدارس قبل الجامعيَّة. ولهذا كلام طويل.

وكان البِزم، في مطالعة د.إبراهيم الكيلاني[1] **أحد هؤلاء المعلّمين الذين آمنوا بوجوب تيسير النحو**، وأحد الذين اعتقدوا أنهم قادرون على «**تجديد بنائه**»، وهو - يعني البِزم - وإن لم يترك لنا أثرًا أو مؤلفًا يخلّد تجربته التعليمية **فقد ترك لنا آراء ونظريّات** يمكن عَرْضها في ما يلي:

أ) النحو علم يأتلفُ في بساطته وسهولته الأولية مع طبيعة العرب الذين ابتدعوه، ولكن - والنص للبِزم هنا - «عَلِقَ بالنحو شيء كثيرٌ من أدهان الفلسفة، وزيوت الحكمة، وأوضار[2] القياس، وعصارة التوحيد، وقتار[3] المذاهب الواثبة على الإسلام واللغة، كالاعتزال وفروعه، وغيره... ولا بد إذن من تجريده وتعهّد جسمه...».

ب) طرأت على النحو أحوال نقلته من علم عملي إلى علم نظري تجريديّ، فكثرت الاجتهادات، وكثرت الشواهد والشواذ **حتى تضخم النحو فصَعُبَ تعلّمه، واستيعابهُ** على أبناء العربية أنفسهم. **وكثرت القواعد** كثرةً أخرجت النحو عن غايته الأولى، **وصار ثقلًا** على العربي والأعجميّ معًا: **يُفسدُ الملكة** في الأول، ويذهب بأكثر عمر الاثنين... والحل عند البِزم[4] **في العودة بالنحو إلى صفائه** الأول. والاقتصار منه على البسيط العمليّ من القواعد، وأدخلها في الاستعمال، والاختيار من طرائق النحاة ما ينسجم وأذواق الناس اليوم دون التمسك بموافقة ما اختاروه للآثار الأدبيّة المعروفة.

واعترض البِزم على تكلف وضع الأمثلة ممّا لا يوافق الخاطر السليم

---

(١) محمَّد البِزم - د.إبراهيم الكيلاني: ٢٠٨ - ٢٠٩.

(٢) أَوْضار جمع وَضر: وهو: الدّسَم، والوسخ من الدسم وغيره. [المعجم الوسيط]

(٣) القُتار: دخان ذو رائحة خاصة ينبعث من الطبيخ أو الشواء أو العظم المحروق. [المعجم الوسيط]

(٤) محمَّد البِزم - الكيلاني: ٢٠٩.

واللسان الفصيح... وقد أصبح النحو «وليس في الأرض مَنْ يَدّعي الإحاطة به».

ج) وعَلّل البِزم **صعوبة النحو**، ورأى أن الأعاجم من المشتغلين بالنحو كسيبويه وأمثاله هم الذين عقّدوا عَمْدًا النحو العربي انتقامًا من العرب[1].

وأكد البِزم فكرته في أكثر من مكان من مشروعات كتبه، وفي أكثر من موضع من قصائده.

قال البِزم في أثناء قصيدة له أنشدها في مهرجان المعرّي «ذاكرًا ثورته على النحاة»[2]:

تلاعــبَ بــالنّحو النُّحــاةُ فَــصُرِّفتْ قــضاياهُ في أَغراضِــهم وعَنــاصِرُهْ
تواصَــوْا بــأَلَّا تــستباحَ سرائِــرُهْ وأن يتــــوارى لُبُّــــه وجَــــواهِرُهْ

وفيها:

وأصْبَح نحوُ العُرْب في حَوْزِ عُصْبَةٍ شــــعوبيّةٌ أَرْبَاحُــــه ومتــــاجِرُهْ
فكَشّفتَ مــن أَحــوالهم كــلَّ فاضــحٍ وأَحْلَلْــتَ كُــلًّا حيــث تبــدو مَنــاحِرُهْ
وســلّطْتَ أقحــاحَ البُــداةِ[3] علــيهمُ لــدى موقفٍ يَنْسى بــهِ الــوزْرَ وازِرُهْ!

- (وقوله: مناحره جمع: منحر، أي مقاتله).

---

(١) عَلّق أ.د.مازن المبارك على قول البِزم هٰذا فقال: «...أَليسَ في العرب كلهم من كتبَ النحو على ما يهوى البِزم؟ وهل اتّهم أحدٌ من العرب سيبويه بسوء الخلق، أو كراهية العرب؟ وهو الذي يُضرب به المثلُ في تديّنه وسلوكه واستقامته؟ وهل وصف إمام البلغاء الجرجاني أسلوب أحدٍ بما وصف به أسلوب سيبويه؟».

(٢) ديوان البِزم ١: ١٩٩.

(٣) أقحاح جمع قُحّ: الخالص من كل شيء. [القاموس المحيط]

ووصل في القصيدة إلى نفسه، وعلاقته بآراء المعرّي التي غاص فيها البِزم، وجرى على منهجها أشواطًا بعيدة[1]:

وأسهرْتَ من جفنيَّ عشرين حجّةً ... بهم ولهم أُحيي الدُّجا وأُحاضِرُهْ

وأظْفَرْتَنِي منهم بما لا تسرّني ... به متَعُ الإبريز تُزْهى غرائِرُه[2]

فذلّلْتُ منهُ كلّ أصْيَدَ شامسٍ ... ودمّثْتُه حتى تألّف نافرُهْ[3]

وعَقْلتُه بعد الجنون كأنّني ... ولم أبتدعْ فيه الرَّجاحةَ فاطِرُهْ![4]

وألمح في آخر هٰذا المقطع من القصيدة إلى أُجرَاءِ ذلك الفريقِ الشُّعوبيِّ كما قال:

على أنه ما زال من أُجرائهم ... زعانِفُ تَخْشى أَنْ يُجَدَّدَ دائِرُهْ

سجيّةُ شرٍّ بارحيٍّ يُثيرها ... على الضّادِ ثأرٌ لا توارى فواتِرُهْ

- (بارحيّ: شديد).

ومن احتجاجه لِمَا ذهب إليه من قصد النّحاة «الشعوبيين»، بحسب وصفه لهم، خَبرٌ عن ابن خالويه، قال: سأَل رَجُلٌ ابْنَ خالويه - وهو رابع ثلاثة من ملوك النحو في عصره: أريدُ أن أتعلّمَ ما أُقيمُ به لساني، فقال: اذهب يا ابْنَ أخي؛ فأنا منذ خمسين سنةً أتعلم النحو وما استقام لساني!!.

وكان محمَّد البِزم قد ألقى محاضرات على طلابه في دار المعلمين العليا في العام الدراسي ١٩٤٢ - ١٩٤٣ في عدد من القضايا النحوية التي يستوعبها طلاب هٰذه المرحلة العالية، مثل: العامل، والعُمْدَة والفَضْلة، والإعراب والبناء...

---

(١) ديوان البِزم ١: ٢٠٠.

(٢) الإبريز: الذهب الخالص (لا شوائب فيه). [القاموس المحيط]

(٣) الأصْيَدُ: المتكبّر المزهو بنفسه، والشامِس: الذي تأبّى واستَقْصى. و:دمّثه: ليّنه. [المعجم الوسيط]

(٤) فاطره: مبتدعه. (كأنه هو وضع هٰذا العلم!!).

ونسوقُ مثلًا من محاضرته في (**العامل**) قال:

«العامل رَحى النحو، وقُطْبهُ الذي عليه يدور، وشيخ العوامل وسيّد رعيلها وزعيمها هو الفعل. قال أبو تَمّام – والنّحاةُ يُرْغمونه على أنْ يكون قيْلًا من أقيالهم[1]: يعتزون به، ويترجمون له في جمهرتهم[2]، كما يُقحِمُونَ بينهم أبا نواس وغيره من الشعراء[3] استشهادًا بهم – :

خَرْقــاء يلعــبُ بــالعقولِ حَبابُهــا كتلاعــب الأفعــال بالأَســماءِ![3]

فكأن الفِعْلَ، وهو يمثّل عملًا، ويرمز إلى حَدثٍ أبى إلّا أنْ يُرينا أثرَ ذلك العمل بَيّنًا في معموله؛ ويصوّرُ لنا فِعْلَ ذلك الحدث واضحًا في أواخر المعمولات التي تَتْبَعُه... وكلّما كان الفعلُ أمْكنَ في باب الفعليّة والحدث كان أوفر من العمل حظًا، فالفعل الجامد عامل ضعيفٌ تُقَصِّرُ همّتُه عن تناول معموله إنْ تقدَّمه؛ وقد لا يعملُ إلا بشروط تحدّ عمله (كفعل التعجب، و: نِعْمَ، و: بِئس). ومثل ذلك الفعل الناقص.. وإنما دُعِيَ ناقصًا لأنه سُلِبَ أشرف ما فيه **بفقده معنى الحَدَث، ففقد معه السلطانَ** والعمل، فعادَ ضعيفَ الأيْد[4]، هيّنَ الخطر كأنّما تُرعت عَصاه منه فلا يعملُ إلا في المبتدأ والخبر. بل هو عند الدُّهاةِ من النُّحاة مقصورُ العمل على الخبر، وإن ذهبت الجمهرةُ إلى الرأيِ الأَوّلِ، بل قد يُشْتَرَطُ لعمله شروطٌ أيضًا.

على أَنّا إن تحوّلنا عن هٰذه الأفعال الشلّاء رأَينا من تَطاوُلِ الفعلِ وبُعْدِ سلطانهِ عَجبًا؛ فقد يبلغُ به الأمرُ أن يؤثّر، ليس في الكلمات فقط، ولكنْ في محالّ الجُمَلِ أيضًا

---

(١) القَيْلُ: الملك (أصله: من ملوك اليمن في الجاهلية دون الملك الأعظم).

(٢) أي يضمّون أبا تمام إلى النحاة، ويترجمون له في أعيانهم أو في طبقاتهم.

(٣) يشير البِزم إلى أن أبا نواس وسائر المُحْدَثين لا يحتج بشعرهم في النحو والصرف واللغة...

(٤) الأيْدُ: القوّة والشدّة. والفعل: آدَ (يئيد).

إن تصعلكَتْ مرّةً، وهَوَتْ، وحلَت محلّ المُفْرَد.

ثم قد يبلغُ من خُيَلاء الفعلِ وعزّته - أو بَلَهِهِ وضعفه، لا ندري! - ألّا يتناولَ معموله مباشرةً بيده، فيبعث إليه بكلبٍ من كلابه (حروفِ الجرّ) تسعى إليهِ بِمَعْمُولِه مجرورًا فعلَ الصائدِ خلْفَ الرّمِيَّة[1].

وعجبي للعرب تهزّهم هٰذه الخِلّالُ فيقرّون الفعلَ - والعاملَ عامّةً - عليها، ويقيمون له كوكبةً من حروف الجرّ هي له بمنزلة الشرطةِ، والتراتير[2]، وسُعَاةِ البريدّ فأنت إذا قلتَ: **رأيتُ زيدًا**، فقد تناول «رأى» «زيدًا» بنفسِه، ونَصَبه، وإذا قلتَ: **بَصُرْتُ بزيدٍ** فقد آذَنَك فعل **بَصُرَ** بأن كبرياءً هاجَتْ به، وأَنَفةً أَخذت بأنفهِ عن أن يُباشِرَ معموله، فسلّط كلبًا من كلابهِ هو الباء، فسَعتْ إليه بما ترفّعَ [هو] عن تناولِه بيده؛ أو أنه آثر الرّاحة كما يفعلُ الصائدُ في إرسال كلبهِ وراء الرّمِيّة. (و: **زيد**، كما ترى مفعول به غيرُ صريح، بمباشرةِ الحرفِ له؛ إذ المعنى: **أبصرتُ زيدًا**.

ثم إنْ الفِعْلَ - إلى كلّ ما مَرَّ - يَهَبُ العَملَ والسُّلْطَة لمن يَتّشِحُ بردائه، ويحملُ معناه من الأسماءِ: كاسم الفاعل، واسم المفعول، والصفة المشبّهة، والمصدر، وبعض الحروفِ أَيضًا؛ فَتُحْمَلُ في عَملِها على الفعل، ويُناط نصيبُها من العمل بِحَظّها من الشبه به»[3].

(١) الرَّمِيّة (على وزن القَضِيّة): الصّيدُ الذي ترميه (للمذكر وللمؤنث) والجمع: رمايا.

(٢) التراتير جمع: تُرتور: تابع الشُّرطي (وحوّلها العامة إلى طرطور مع توسُّعٍ دلالي). وانظر تؤرور، للمعنى نفسه. وأعتقد أن البِزم التقط الكلمة أولًا من الدارجة استئناسًا بإيحائها عندهم. وهٰذا يكاد يكون مذهبًا له في شعره ونثره؛ كما بَيّنتُ في دراسة شعره الفنيّة.

(٣) العامل، محاضرة لمحمَّد البِزم؛ وانظر: شعر البِزم، إسماعيل عبد الكريم: ٦١ - ٦٢.

٤- من نصوص البِزم النثرية

أورد هنا مُقْتَطفات من كتابات محمَّد البِزم في قضايا مختلفة تَعَرُّفًا إلى أسلوبه (أو أساليبه) في الكتابة، ومنهجه في تقريب مقاصده، وانتباهًا إلى عرضه للأفكار والمقاصد، وإلى تلقين لغته بحسب الموضوعات المعالجة.

الفاعل لا يكونُ جُمْلة!!

أورد المبرّد في الكامل في قطعة لسوّار بن المضرّب أحد من فَرّ من الحجّاج:

أقاتليَ الحجّاجُ إن لم أَزُرْ لهُ ... درَابِ وأتركْ عند هندٍ فؤاديا؟

فإن كان لا يُرضيك حتى تَرُدَّني ... إلى قَطَرِيٍّ، ما إخالُكَ راضيا!

وقال: فاعل (يُرْضيك) مضمرٌ مَنْوِيٌّ، تقديرُه: فإن كان لا يرضيكَ الإرضاءُ. ولا يجوز أن يكون ما بعد (لا يرضيك) الفاعل. وسيبويه رحمه الله قال: الفاعل لا يكون جُملةً.

يُستدلُّ من هٰذا أنّ المبرّد ألّف كتابه (الكامل) وهو شابّ قبل استحكام أمره في النحو، ونقدِ سيبويه؛ وإلّا فإن الرهبة من سيبويه حالت بين المبرّد وكثير مما كان يجبُ أن يأخذه عليه.

العربيّة في الجَنّة

إذا رجعَتْ لغةُ أهلِ الجَنَّة عربيّةً، فلستُ أدري مصير هٰذه الجمهرة العظيمة من

الأفعال والأسماء الدالّة على أنواع الزمن مما يضيق الذّرْعُ عن الإتيان ببعضها الآن. ولا ريب أنّا حينئذ نُضطر لما يجبُ علينا بعضُه اليوم من تهذيب اللغة، وطرح الكثير من غُثائها، وقشورها، ولاسيّما تلك الألفاظُ الفظّةُ الخَشِنةُ التي لا يمكنُ بحالٍ أن تتفق مع حياة الجَنّةِ النّاعمةِ، وما سيكونُ أهلُها عليه من رقة ولُطف.

المَجْمَع

[١] وقد يدبّ بعض الشكّ إلى بعض القُلوب، وتُخامرها الرّيبةُ فيسأل بعضها بعضًا؛ أنّى يقوم واحد ليس من الخالدين[1]، وليس عضوًا في المجمع العلمي العربي في دمشق أو (المجمع) الملكي في مصر بوظيفة هٰذين المجمعين على كثرة ما تضم جدرانه ممن ينتابه من أعضائه؟

وبعبارة أَفصح ما تشتمل عليه قائمة أسماء الأعضاء في أقطار الأرض ممّن صِيدوا اصطيادًا، وقُنِصُوا قَنْصًا بعد أن طُرِحَت لهم شتّى الأحابيل ليقال: إنّ فلانًا المشهور، على فضله وذيوع صيتهِ مستشرقًا أو شرقيًّا عربيًّا أو غير عربيّ هو أحد أعضاء المجمع العلمي العربي في دمشق، وإنّ الرئيس هو محمَّد كردعلي مثلًا.

[٢] ولست أَشكُّ أن من أول الواجبات اللازمة على المَجمع [أن يكون] بين أعضائه جمهرةٌ من كرام الكاتبين والقارضين؛ يُطرح إليهم بعد التتبّع والتنقير ما غمرته المعاجم من بارع الألفاظ التي تشتدّ الحاجةُ إليها: معنًى، وجمالُ لفظٍ، (....) فيطلعون بها على الناس، مستعملةً على نَهْجِ ما جاءَت في كلام العرب؛ فلا يتجشّمُ مُرِيدُ استعمالها مضض الإقدام والإحجام في سبيل الارتفاق بها خشية الخطأ في استخدامها؛ فتجيء كما نشاهد في الكثير مما يطرحُه علينا أصحاب

(١) صفةٌ يتناقلها بعض الكتاب والمؤلفين في وضف مجمع اللغة العربية في القاهرة، فيسمونه: «مَجْمَعُ الخالدين».

الرّوايات، وذوي المُتَرجمات مستكرهةً مرغمةً، مُعْوِلَةً، نادبةً سوادَ بختها بوقوعها بأيدي من لا يطيقون تصريفها في سُمُوِتها، وإحلالَها محالّها، فهي، وهُمْ، والقارئ (...)[1] في البلية سواء.

طلائع الجحيم

«كما أنّ جمهرةً كبيرةً ممّن شطّت بهم الدار، وقلّت صلتهم بالحركة الأدبيّة في دمشق **منشأ هٰذه الطلائع** سيعتقدون أن أبطال هٰذه الرّواية أَسماء موضوعة لأشباح غير موجودة إلا في حنايا الأرض، وأطباق الثرى، ومجاهل التاريخ، على نمط ما يفعله وُضّاع الأقاصيص، وأصحاب الأساطير. ولكنهم متى علموا أَنهم أحياء يُرزقون، وأنهم أشخاصٌ: تغدو وتروح، وتنالُ نصيبها كلَّ يومٍ من طعام وشراب، وأنّ هٰذا النصيب عظيم جدًّا، وهو هَمُّها الأكبر في الحياة، وغايتها العُليا منها، وأن كل واحدٍ منها: عريضُ الوساد، ضخمُ القفا رَحَوِيُّ المعدة، آتونيّ المَصِير؛ تلتهمُ أجوافُها الصخور، وتأتي على ما في البُحور. تمشي في الأرض مَرحًا، ولا تعرف - دَهْرَها - كآبةً أو ترحًا.

وهي إن دخلت في نحوٍ أو لغةٍ أو أدبٍ فإنما تدخلُ لأجل ما تقدّم من نصيبها، وما يكفلُ لها إملاء معدها، وحاجَةَ أجوافها، يقينًا بأنّ كلّ ما في هٰذه الحياة وسيلةٌ إلى ذلك، وذريعةٌ إليه؛ اعتقادًا أن الطعام والشراب هما المثَل، وما يَجُرّان وراءهما من سِمَنٍ وشدّة لهازم هما المثل الأعلى، والغاية القصوى من زيارة هٰذه الأرض!

ولو أنصف الدهر، وما أَجْدَرنا منه أن يُنصفنا، لسوّغ لنا بعد أنْ هَزَزْنا إليه أعطافَ النائمين في هٰذه الأشباح، وأيقظنا من راقد شأنهم بدلالة الناس عليهم فبعثناهم على التفرّج بهم أنْ نحتكرهم بعض شهور، نجلُو كل واحدٍ منهم على

(١) كلمة غير ظاهرة.

منصّةٍ دون أن نحملهم على شيءٍ من الحركة إرضاءً لسجاياهم، ونزولًا عند هوى عاداتهم وفِطَرِهم: نَعْرِضُهمْ من كلّ أطرافهمْ على أنظار المتفرّجين، ونتقاضى من كل متفرّج أجْرًا، نحنُ أدْرى بمقداره، **لشدّة ما عانينا ونعاني في سبيلهم من جَهْدٍ وبلاء!**

والخلاصة: أنَّهم ما داموا يعركون في أديم هٰذه اللغة، فنحنُ مُبْتلون بهم، وهم مبتلون بنا، حتى يأذنَ الله، ويفيؤوا إلى الحقِّ بانصرافهم عن معاناتهم. وهناك يسقطُ البلاء، وتدبُّ العافية مَدَبَّها منهم ومنّا، وتلوحُ في الأفقِ المظلم بيننا وبينهم بوارقُ من السلامة التي طالما دعاهم إليها الحقُّ، وحملهم عليها الواجبُ، لو أجابوا الدعوة وأصْغَوا إلى الواجب».

المعاجم وأربابُها

«وأربابُ المعاجم - وجُلُّهم، بل حُذّاقهم نُحاةٌ صرفيون - لا يَرَوْنَ إباحةَ المُعجم إلّا لِمَنْ نظر في القواعد، وأحكم كثيرًا من حدود الصّرف السّمجة، فقد أَحْكَمُوا سَدَّها بوجوهِ مَنْ لا بَصَر لهم بقواعد اللغةِ نحوًا وصَرْفًا. فهم يذودونَ الناسَ عن العربيّة بما حَشَوْها من غُثاءٍ وتطويل، ويحولون دون وصولهم إلى المعجم.

وقد أشبهوا، بهٰذا، الحكومات التي تقيمُ السُّدودَ دونَ تعليم الأُمّة، وتُنزل أقصى العقوبة بمن يَجْهل قوانينها، فهي جانيةٌ معاقبة؛ ولكنّها تزهو وتفخر قائلة متبجّحةً: يجبُ على الأمّة تعلّم القانون كي لا تقع تحت طائلة القانون؛ لأن القانونَ من شأنه أن يحمي العالمينَ به!».

الاختيار من شعر المعاصرين

«**والعلة كل العلّة التوقّفُ عن إكبار ما يجبُ إكبارُه من شعر المعاصرين** أنّ الإجماع على المُتَخيّر من شعر الأقدمين لم يكن ارتجالًا أو ابْتُدِهَ ابتداهًا؛ بل تناولتْهُ القرائحُ دهرًا بعد دهرٍ، وأدّاهُ زمنٌ إلى زمن نَقْدًا وتشريحًا، حتى أجمعت العقول على

إعظامهِ مُصفّى، كلما فرغ منه ذهنٌ وَثبَ آخر؛ حتى سلمت له الخواطر مطمئنّةً، وقد أمِنَت من خدعة المُبَادهة، ودهشة المفاجأة».

نحاةُ اليوم

«وما أشْبَه نحاةَ اليوم بإبراهيم بن أَدهم، وقد آجرَ نفسه ناطورًا[1]، وجاء سيّده يريد رمّانًا حُلوًا من بستانه، فجاءه برمّان حامض؛ فأنكر عليه، وقال له: أَمِنْ هٰذا تأكل؟ قال: أنا حارسٌ، ولا يحلُّ لي أن أذوقَ ما ائتُمِنْتُ عليه. فعلم الرَّجلُ مقدارَ أمانته وأكْبَرهُ.

فهل يَحْسُنُ بِنا أن نُكْبِرَ المُتَناحِينَ[2] على أَمانتهم بأنهم ما ذاقوا ولا عَرفُوا شيئًا من النّحو، لأنّهم نواطيرُ أمناءُ؛ حَمَلُوا أنْفُسَهم على اللغة حَمْلًا، لعجزهم عن ذوْقِ ما ائتُمنوا عليه؛ فكان لهم ما أرادوا»[3].

قال الدكتور شاكر مصطفى قبل النص، وهو يستخلص من سيرة البِزم: «أليس هو الذي جمع النحاةَ جميعًا في قَرَنٍ واحدٍ ورمى بهم في جهنم؟»

ثم قال: «كان يأخذ عليهم جُمودهم ووقوفهم كالببغاوات أمام طلاسم النّحاة السّابقين دون أن يستخدموا عقولهم، ومنطق الفكر...»[4].

ارتباك النحاة والمفسّرين في: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهۡلَ قَرۡيَةٍ ٱسۡتَطۡعَمَآ أَهۡلَهَا﴾ [الكهف: ٧٧]، قال:

«لا سبيل إلى التردّد بأنّ المفسّرين جَبُنوا أمام كثيرٍ من آي الكتاب الكريم جَبانةً

---

(١) الخبر – وفيه طول – في ترجمة إبراهيم بن أدهم في مختصر ابن عساكر الجزء الأوّل.

(٢) تَناجَوْا: تَسارُّوا. [المعجم الوسيط]

(٣) من جذاذات محمَّد البِزم. وكانت مع مقدمة د.شاكر مصطفى على مقدمة البِزم لديوانه.

(٤) من مقالة خطية للدكتور شاكر مصطفى، تقدمة على مقدمة البِزم لديوانه. وهي جميعًا جُذاذات.

جلبت شرًّا مستطيرًا على اللغة عامّةً: لغةً ونحوًا وبلاغةً وهو ما سنعرض له في **مكانه من الجحيم.**

وهٰذه قصّة فيها بعض الشيء من أَسباب الأدواء المنتشرة في جسم فنون هٰذه اللغة:

[السيوطي] الأشباه والنظائر: كتب الصلاح الصفدي إلى الشيخ تقي الدين السّبكي يسأله عن الآية المتقدّمة:

أسـيّدنا قـاضي القـضاة ومَـنْ إذا ... بـدا وجْهُـه استحيى لـه القمـرانِ
ومَـنْ كَفُّـه يـومَ النـدى ويراعُـه ... عـلى طِرْسِـهِ بحـرانِ يلتقيـانِ
ومَنْ إنْ دَجَتْ في المُشكلاتِ مسائلٌ ... جَلاهـا بفكـرٍ دائـمِ اللّمعـانِ
رأيـتُ كتـابَ الله أكـبرَ مُعْجِـزٍ ... لأفـضل مَـنْ يُهـدى بـه الثّقـلانِ
ومن جملةِ الإعجاز كونُ اختصاره ... بإيجـاز ألفـاظٍ وبَـسْطِ معـانِ
ولكنني في «الكهف» أبصرتُ آيةً ... بها الفكرُ من حولِ الزّمان عناني
ومـا هـي إلا ﴿ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا﴾ فقـد ... نـرى «استطعماهم» مثلَـهُ ببيـانِ
فما الحكمةُ الغرّاءُ في وضعِ ظاهرٍ ... مكـانَ ضـميرٍ؟ إنّ ذاكَ لِـشَـانِ
فأرشـدْ على عاداتِ فضلكَ حَيْرَتِي ... فمـا لي بهٰـذا يـا إمـامُ يـدانِ!

فأجابه ما نَصُّه[1]:

الحَمْدُ لله. قَوْله تعالى: ﴿ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا﴾ [الكهف: ٧٧] مُتَعَيَّنٌ واجِبٌ. وَلَا يَجُوزُ مَكَانَهُ اسْتَطْعَمَاهُمْ، لِأَنَّ ﴿ٱسْتَطْعَمَآ﴾ صِفَةٌ لِلْقَرْيَةِ فِي مَحَلِّ خَفْضٍ جَارِيَةٌ على غَيْرِ مَنْ هِيَ لَهُ، كَقَوْلِك أَتَيْت أَهْلَ قَرْيَةٍ مُسْتَطْعِمٍ أَهْلَهَا. لَوْ حَذَفْت أَهْلَهَا هُنَا وَجَعَلْت مَكَانَهُ ضَمِيرًا لَمْ يَجُزْ، فَكَذَلِكَ هَذَا. وَلَا يَجُوزُ مِنْ جِهَةِ العَرَبِيَّةِ شَيْءٌ غَيْرُ ذَلِكَ إذَا جَعَلْت

(١) وهو بتمامه في فتاوى السبكي.

﴿ٱسۡتَطۡعَمَآ﴾ صِفَةً لِقَرْيَةٍ. وَجَعْلُهُ صفةً لِقَرْيَةٍ سَائِغٌ عَرَبِيٌّ لَا تَرُدُّهُ الصِّنَاعَةُ وَلَا المَعْنَى، بَلْ أَقُولُ إِنَّ المَعْنَى عَلَيْهِ.

أَمَّا كَوْنُ الصِّنَاعَةِ لَا تَرُدُّهُ فَلِأَنَّهُ لَيْسَ فِيهِ إِلَّا وَصْفُ نَكِرَةٍ بِجُمْلَةٍ كَمَا تُوصَفُ سَائِرُ النَّكِرَاتِ بِسَائِرِ الجُمَلِ. وَالتَّرْكِيبُ مُحْتَمِلٌ لِثَلَاثَةِ أَعَارِيبَ: أَحَدُهَا هَذَا، وَالثَّانِي أَنْ تَكُونَ الجُمْلَةُ فِي مَحَلِّ نَصْبٍ صِفَةً لِأَهْلِ، وَالثَّالِثُ أَنْ تَكُونَ الجُمْلَةُ جَوَابَ «إِذَا». وَالأَعَارِيبُ الْمُمْكِنَةُ مُنْحَصِرَةٌ فِي الثَّلَاثَةِ لَا رَابِعَ لَهَا. وعلى الثَّانِي وَالثَّالِثِ يَصِحُّ أَنْ يُقَالَ «اسْتَطْعَمَاهُمْ»، وَعلى الأَوَّلِ لا يَصِحُّ لِمَا قَدَّمْنَاهُ. فَمَنْ لَمْ يَتَأَمَّلِ الآيَةَ كَمَا تَأَمَّلْنَاهَا ظَنَّ أَنَّ الظَّاهِرَ وَقَعَ مَوْقِعَ الْمُضْمَرِ أَوْ نَحْوَ ذَلِكَ وَغَابَ عَنْهُ الْمَقْصُودُ. وَنَحْنُ بِحَمْدِ اللهِ وُفِّقْنَا لِلْمَقْصُودِ وَلَـمَحْنَا بِعَيْنِ الإِعْرَابِ الأَوَّلَ مِنْ جِهَةِ مَعْنَى الآيَةِ وَمَقْصُودِهَا.

وَأَنَّ الثَّانِي وَالثَّالِثَ وَإِنْ احتملهما التَّرْكِيبُ بَعِيدَانِ عَنْ مَعْنَاهَا. أَمَّا الثَّالِثُ وَهُوَ كَوْنُهُ جَوَابَ «إِذَا» فَلِأَنَّهُ يُصَيِّرُ الجُمْلَةَ الشَّرْطِيَّةَ مَعْنَاهَا الإِخْبَارُ بِاسْتِطْعَامِهِمَا عِنْدَ إِتْيَانِهِما وَأَنَّ ذَلِكَ تَمَامُ معنى الكَلَام، وَنُجِلُّ مِقْدَارَ مُوسَى وَالخَضِرِ - عَلَيْهِمَا السَّلَامُ - عَنْ تَجْرِيدِ قَصْدِهِمَا إِلى أَنْ يَكُونَ مُعْظَمُهُ أَوْ هُوَ طَلَبُ طُعْمَةٍ أو شيئًا مِنَ الأُمُورِ الدُّنْيَوِيَّةِ بَلْ كَانَ القَصْدُ مَا أَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَ اليَتِيمَانِ أَشَدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَإِظْهَارَ تِلْكَ العَجَائِبِ لِمُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - فَجَوَابُ «إِذَا» قَوْلُهُ: ﴿قَالَ لَوۡ شِئۡتَ﴾ [الكهف: ٧٧] إلى تَمَامِ الآيَة. وَأَمَّا الثَّانِي وَهُوَ كَوْنُهُ صفةً لِأَهْلِ فِي مَحَلِّ نَصْبٍ فَلَا يُصَيِّرُ العِنَايَةَ إلى شَرْحِ حَالِ الأَهْلِ مِنْ حَيْثُ هُمْ هُمْ، وَلَا يَكُونُ لِلْقَرْيَةِ أَثَرٌ فِي ذَلِك، وَنَحْنُ نَجِدُ بَقِيَّةَ الكَلَامِ مُشِيرًا إلى القَرْيَةِ نَفْسِهَا، أَلَا تَرَى إلى قَوْلِهِ: ﴿فَوَجَدَا فِيهَا﴾ [الكهف: ٧٧] وَلَمْ يَقُلْ: «عِنْدَهُمْ». وإِنَّ الجِدَارَ الَّذِي قُصِدَ إِصْلَاحُهُ وَحِفْظُهُ وَحِفْظُ مَا تَحْتَهُ جُزْءٌ مِنْ قَرْيَةٍ مَذْمُومٍ أَهْلُهَا، وَقَدْ تَقَدَّمَ مِنْهُمْ سُوءُ صَنِيعٍ مِنَ الآبَاءِ عَنْ حَقِّ الضَّيْفِ مَعَ بَيَانِ طَلَبِهِ، وَلِلْبِقَاعِ تَأْثِيرٌ فِي الطِّبَاع، وَكَانَتْ هَذِهِ القَرْيَةُ حَقِيقَةً بِالْإِفْسَادِ وَالْإِضَاعَةِ فَقُوبِلَتْ

بِالْإِصْلَاحِ بِمُجَرَّدِ الطَّاعَة، فَلَمْ يَقْصِدْ إِلَّا العَمَلَ الصَّالِحَ، وَلَا مُؤَاخَذَةَ بِفِعْلِ الأَهْلِ الَّذِينَ مِنْهُمْ غَادٍ وَرَائِح، فَلِذَلِكَ قُلْت: إِنَّ الجُمْلَةَ يَتَعَيَّنُ مِنْ جِهَةِ المَعْنَى جَعْلُهَا صِفَةً لِقَرْيَةٍ، وَيَجِبُ مَعَهَا الإِظْهَارُ دُونَ الإِضْمَارِ.

وَيَنْضَافُ إلى ذَلِكَ مِنْ الفَوَائِدِ أَنَّ «الأَهْلَ» الثَّانِي يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونُوا هُمُ الأَوَّلَ أَوْ غَيْرَهُمْ أَوْ مِنْهُمْ وَمِنْ غَيْرِهِمْ، وَالغَالِبُ أَنَّ مَنْ أَتَى قَرْيَةً لَا يَجِدُ جُمْلَةَ أَهْلِهَا دَفْعَةً، بَلْ يَقَعُ بَصَرُهُ أولًا على بَعْضِهِم، ثُمَّ قَدْ يَسْتَقْرِيهِم، فَلَعَلَّ هَذَيْنِ العَبْدَيْنِ الصَّالِحَيْنِ لَمَّا أَتَيَاهَا قَدَّرَ اللهُ لَهُمَا كَمَا يَظْهَرُ لَهُمَا مِنْ حُسْنِ صُنْعِهِ اسْتِقْرَاءَ جَمِيعِ أَهْلِهَا على التَّدْرِيجِ لِيُبَيِّنَ بِهِ كَمَالَ رَحْمَتِهِ وَعَدَمَ مُؤَاخَذَتِهِ بِسُوءِ صَنِيعِ بَعْضِ عِبَادِهِ.

وَلَوْ عَادَ الضَّمِيرُ فَقَالَ اسْتَطْعَمَاهُمْ تَعَيَّنَ أَنْ يَكُونَ المُرَادُ الأَوَّلَيْنِ لَا غَيْرُ، فَأَتَى بِالظَّاهِرِ إِشْعَارًا بِتَأْكِيدِ العُمُومِ فِيهِ وَأَنَّهُمَا لَمْ يَتْرُكَا أحدًا مِنْ أَهْلِهَا حتى اسْتَطْعَمَاهُ وَأَبَى، وَمَعَ ذَلِكَ قَابَلَاهُمْ بِأَحْسَنِ الجَزَاء. فانْظُرْ هَذِهِ المَعَانِيَ وَالأَسْرَارَ كَيْفَ غَابَتْ عَنْ كَثِيرٍ مِنْ المُفَسِّرِينَ وَاحْتَجَبَتْ حتى كَأَنَّهَا تَحْتَ الأَسْتَارِ حتى ادَّعَى بَعْضُهُمْ أَنْ ذَلِكَ تَأْكِيدٌ، وَادَّعَى بَعْضُهُمْ غَيْرَ ذَلِكَ، وَتَرَكَ كَثِيرٌ التَّعَرُّضَ لِذَلِكَ رَأْسًا. وَبَلَغَنِي عَنْ شَخْصٍ أَنَّهُ قَالَ: اجْتِمَاعُ الضَّمِيرَيْنِ فِي كَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ مُسْتَثْقَلٌ، فَلِذَلِكَ لَمْ يَقُلْ «اسْتَطْعَمَاهُمْ» هذَا شَيْءٌ لَمْ يَقُلْهُ أَحَدٌ مِنْ النُّحَاةِ وَلَا لَهُ دَلِيلٌ، وَالقُرْآنُ وَالكَلَامُ الفَصِيحُ مُمْتَلِئٌ بِخِلَافِهِ.

وَقَدْ قَالَ تَعَالى فِي بَقِيَّةِ الآيَةِ ﴿يُضَيِّفُوهُمَا﴾ [الكهف: ٧٧] وَقَالَ تَعَالى: ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ [التحريم: ١٠] وَقَالَ تَعَالى: «حَتَّى إذا جَاءَانَا» [الزخرف: ٣٨] فِي قِرَاءَةِ الحِرْمِيِّينَ وَابْنِ عَامِرٍ وَأَلْفُ مَوْضِعٍ هَكَذَا.

وَهَذَا القَوْلُ لَيْسَ بِشَيْءٍ. وَلَيْسَ هُوَ قَوْلًا حتى يُحْكَى، وَإِنَّمَا لَمَّا قِيلَ نَبَّهْت على رَدِّهِ. وَمِنْ تَمَامِ الكَلَامِ فِي ذَلِكَ أَنَّ ﴿اسْتَطْعَمَآ﴾ إِذَا جُعِلَ جَوَابًا فَهُوَ مُتَأَخِّرٌ عَنْ الإِتْيَانِ؛ وَإِذَا جُعِلَ صِفَةً احْتَمَلَ أَنْ يَكُونَ اتُّفِقَ قَبْلَ الإِتْيَانِ وَذُكِرَ تَعْرِيفًا وَتَنْبِيهًا على

أَنَّهُ لَمْ يَحْمِلْهُمَا على عَدَمِ الإِتْيَانِ لِقَصْدِ الخَيْرِ، وَقَوْلُهُ (فَوَجَدَا) مَعْطُوفٌ على (أَتَيَا).
وَكَتَبْته فِي لَيْلَةِ الثُّلَاثَاءِ ثَالِثِ ذِي القَعْدَةِ سَنَةَ خَمْسِينَ وَسَبْعِمِائَةٍ بِدِمَشْقَ.

تصعيب النحاة للنحو

«وليس أدلّ على الصعوبة التي يريدها النّحاةُ في النحو من أنَّهم أفردوا للبحث الواحد أو البحثين تأليفًا قائمًا بنفسه، كما صنع ابن كَيْسان المعاصر للزجّاج وابن السّراج المتوفى في رواية سنة ٣٢٠هـ؛ فإنه ألّف كتابًا في الفاعل والمفعول به». –عن ترجمته – معجم الأدباء ٦: ٢٨٠.

نَهْضَةُ اللّغة والأَدب

«لا تنهض هٰذه الأمّةُ في لغتها وأَدبها، وكثير من عَناصرِ حياتها **ما لم يشنّ العقلاء والعلماء منها الغارة على ما يزيد عن حاجة المتخرج والمتخصّص في اللغة وآدابها من كتابةٍ وشعرٍ وفُنون**، فيحرقون ويطرحون هٰذه الآثار الشائنة التي **أَسْأَرَتْها الشعوبية، وأَيدي الأعاجم**».

المنطق في اللغة

«لسنا نُنْكِرُ ما كان للمنطق، أو القليل منه، من الأثر الصالح في ضبط بعض نواحي اللغة وفنون لسانها؛ كما أنه ليس في وُسع أحدٍ أنْ يُنكرَ أنه أفسدها كلّ الفساد، وكاد أن يجعلها صناعة لا علاقة لها بلسان العرب إلّا من حيث التسمية!»

جعل الضرورات لغات

«وممّا أثقلوا به عاتق المعاجم، وكتب النحو، وكان غِلًّا في أعناق مَنْ يعاني النحو واللغة جَعْلُهُم الضّروراتِ – على كثرتها – لغات يُحَتّمون على المتعلّم أن يُلمّ بها، ويحفظها، وإن كان لا يحتاجُ إليها، ولا يستعملها، ولا يراها في كلامٍ إلّا ما جاؤوا به من غريب الشواهد، وموضوعها ممّا لا يعرّجُ عليه كاتب أو شاعر أو عالم.

من هٰذا إثباتُهم لـ(التي) الموصولة أربع لغات لم يُستعمل في جمهور كلام العربيّة إلا واحدة؛ أمّا **الثلاث اللغات الزائدة** فهي: «الّتّي» مشدّدة، و«اللّتِ» و«اللَّتْ مما لم [يرد] في كلامٍ فصيحٍ إلا ضرورةً، لو سألتَ عنها مرتكبها من الشعراء لأطْرَق خَجِلًا، ولم يكن له من عذر إلا أنّه بدويٌّ مُعْجَلٌ لا عهدَ لهُ بالإصلاح والتهذيب.

إنّ مَنْ قَلّد، من المُحْدَثين لم يُرِد إلا أن يَدُلّ على أنه عريقٌ بالعروبة دمًا ولغةً؛ وذلك كقول المتنبي:

لو لم تكنْ مِن ذا الوَرى اللّذْ منكَ هُو عقمتْ بمولدِ نسلها حَوّاءُ!

وأمثال المتنبي كثيرون. وقد يُلتمس لهم من العُذر أنّهم يجرون على سَنَنِ العرب في كل شيءٍ عُرِف للعرب في الشعر.

وليس كل طالب للعربية وقواعدها سيكون شاعرًا مرتفعًا إلى طبقة المتنبي وأمثاله».

رسالة البِزم إلى رئيس المجمع

وفي وثائق محمَّد البِزم رسالة بعث بها إلى رئيس المجمع العلمي العربي بعد تعيينه عضوًا عاملًا فيه، ونصّها:

إلى صاحب المعالي محمَّد كردعلي بك رئيس المجمع العلمي العربي المعظم

سلام عليكم، وبعد، فقد ورد عليَّ، وتناولتُه بيد الشاكر المُكْبِر كتابكم في ١١ المحرم ١٣٦١ المُشعر بما اشتمل عليه صدركم الكريم، وصدور الأعضاء كافّة من أريحيّةٍ ونُبْلِ مَهَزّةٍ حين أوليتموني ثقتكم بِعَدّي واحدًا منكم.

فأنا أحْمَدُ اللهَ إليكم على أنّي لستُ على شيءٍ من بأسِ أنْ أكون عند جميل ظنكم بي من النهوض بكلّ ما يدعوني إليه مجمعكم الجليل من ضروب العمل، ويراني أهلًا له من منازع القولِ ومجاولِه.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

محمَّد البِزم

٥- البِزم شاعراً - ديوانه

اطّلع د.سامي الدّهان على ديوان البِزم مخطوطًا، وهو يؤلف كتابه «الشعراء الأعلام في سورية» وعلى أوراقه التي كانت في مكتبة ابنه حسان، ثم زكّى طبع الديوان، واقترح ذلك على المجلس الأعلى للآداب والفنون والعلوم الاجتماعية. وكُلِّف الأستاذان سليم الزركلي وعدنان مردم بك «بطبعةٍ مُفَصَّلةٍ» كما وردَ في عبارة د.الدهان الذي كان مقرّر لجنة النشر في ذلك المجلس؛ (وكان هٰذا أيّام الوحدة مع مصر)، وصدر الديوان سنة ١٩٦١ في جزأين.

وظاهر أَن الطبعة لم تكن مُفَصّلة، وفات الفاضلَيْنِ المذكورين من عمل الديوان وصنعته أمورٌ كثيرة.

وقد قرأت كلامًا، وسمعت أيضًا عن طبعة الدِّيوان، وعن قصور صنعته، من وجوهٍ شتّى وقد ألمحتُ إلى شيء من هٰذا في مُقْدّمة الكتاب. وأكتفي بملاحظةٍ لإعلاميٍّ متأدّبٍ عَرف البِزم، وكتب عنه، ومما قاله في مقالةٍ له[1] بمناسبة نظم قصيدة البِزم «دمشق» إنه زاره أَوائل ١٩٤١ وحصل منه على نسخة منها بخطه. فلما أَصْدرَ العطري مجلته (الصّباح) نشر القصيدة في العدد الثاني، فغضب البِزم، واستردّها منه، وقال له: إنه لم يشرح القصيدة وإنه يريد أن يُخرج ديوانه، والقصيدة جديدة لم ترَ النُّور... ثم قال العطري: إن الدِّيوان **لم يُشرح الشرح الكافي، ولم يُشَرْ فيه**

(١) عبقريات شامية: عبد الغني العطري: ٤٩ - ٥١.

إلى مناسبات القصائد وتواريخها، ولم يقدّمْ شارحَا الديوان المرحومَ البِزم **إلى القارئ بأكثر من سطور قلائل** قبساها من كتاب (الأعلام) للأستاذ خير الدين الزركلي، كما نشرا في صدر الديوان **رسالة بخطه إلى الأستاذ أحمد عبيد لم يكن من المناسب أَن تنشر!**...الخ.

وهٰذا كلّه صحيح، ويُضاف إلى ذلك: **عدم دقّة نقل الديوان** من المخطوط إلى المطبوع، وإن كنتُ أدرك صعوبة ذلك العمل، لكنّهم قَبِلاه فكان لا بدّ من إتقانِه، وأن **الشرحَ كان عابرًا قليلًا جدًّا** بالقياس إلى ما يجب أن يكون، وأن بعض الشروح كان خَطأً صُراحًا.

وهناك شيء آخر ذو أهمية في صنعة الديوان، فإن البِزم كان كأكثر الشعراء يعيدُ النظر في قصيدته، ويُجري عليها من التعديل ما يأتلف – أخيرًا – مع منهجه وأُسلوبه.

وأضرب مثلًا لأوضح الفكرة، وأُنْصِفَ البِزم، وأبيّن ضرورة استيفاء مادّة العمل بالقدر الأعلى الممكن.

في أوراق الدكتور إبراهيم حقّي قطع من الشعر كانت في النّصوص الأدبية المقررة للدرس، وفيها واحدة للبِزم أنقلها هنا كما وردت في وثيقة د.حقّي، ثم أُثبتها كما وردت في الديوان.

١ – نص وثيقة د.حقّي[1]

الشاعر

١ – هـو أمّـةٌ مـن نفـسِه في جَحْفَـلٍ مـن قلبـهِ لا يَعْـرِف التَّـدجيلا

(١) أملى الأستاذ البِزم هٰذه القصيدة على طلابه يوم الأربعاء ١٧ تشرين الأول سنة ١٩٣٤ (من تأريخ د.حقّي).

٢ - لـو نـامَ عنه الحاسـدونَ لـراحَ مِـن ... هٰـذا الـورى في كـل جِيـلٍ جـيلا
٣ - يتربَّـصونَ بـهِ الـردى وقلـوبُهُمْ ... ملئـت - عـلى كُـرْهٍ لـه - تبجـيلا
٤ - يُزجي القـوارعَ كـالرجومِ صَـوائبًا ... مُهَـجَ الطغـاةِ حجـارةً سِـجّيلا
٥ - وإذا ترفّـق خلـتَ مـن ألفاظِـهِ التّـ ... ـــوْرَاةَ، والفرقـانَ والإنجـيلا
٦ - يزهـو عـلى الجَبَّـارِ في سُـلطانهِ ... بمـسوّماتٍ تحقـرُ التحجـيلا
٧ - طـربٌ بنـشوى الحـقِّ حتـى إنّـه ... يهـوى الـردى ويـسومُهُ التعجـيلا
٨ - إن أَرْجَلَتْـهُ الحادثـاتُ فقـد جلـتْ ... منـهُ عـلى طـول الحفـاء رجـيلا

٢ - نص الديوان المطبوع[1]: (وقد وضعت أرقامًا إلى جانب الأبيات مقارنة بنسخة د.حَقّي)

١ - هـو أمّـةٌ مـن نفـسِه في جَحْفَـلٍ ... مـن قلبـهِ، لا يَعْـرِف التَّـدجيلا
٤ - يُزجي القوارع كـالرّجوم صَـوائبًا ... مُهَـجَ الطغـاةِ، حجـارةً سِـجّيلا
٧ - طـربٌ بنـشوى الحـقِّ حتـى **أنّـه** ... يهـوى الـردى، ويـسومهُ التعجـيلا
٦ - يزهـو عـلى الجبَّـارِ في سـلطانهِ ... بمـسوّماتٍ تحقـرُ التّحجـيلا
٥ - وإذا ترفَّـقَ خلـتَ مـن ألفاظـهِ التْـ ... ـــتَوراةَ، والفُرقـان والإنجـيلا
٣ - يتربّـصون بـه الـرّدى وقلـوبهُمْ ... مُلئـت عـلى كُـرْهٍ لـه تبجـيلا
٢ - لـو نـامَ عنه الحاسـدونَ لـراحَ مـن ... هٰـذا الـورى في كـلّ جيـلٍ جـيلا!
٨ - إنْ أرجلتْـهُ الحادثـاتُ فقـد جلـتْ ... منـهُ عـلى طـول **الجفـاءِ** رجـيلا

- ونلاحظ في المطبوع (البيت ٣) حتى **أنّه**، والصواب في نص د.حَقّي.

(١) ديوان محمَّد البِزم ٢: ٧٥.

- ومن المطبوع (٨) على طول **الجفاء**. ولا معنى للجفاء هنا، والصواب في نص د.حقّي: الحَفا؛ ومدّ الشاعر الكلمة للضرورة فقال: الحفاء[١].
- ونلاحظ أن الترتيب مختلف، وسَلِمَ الأولُ والأخير.

والسّياق، هو لنص د.حقّي، باعتبار المعاني ومقاصد الكلام.

لقد فَوَّتَ الأُستاذان المحقّقان **على البِزم** أن يصدر ديوانه حَسنًا، مُتْقنًا، لائقًا **وعلى القارئ** أن يعرف مناسبات القصائد، والمخاطبين بها، أو المقصودين بكل واحدةٍ تكون لها قصّة أو يكون لها مناسبة... والشارحان كانا يعرفانه معرفةً جيّدة. وسليم الزركلي من تلاميذه.

وحمل أ. إسماعيل عبد الكريم على نشرة الكتاب حملةً شديدةً[٢].

على أنَّ الديوان يستحقّ أن يعاد تحقيقه ونشره وشرحُه، وتتميم ما يخصّ منه التحقيق العلميّ؛ وإن كان ذلك الآن بعد تلك المدّة يكلف جَهْدًا، ووقتًا، وصَبْرًا.

وأضرب أمثلة قليلة لتوضيح ما أجْمَلَهُ الباحثون والمعترضون؛ وهي جميعًا من قراءتي لشعره ورؤيتي:

١ - الديوان[٣]:

ثـــم أمـــسى لَعِـــبَ الـــدهرُ بـــهِ يُـــضْمِرُ **الوَجْـــدَ**، ويبـــدي اللّعبـــا

والصواب: يُضمِر **الجِدَّ**

٢ - وفي الديوان[٤] يخاطب «حليم دَمّوس» (والضبط حروفًا وحركات منه):

---

(١) الحفا: مصدر حَفِيَ يَحفَى: مشى بلا نَعْلٍ ولا خُفّ. و: حفيت القَدَمُ. و(الحافِرُ): رقّت من كثرة المشي.

(٢) شعر البِزم: إسماعيل عبد الكريم حسن: ١٠ - ١١.

(٣) ديوان البِزم ٢: ٢.

(٤) ديوان البِزم ٢: ٤٦.

زَجّ المثـاني وأحكـم مـن **مثالَتِهـا** ما سوف يَبْقَى **لباقي** الشعر ناموسا

والصواب:

.....مـن **مَثالِثْهـا** ما سوف يَبْقَى **لباغي** الشعر.....الخ

والإشارة واضحة إلى كتاب حليم دَمّوس: (المثالث والمثاني)، وكان استكتب البِزم، فأرسل إليه بقصيدةٍ وصورةٍ، هما ثابتتان في الكتاب المذكور[1].

٣ – وفي الديوان[2] قصيدة عنوانها (سَلْنِي) أولها:

سَـلِني تجـاوزتَ الأمَـدْ وهِجْـتَ بي وَقْـدَ الأمـد

وصواب العنوان، وأول البيت (**سلي**) وهو منادى مرخم من (سليم) والمخاطب بالشعر هو الأستاذ سليم الجندي.

٤ – في الديوان[3] قصيدة بعنوان: «ذهبت ذقنك مَرْشا»! أوّلها:

ذهبـتْ ذقنُـكَ مَرْشـا فـاحْتَكِمْ لي تُعْـطَ أَرْشـا

– قال شارحا الدّيوان: الأرش: الأرض التي إذا أُمطرتْ سالت سريعًا.

– وقالا: الأرش: الدية.

قلت: في مخطوطة الديوان؛ وبخط الشاعر البِزم ما نصه:

– **المَرْشُ**: التناول والعضُّ والقَرْصُ والحرش والحكّ.

– **والأرشُ**: ديةُ الجراحات.

---

(١) المثالث والمثاني، حليم دمّوس ١: ٢٢١.

(٢) ديوان البِزم ٢: ٤٩.

(٣) ديوان البِزم ٢: ٣٠ – ٣١.

وشرح في القصيدة مواضِعَ أُخر[1].

قلت: ولي كلام على (المَرْش) هنا، إضافةً إلى ما ذكره الشاعر، وهو صاحب النصّ؛ لأبيّن صلة العبارة بالخلفيّة الشعبية في تصوّر البِزم في عمله الفنّي.

٥ – في قصيدة شجرة التوت بيتان هما:

لكـنهم وهـمُ مَـنْ هـم وجُلُّهُـم ذو مَجْتِـدٍ بـالعُلا والنبـل مَلْتُـوتِ

إن ضـنَّ بعـض بـسحْتوتٍ فبَعـضهُم يوليكَ إن شئتَ فورًا ألف سُـحتوتِ!

وقال الشارحان: ١ – ملتوت: موثّق. ٢ – سُحتوت: الشيء القليل.

قلت: مَلْتُوت (مفعول) من: لَتّ السَّويقَ (وغيره): جَدَحَه بالماء، بَلّه، ولتّ السّويق بالسّمن: خلطه به.

وسُحتوت: قطعة معدنية نقدية ضئيلة القيمة. اندثرت من زمان؛ وبقيت دلالتُها في التراث الشعبي، وفي مصر يقولون في الفقير المدقع «أبو سحتوت».

وأوردها الشاعر لمعنى «النقد».

وديوان البِزم لم يضم شعره جميعًا، وقد أَوْردَ د.شاكر مصطفى نصين في مقالته عن البِزم ليستا في الديوان.

وتحدّث الشاعر عن القسم الذي استودعه والدته، فلما رجع إليها ليستردّه لم يجدوه. لقد ضاع قسم من شعر الصّبا. قال الدكتور الدهان معلقًا: «... وهكذا أضاع الرّجلُ شعره الأوّل، في مطلع الشباب بين العشرين والسادسة والعشرين، وخاصة ما جمعه خلال سنواته الثلاث (حين كان يخدم في سلك التجنيد) **فأضاع علينا فرصةً عظيمةً في دراسة بواكيره**، ومعرفة اتجاهاته، وتحليل أغراضه[2].

---

(١) أستوفيها إن شاء الله تعالى في شرحي – الذي شرعتُ فيه – على الدّيوان.

(٢) الشعراء الأعلام في سورية: ٣٧ – ٣٨.

ويبدو أن البِزم **أَجْبَل في مدة من حياته** فقلّ شعره أو انقطع عن النظم، وذلك قولُه[1]:

يُعيّرني في تركيَ الشعرَ أَخْرقٌ ويُزْعَم بي عن دَرْكِ غايتِهِ عَجْزُ

وللقصيدة خبرٌ ذكره فخري البارودي في كتابه «تاريخ يتكلم» وقد أشرتُ إليه في هٰذا الكتاب[2].

وهناك شعر للبِزم لم يُنشر في ديوانه، منه ثلاث قصائد صدرت في مجلة الميزان، تُسْتَدرك عليه.

ويبدو أنّ حادثة قصيدة المعرّي وانقطاع إلقائها في مهرجانه قد أثّرت في محمَّد البِزم، ونوى-كما قال-أن يعتزل الشّعر قاصدًا، ردًّا على ما عَدّه إهانةً أو انتقاصًا، ولكنه عاد إلى الشّعر بقوة ليرثي شكيب أرسلان[3]:

آليْتُ بعد أبي العلاءِ ويَوْمِهِ ألَّا أشيمَ معَ الغُواةِ غِراري[4]
ولويْتُ ألويةَ القريض إلى التي لا بُدَّ مُنزلتي بدار بَوارِ
حتى أتى النبأ المريعُ وزعزعَتْ بُرَحَاؤهُ من كلِّ ذاتِ قرارِ
جَرّدْتُه قلمًا أراد له العِدا نَوْمًا فما متّعْتُهُ بِقَرارِ

ونستطيع - بالاستناد إلى بعض الأخبار والقرائن - أنْ نقول إن البزم كانت تمرّ به أَحوالٌ تقطعه عن النظم، أو تصرفه (ولو مؤقّتًا) عنه.

---

(١) ديوان البِزم ١: ٢٩٤.

(٢) تاريخ يتكلم - فخري البارودي: ٩٧ - ٩٨.

(٣) ديوان البِزم ١: ١٦٤ - ١٦٥.

(٤) الغِرار: حدّ السيف (ونَحوِه). وشام (البَرْق) تطلع إليه ينظر أين يكون مطره. جعل السيف اللامع كالبرق. يقول كان قد عزم بعد حادثة قصيدة المعري أن يعزف عن النظم... لكنْ...

عناوين الديوان وإحصائيات

طبع ديوان البِزم في جُزأين: الأول في ٣٥٠ صفحة والثاني في نحو ١٧٠ صفحة، مع فهرسين لعناوين القصائد وقوافي الأبيات.

وقُسِمت قصائد الجزء الأول على خمسة عَناوين:

١- الوطن العربي (من ١ إلى ٦٦): ٧٣٣ بيتًا.

٢- الإلٰـهيّات (من ٦٩ إلى ٨٠): ١٣٢ بيتًا.

٣- الرثاء (من ٨٣ إلى ١٧٢): ١٠٩٩ بيتًا.

٤- الأدب (من ١٧٥ إلى ٢٣٨): ٦٧٦ بيتًا.

٥- القوميّات (من ٢٤١ إلى ٣٤٧): ١١٦٤ بيتًا.

وقُسِمَت قصائدُ ومقطعاتُ الجزء الثاني على عُنوانين:

١- متفرّقات (من ١ إلى ٧٩): ٦٦٩ بيتًا.

٢- أغاريد (من ٨٠ إلى ١٧٣) ٥٧٨ بيتًا.

- ومن الأغاريد نتف (من ١٦٠ إلى ١٧٢): ٤٦ بيتًا.

البحر	عدد القصائد			النسبة
	الجزء الأول	الجزء الثاني	المجموع	
- الطويل	١٧	٢٥	٤٢	٪٢٢.٥٨
- البسيط	٨	٣٢	٤٠	٪٢١.٥١
- الوافر	٢	٥	٧	٪٣.٧٦

البحر	عدد القصائد			
	الجزء الأول	الجزء الثاني	المجموع	النسبة
- الكامل	١٧	٢١	٣٨	٪٢٠.٤٣
- مجزوء الكامل	٢	٨	١٠	٪٥.٣٨
- الرجز	٤	٤	٨	٪٤.٣٠
- مجزوء الرّجز	١	٤	٥	٪٢.٦٩
- مشطور الرجز	-	٧	٧	٪٣.٧٦
- الرّمَل	٨	٤	١٢	٪٦.٤٥
- مجزوء الرمل	-	٢٣	٢٣	٪١٢.٣٧
- السريع	١	٣	٤	٪٢.١٥
- الخفيف	٢	١١	١٣	٪٦.٩٩
- المتقارب	٤	٦	١٠	٪٥.٣٨
- مجزوء المتدارك	١	-	١	٪٠.٥٤
- متداخلة الوزن	١	-	١	٪٠.٥٤
	مجموع عدد القصائد		٢٢١	

مُقَدّمة الدّيوان

في جُملة ما اعْتَنى به البِزم لطبعةِ ديوانه الموعودة مجموعةٌ من الآراء النّقدية في الشعر وصنعته، وما يتعلّق بهٰذا الفن... وقد جاءت هٰذه المقدمة، في قصاصات صغيرة، مكتوبة في أوقات مختلفة، غير مرتّبة... وما ندري أكتملت، وأفرغ فيها الشاعر رُؤيته لفن الشعر وصنعته أم أَنَّ الظروف المختلفة الكثيرة صرفته عن ذلك.

وقد أتيح لهٰذه المقدّمة أن ينسقها، ويدرّجها على ترتيب منطقي، أو مقبول، أحد تلامذة البِزم: الدكتور شاكر مصطفى.

وبعد أَن أَنْجز هٰذه المهمة كتب مقدّمةً من عند نفسه على مقدّمة البِزم، ولنا كلام عليها في مكان آخر.

ومقدّمة البِزم تدور حول شعره هو في جانب، والشعر العربي وجمالياته في جانب، وآراء لنقاد وشعراء ناقشَها في جانب آخر. وتوقف على عادته – في شعره ونثره – عند قضية شغلته طويلًا: في الشعر، والشاعر... ولم يغفل عن مهاجمة الشعر الضعيف وأصحابه (وهٰذا رأيه في ديوانه في مناسبات متعدّدة).

على أنّ فيها ملاحظات بالغة الأهميّة تفسّر تأخّره في نشر ديوانه – أو تضع أسبابًا من أسباب – وهو، هنا، يتحدّث بمنطق واقعي، ومن وراء ملامح اجتماعيّة. ونجده يعيدُ النظر في بعض شعره الذي صدر عنه (أو فَرَط منه). وهٰذه الملاحظات تفيد في إعادة تقويم شخصية البِزم: الرجل الاجتماعي المتوازن الذي يضع «الفن» في

موضعه، وهو لا حدود له، ويضعه أيضًا في إطاره الاجتماعيّ والأخلاقي.

قال محمَّد البِزم في صدر خَواطره التي نثرها لتكون مادّة مقدمة ديوانه ما نَصُّه:

«لّما دَفعتني الفِكَرُ إلى تهييء هٰذا الديوان للطبع، وأخذتُ أتلمّسُ عناصره، وأجمع أشتاته، وجَدْتُني أمام أقسامٍ ثلاثة:

- **المطبوع**: وأكثرُه بين يَديّ.
- **والثاني**: وهو قصائدُ، وقطعٌ، قيلت في فتراتٍ مختلفة، ودواعٍ متباينةٍ؛ **فأنا أردّد فيها النظر** بين الحين والحين؛ فأهمُّ بنشرها، ثم أُنسئ[1] لقلة الحافز، وضعف المناسبة أو فقدها.
- **وثالثٌ**[2]: كانت تقضي الأحوالُ بادّخاره، والتكَتُّمِ فيه:
  - **إمّا لقسوةٍ فيه**[3].
  - **أو: لا يصلحُ لزمانٍ دون آخر.**
  - **أو: لأنه يمثل من نزوات النفس ما [لا يَجْمُل].**
  - **أو: لأمور ليس كلّها يَحْسُنُ ذِكره.**

وهٰذا يكادُ يكونُ بجملتهِ مفقودًا من الذاكرة؛ كأنّها يدٌ مع الزّمن [لَهُ عليَّ] فهي لا تريدُ له حياةً، ولا بعثًا، كأنها وقعَتْ على القرارةِ من نفسي.

---

(١) الكلمة في الأصل (وهو مسودة كما سلف الحديث): أَنسى، وإذا أدخلنا صنيعه في التسويد السريع في النظر، احتملنا أن يكون ترك الهمزة من الكلمة، فتكون (أُنسئ) بمعنى أُرجئ وأؤخر. وهٰذه القراءة عندي هي سياقُ كلام البِزم.

(٢) و«ثالث» هكذا بالتنكير. فتكون الواو استئنافًا.

(٣) هكذا وردت.

ولعل في هٰذا من الخَيْرِ ما جنح إليه البحتريُّ وأَضرَابُهُ من إتلافِ كثيرٍ من شعرهم **إبقاءً على أَبنائهم من بعدهم**، من أَن يعيشوا في بقيّةِ سَلَفٍ تغلي صُدروهم[١] بعداوةِ آبائهم، يُكادُ[٢] بهم انتقامًا من أولئك الآباء، فيكيدونَ له بما يصيبُ من شرح [صُدور]، وكفكفةِ غروب[٣]، وترقيق حاشية[٤]».

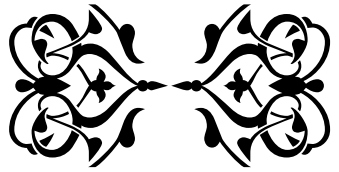

(١) غلى - (يغلي) من غلت القدر: فارت وطفحت بقوة الحرارة. ونقلت مجازًا فقيل على صدر الرجل: اشتدّ غيظه. ومن هٰذا في المعنى قول الشاعر: ربّ من أنضجْتُ غيظًا قَلْبَهُ.

(٢) من كاد - يكيدُ: كاد له: أراده بسوء.

(٣) الغُروب جمع غَرْب؛ وهو: الدمع. وكفكفَ دمعه: مسحه مرة بعد مرّةٍ ليجفّ.

(٤) الحاشية من كل شيء: جانبه وطرفه. وكلام رقيق الحواشي: ليّن. ورجل رقيق الحواشي: لطيف الصّحبة. ومن جهة أخرى، الحشا ما دون الحجاب الحاجز وجمعه أحشاء. وأراد الشاعر بترقيق الحاشية: تلطيف ما في الجوف (+النفس) من حرارة الغيظ وما شابه.

- وكلمة (صدور) لم تظهر بطمس حبر على الجذاذة. وهي مقدّرةٌ منّي.

٦- محمَّد البِزم معلّماً

في تلخيصٍ حَسنٍ لا يخلو من الطرافة والجدّة، ولا يقصِّرُ عن وصف حال البِزم مع مهنة التعليم التي أُلجئَ إليها، كما قال أكثرُ من واحدٍ ممّن تحدّث عنه من تلاميذه، أو عارفيه قال أ.القاسمي[١]:

«**ظَفِرَ به مكتبُ عنبر أُستاذًا للغة العربيّة**... وكنّا من أوائل مَنْ أَخذ عنه. إني لأذكرُ ساعاتِه الأُولى في هٰذه الأيّام، وأستعيدُ صُوَرها، فأرى أننا لقينا رجلًا عجيبًا فريدًا: لو قلت عنه إنه **أستاذ** لما عدوت الصواب، ولو وصفته بأنه كان في قاعة الدرس **محدّثًا** لكان الوصفُ صادقًا، ولو حسِبْتَ الدرسَ **ندوةً** للفوائدِ والطرائف لكان حُسبانك صحيحًا...»...

... «... كان التعليم عنده «مَرْكَبًا من الأَسنّة»، ولكنّه كان مضطّرًا «فلم تكن له حيلةٌ إلا ركوبُها». وما أظنّ أنه قد أَلِفَهُ كما ينبغي أن تكون الأُلفة إلى أواخر أيامه فيه. **وقد أدى رسالته على طريقته**؛ فبلغَ الغايةَ التي ليس بعدها غاية، وأدرك مناهُ على النّحو الذي يُحِبُّه ويرضاه»[٢].

في لقائي المطوّل مع د.إبراهيم حقي اطلعت على **دفاتر مدرسيّة منظمة تنظيمًا**

---

(١) مكتب عنبر: ٥٤.

(٢) مكتب عنبر: ٥٥.

شديدًا، ناصعة متقنة كأنّها كتبت مِنْ أيّامٍ قليلة، وفيها نماذج وملخّصات، ومبادئ، ونصوص شعريّة، وأمثال عربيّة، وفوائد. وقد تفضّل فصور لي من تلك الدفاتر نماذج تقدّمُ بيانًا واضحًا لطرائق محمَّد البِزم في التعليم، وللموادّ التعليميّة التي كان يقدمّها. وهٰذه الدفاتر جميعًا كانت من العام الدراسي ١٩٣٤-١٩٣٥. وهي تعلّل ذلك الإعجاب بهٰذا المعلم الأستاذ، والاستجابة له في دروسه... وقد نتج عن هٰذا وما يكمّله طلبةٌ مُتقنون للّغةِ، بارعون في الحديث بها والكتابة. وسأقدّمُ أمثلةً بحسب ورودها في كل مجموعة.

المجموعة الأولى: فوائد عامّة (مرتبة كترتيب أحرف اللغة العربية)

١- إذا أطلقت العرب المصدر؛ فإما أن تريد منه حقيقته، وذلك كثير، وإمّا أن تريدَ منه اسم فاعل أو اسم مفعول، لا تفرّقُ بين إفرادٍ وثنيّةٍ وجمع أو تأنيث وتذكير، تقول هٰذا مدمعٌ سَكْبٌ أي منسكب، وهٰذا رجل عَدْلٌ أي عادل، وامرأة عدلٌ أي عادلة.

٢- الاستفهام في كلام العرب **حقيقي**، وهو طلبُ المعرفة، **وإنكاري** ولا يفيدُ إلّا النفي، مثل:

وهــل أنــا إلّا مــن غَزِيّــةَ إنْ غَــوَتْ غَوَيْــتُ وإن ترشُــدْ غزيَّــةُ أَرْشُــدِ

المجموعة الثانية: (أُصول)

١- الأصل في الحال أن يكون نكرةً، ويغلبُ فيه الاشتقاق. فإن اعْتَرَضَنا ما يوهم التعريف ردّ إلى التنكير بتفسيره؛ كـ: **جاء التّلميذُ وحده**؛ أي: منفردًا. وحقيقة الحال أنه نعتٌ لمعرفةٍ؛ خالفها بالتنكير فعوقبَ بالنصب. وقد يجيء من نكرة.

- قال قطريّ بن الفجاءة:

لا يَـــرْكَنَنْ أحـــدٌ إلى الإحجـــامِ يـــومَ الـــوغى متخوّفًـــا لِحِـــمَامِ

٢- الأصل في المبتدأ أن يكون معرفة، وفي الخبر أن يكون نكرة. فإن ساواه الخَبرُ في ذلك نُظِرَ في مقصد المتكلم. وكذلك الشأنُ عند استوائهما في التنكير، كقول أبي العلاء:

غـــير مُجْـــدٍ في مِلّتـــي واعتقـــادي نَـــوْحُ بـــاكٍ ولا تَـــرَنُّمُ شـــادِ

[وكتب عند عبارة: الأصل في المبتدأ أن يكون معرفة]: «لأن المُخبر إنّما يُخبرُ عن معلوم بمجهول؛ تقول: (محمَّد كاتب) فـ(محمَّد) معروف عند المخاطب، ولكنّك تخبره عن اتّصافه بالكتابة لأنّها مجهولةٌ عنده.

كُلّيات

١- كلّ اسم فاعل يعمل عمل المضارع.

٢- كل ألف ولام في اسم مشتقّ هي اسم موصول بمعنى: الذي.

٣- كل جملةٍ وَلِيَتْ ظرفًا فهي في محل جرّ مضافٍ إليه.

٤- كل ظرفٍ أُشْرِبَ معنى الشرط فمتعلّقهُ جوابُه.

٥- كل عَلَمٍ وَلِيَتْهُ (ابن) عطفُ بيان حُذِف التنوين منه تخفيضًا[1]، وألف (ابن) خَطًّا ولفْظًا.

المعجم النّحوي

١- «أَبى» بمعنى: لم يَرْضَ؛ ومثلُه: عافَ؛ إذا وَلِيَتْهُ: (إلّا) كان أداة حصر؛ لأن قولك: «أَبَيْتَ إلا كرمًا» معناه: لم تَرْضَ إلا كَرمًا.

(١) كذا في أَصل الدكتور حقّي، وكأنها «تخفيفًا». والخطأ هو تحريفُ النَّقل عن الأَصل.

٢- «اثنا عشر» نجا صَدْرُه من البناء، وعَلِق عَجُزه. ولكنَّهُ كُتبتْ له النَّجاةُ تمامًا من المخالفة[١] تقول: جاءني اثنا عشرَ رَجُلًا، ومررْتُ باثنتي عشرةَ امرأةً.

٣- «بضع» شأنُها شأنُ (ثلاث) مع المذكر و(ثلاثة) مع المؤنّث؛ وكذلك هي في التركيب. تقول: قابلني بِضْعَ عَشْرَةَ امرأةً، ومررتُ ببضعةَ عشرَ رَجُلًا.

- [قلت، وإنما سماه المعجم النحوي لأن قضاياه مرتبة على الحروف الهجائية: أ، ب، ت... الخ].

المُعجم اللّغوي

١-**أَبِثَ**: سَكِرَ من كثرة الغِذاء.

٢-**أَبْطَح**: ما يجرفُه السيلُ بمائه، مؤنَّثُه: بَطْحاء. الجمع أَباطح. والأبطح أيضًا اسم مكان في الحجاز.

٣-**أجدل**: من الطيور الجوارح: الجمع: أَجادل.

٤-**أَحْجَم**: ضد أَقْبَل: امتنع.

٥-**أشاح**: أَعْرَضَ.

٦-**أَعْيَا**: أعيانيَ الأَمْرُ: إذا تَعذّر، وامْتَنع، وصَعُب.

٧-**أَمَم**: الأَمَمُ: الكَتَبُ؛ والكَتَبُ: القُرْب.

..... الخ.

(١) يعني مخالفة المعدود.

الخطأ والصواب

الخطأ	الصواب
١ - احْتارَ	حارَ يحارُ؛ وتَحَيَّرَ يَتَحَيَّرُ

- وقد وقع في هٰذا الخطأ معروف الرّصافي الشاعر العراقي، فقد قال في قصيدة له:

لقد حار فِكري في ذويك وإنّه **ليَحْتارُ** في مثوى ذويك أُولو الفِكْرِ

٢ - أسياد (جمع سيد أو سائد)	سَادة، وسادات، وسيايد.
٣ - اعْتَاشَ	تَعيّش، وتكسّبَ، واحتال في طلب الرزق

أَبحاث ملحقة بكتاب القواعد، وشواهد

في فهرس هٰذه المجموعة عشر قضايا، ومجموع الشواهد ٢٠٠ مئتا بيت، مع ذكر مكان الشاهد في كل بيت.

العامل والمعمول

كلام العرب قسمان: **عامل ومعمول**: فكل كلمة غادرَتْ أثرًا في أخْتِها من رفعٍ أو نصبٍ أو جرٍّ أو سكون لفظًا أو محلًّا، أو تقديرًا فهي **عاملة**، والمتأثرة **معمولة**. و**العمل** هو ذلك الأثر.

والعامل قسمان: **لفظي** وهو ما نراه ونتلفّظُ به مثل حروف الجر، والنواصب، والأفعال، والمميّز[١] والمضاف[٢]. **ومعنوي**: وليس له إلا موطنان: الابتداء في

---

(١) المميّز هو الاسم المُبهم الذي يفسّره التمييز، فينصبه، فهو ينصب المميّز. والمميّز يفسّره. كقولك: «رأيت عشرينَ رجلًا»، و:«اشتريتُ رطلًا زيتًا»، فكلٌّ من «رجل» و«زيت» مفسّر ومعمول.

(٢) هو الذي يجرُّ المضاف إليه، فَيُحدِثُ فيه الكسرة، كما يفعل حرف الجرِّ كقولك: «هٰذا دفترُ التلميذ» و«شجرة التفاح» الأول عامل، والثاني معمول.

الأسماء والتجرّد في المضارع.

وكثيرًا ما تكونُ اللفظة عاملةً، ومعمولةً[1] مثل اسم الفاعل، والمضاف، وغيرهما. وقد تحلُّ الجملةُ محل المفرد فنشتق منها مفردًا يتحملُ حركةً تدلُّ على العمل[2]، ومن هنا يتبيّنُ لنا السببُ في وجوب فتح همزة **أَنّ** عند تَسَلُّط العامل عليها.

إنشاء

في المنتخبات التي قدّمها د.إبراهيم حقي لي: عناوين لموضوعات إنشاء كان اقترحها محمَّد البِزم على طلّابه. وهي قسمان قسمٌ: يقدّم الأستاذ له ويبيّن لهم ملامح عامة يمكن أن يفيدوا منها، وقسم: تجري كتابته ومناقشته في أثناء الدرس في الصف (نشاط صفّي).

فمن الموضوعات المنزليّة: **عمر بن الخطاب** رضي الله عنه[3]، و**الطفل، والأستاذ، والجمال، والشاعر، والعرب وأسماؤهم**: «هل كان للعرب أغراض في أسمائهم، مغلغلة تهنئة[4]، رسالة **تأنيب وعتاب، الحجّاج**: ما رأيك في الحجّاج؟، **وصف دار**».

ملاحظة: من شروط وظيفة الإنشاء ضبط أواخر الكلمات في الوظيفة. وأَسْردُ هنا ما ذكره د.حقّي تحت عنوان «**الأستاذ**». وقد نوقشت يوم الأربعاء ٢٥ تشرين

---

(١) وذلك مثل اسم الفاعل من قولك: «رأيتُ الراكبَ فَرسَهُ» و«هلال الشهر» فكلٌّ من «راكب» و«هلال» معمولٌ لِمَا تقدّمه، عاملٌ في ما بعده. ومن الكلام ما يكونُ لا عاملًا ولا معمولًا، وهو الحروف غيرُ العاملةِ مثل: «هل» و«همزة الاستفهام» و«فاء الاستئناف»، وغير ذلك.

(٢) وذلك كقولك: «انتبهتُ حين طلعت الشمس» أي: حين طلوعها. و:«رأيتُ تلميذًا يحملُ دَفْتَرَهُ» أي: حاملًا دفتره.

(٣) كان محمَّد البِزم شديد الإعجاب بشخصية سيدنا عمر رضي الله عنه، كثير الكلام عنه، والاستشهاد بأخباره.

(٤) المغلغلة: الرسالة.

الأول سنة ١٩٣٥:

- هل وددتَ قطّ أن تكونَ أستاذًا؟.... ولماذا؟
- أيّ الفنون أحبّ إليك تدريسُه؟.... ولماذا؟
- **هل ترى في حياة الأستاذ ما يحملُ على الغِبْطة؟**

وتحت هٰذه المقدمات، جاء النص الآتي، وهو من إنشاء الأستاذ محمَّد البِزم: وفيه:

«على الأساتذة تتوقّفُ حياة البلاد، فَهُمُ الذين يبثّون في عروق تلاميذهم **روح الصّدق والأمانة، روح محبّة الوطن والإخلاص له، والتضحية في سبيله**؛ ويَهيّئونهم **ليكونوا في مستقبلهم أسودًا ضواريًا**» لا يأبهون الموت، ولا أسباب المنون؛ لفائدةِ أُمّتهم ووطنهم: اللّذينِ هما أعزُّ شيءٍ لدى كلّ إنسان، كنتُ وما أزالُ اخْتَلِسُ الفُرَص السانحة لمحادثة أستاذٍ من أساتذتي فأستفيدَ منه، وأدرسَ هٰذه **الشخصية العظيمة كما أعتقد**، وأودُّ أن أكونَ مثله فأُفيدَ الطُّلّاب، وأُلاطِفَهُمْ وأُحْسِنَ إليهم كيما يتعودوا الجرأةَ، ويستحسنوها. **وأعلمهم لغتهم العربيّة التي هي أحسن شيء عندي**: بأسلوبٍ حسن، فأجعل لسانَهم طليقًا بها، حاذقين بكل فروعها **ليتذكروا زمن أجدادنا العرب** القدماء ويروا بأيّ حالٍ هم؛ لإنقاذه من نير الظلم والاستعباد. كل هٰذا يتوقف على الأستاذ. وقد أصابَ مَنْ قال ما معناه: إِني أحبّ أُستاذي أكثرَ من والدي؛ فوالدي قد أتى بي لهٰذا المجتمع، أمّا أُستاذي فقد عَلّمني وهذّبني لأكونَ عضوًا عاملًا فيه:

وأُحبُّ أُستاذي كما هو والدي ... لكنّما الأُستاذ أصْبَحَ أعْظَما[1]

أستاذي المحبوب علّمني وقد ... ضحّى لأجليَ نفسَهُ ثم الدِّما[2]

---

(١) في الأصل: ولكنّما.

(٢) في الأصل: فأستاذي المحبوب...(حذفتُ الفاء لأنّها إدراجٌ من «الطّالب». ووجودُ الفاء في الشّطر =

– وكان محمَّد البِزم يقدّم لطلابه عناصر للموضوع الإنشائي الذي يكلفهم به. ومن ذلك موضوع عنوانه: «**الجَمال**» وسؤاله الرئيسي: «هل الجمال نعمة يُغبط عليها صاحبُها؟ أم ماذا؟» وعناصره أبيات مختارةٌ من الشعر: وهي:

قال المتنبي:

ممّـــا أضرّ بأهـــل العـــشقِ أنّهُـــمُ ... هَـووا ومـا عَرفـوا الـدنيا ومـا فَطِنـوا

تفنـــى عيـــونهمُ دمعًـــا وأنفـــسهمْ ... في إثْـرِ كـلّ قبـيحٍ وجهـهُ حَـسَنُ

وله:

ومـا الحسنُ في وَجْـهِ الفتى شرفٌ لـه ... إذا لم يكـــنْ في فِعْلِـــهِ والخلائـــقِ

وله:

تحمَّلُـــوا حملـــتكمْ كـــلُّ ناجِيَـــةٍ ... لكـــلّ بـــينٍ عـــليَّ اليَـــوْمَ مـــؤتَمَنِ

ما في هوادجكم عـن مُهجتي عِـوَضٌ ... إن مـــتُّ شـــوقًا ولا فيهـــا لهـــا ثَمـــنُ

وقال المعرّي:

إذا كـــان في لُـــبْسِ الفتـــى شَرفٌ لـــهُ ... فـــما الـــسَّيْفُ إلا غِمْـــدُهُ والحمائِـــلُ

ولآخر:

لـو كنـتُ أجهـلُ مـا علمـتُ لـسَرّني ... جهـلي كـما قـد سـاءني مـا أَعْلَـمُ

كالـصّعْـوِ يـرتعُ في الـرياضِ وإنمـا ... حُـــبِسَ الهـــزارُ لأنّـــهُ يَـــتَرنّمُ

ولآخر:

وطنـي الـذي سـحَر العقـولَ فـسِحْرُهُ ... حَـــسنٌ لـــديّ: حرامـــهُ وحَلالُـــهُ

= يجعله من بحر الطّويل. وحذفها يبقيه من بحر الكامل، كسائر أشطار الشعر المذكور)، وكأن الشعر للبِزم نفسه. وليس في ديوانه.

فجمالُــه جلــبَ العــداةَ لــساحهِ والــشّيءُ قــد يجنــي عليــه جمالُــهُ!

وقد تركَ الأستاذ لتلاميذه أنْ ينظروا في هٰذه «العناصر» التي يمكن أن يُبنى منها موضوع، بل موضوعات شتى، في مَعْنَى الجمال بين ملامحه الإيجابية، والأُخرى السَّلبيّة؛ وفتح لهم الباب لكي يمرّنوا أقلامهم ويضيفوا من الشعر إلى محفوظهم، ويقيموا محاكمة منطقيّة في اختيار موقف ما من قضيّة الجمال...

ومن هٰذا، وما يُشْبهُ يَرْقَى الدّارس، ويتمكن من اللغة، وتنفتح له أبواب الكلام، والحوار...

قصائد

القصائد المختارة في كراسة خاصة بالشعر ٣٧ سبع وثلاثون، ومجموع أبياتها ٥٦٠ خمس مئة وستون بيتًا. وعناوين النماذج التي انتقاها لي د.حقي بعناوين «الشّاعر» لمحمَّد البِزم و«الشّعر»، له أيضًا، و«الشّعر» نصّ لابن رشيق القيرواني، و«محن الدهر» و«الشاعر» لمحمَّد البِزم، وقصة في شعر، له.

وفي قصيدة ابن رشيق:

الــــشّعرُ شيءٌ حَــــسنٌ لــيسَ لــه مــن حَــرَجِ
أقــلُّ مــا فيــهِ ذهــا ... بُ الهمِّ عن قلبِ الشّجِي[1]

استظهار

ونصوص الاستظهار كانت: **لأبي الطيب المتنبي** «كفى بك داءً...»، و**لأبي العلاء المعرّي**: «في مدح سيدنا رسول الله ﷺ»، و**لأبي الحسن الجرجاني**: «يقولون لي فيك انقباض...»، و**لمالك بن الريب**: «ألا ليت شعري هل أبيتنّ ليلةً...»، و**لأبي**

(١) الشجيّ مَنْ شجاه (أَحزنه) الهمّ وغيرُه. ويكثر ذكر الشّجْو والشجن في أشعار المحبين.

الطيب المتنبي من قصيدته في شعب بَوّان.

واختار للجرجاني أبياتًا من قصيدته المشهورة:

يقولـــون لي: فيـــكَ انقبـــاضٌ وإنّـــما رأوا رَجُـلًا عـن موقـف الـذلّ أحْجَـما
أرى الناس مَـنْ دانـاهُم هـانَ عنـدهُمْ ومَـــنْ أَكرمَتْـــهُ عِـــزّةُ الـــنّفس أُكرمـــا
إذا قيـل هٰـذا مـشربٌ قلـت: قـد أرى ولكـــنَّ نَفْـــسَ الحُـــرِّ تحتمـــلُ الظَّـــما

وكان البِزم يختار من القصيدة قطعة كافية متكاملةً مترابطة، ويضعُ عليها شروحًا لغوية.

أمثال عربيّة

وقد اختار لطلاب ذلك الصف في تلك السنة ٩٠ تسعين مثلًا. وجاء في التقديم للأمثال ما نَصُّهُ: «نُقاوة مصطفاة من كتاب مَجْمَع الأمثال للميداني المتوفى سنة ٥٠٩هـ. وهو يشتملُ على نيّفٍ وستة آلاف مثل. وأشار إلى أمثال المولّدين، وعقّب بأن الأمثالَ مرتبة كترتيب الحروف الهجائية:

والأمثال العشرة الأُولى هي:

- إذا اصْطلح الفأرةُ والسِّنَّور خرب دكان البقّال![1]
- إذا تخاصم اللصان ظهر المسروق.
- إذا تفرّقت الغنم قادَتْها العَنْزُ الجَرْباء.
- إذا شاورتَ العاقلَ صار عقلُه لك.
- الدّراهم أرواحٌ تسيلُ.
- السّنّوْرُ الصّيّاحُ لا يصطادُ شيئًا.

(١) والسنور: القطّ.

- الشاة المذبوحةُ لا تألمُ السَّلخ.
- الصَّعْوُ في النزع والصِّبيانُ في الطرب.
  - ومثله: الطفل يلعبُ والعصفورُ في أَلَمِ
- القُبْحُ حارسُ المرأة.
- القصّابُ لا تهولهُ كثرةُ الغنم.

رباعيات، وثلاثيات، وثنائيات، وأُحاديّات

وهي قطع مختارة تتألف كل قطعة من أربعة أبيات، أو ثلاثة، أو اثنين، أو بيت واحد.

ومجموع هٰذه القطع المختارة ٣٢٩ ثلاث مئة وتسعة وعشرون بيتًا.

- من الرباعيات (قطعة من قصيدة في أربعة أبيات).

متى ما يرى الناسُ الفقيرَ وجارُهُ ... غنيٌّ يقولوا: عاجزٌ وبليدُ
إذا المرء أعْيَتْهُ المروءة ناشئًا ... فمطلبها كهلًا عليهِ شديدُ
وكائن رأينا من غنيّ مُذَمّمٍ ... وصعلوك قومٍ بانَ وهو حميدُ
وإن امرأ يُمْسِي ويصبحُ سالمًا ... من الناس - إلَّا ما جَنى - لسعيدُ[1]

ومن الثلاثيات:

مُلّ المقامُ فكم أعاشِرُ أمّةً ... أمرَتْ بغيرِ صلاحِها أمراؤها
ظلموا الرعيّةَ واستجازوا كيدَها ... وعَدَوْا مصالِحَها، وهم أُجراؤها
ووجدتُ دنيانا تُشَابِهُ طامثًا ... لا تستقرُّ لناكحٍ أَقْراؤها!![2]

---

(١) القطعة لعبد الرحمن بن حسان.

(٢) الأبيات للمعرّي. والأقراء جمع القُرء: الأَطْهار. (وهي ضدٌّ أَيْضًا).

ومن الثنائيات:

عليك سلامُ الله قيسَ بن عاصمٍ ... ورحمتُه ما شاء أن يترحّما

فما كان قيسٌ هُلْكُهُ هُلْكَ واحدٍ ... ولكنّهُ بنيانُ قومٍ تهَدَّما[1]

ومن الأُحاديَّات:

- إذا المرء لم يبذلْ من الودّ مثلَ ما ... بذلتُ له فاعلم بأني مفارقُهْ[2]

- إذا الملكُ الجبَّارُ صعّر خَدّه ... مشينا إليه بالسيوفِ نحارِبُهْ[3]

- إذا الناس غَطَّوه تغطّيتُ عنهمُ ... وإن بَحَثُوا عنّي ففيهم مباحِثُ[4]

أَبْيَاتٌ تتضَمَّنُ قَواعدَ نَحْوِيّة

موانع الصّرفِ تسع كلما اجتمعتْ ... ثنتان منها فما للصرف تصويبُ

عدل ووصفٌ وتأنيث ومعرفةٌ ... وعجمةٌ ثم جمعٌ ثم تركيبُ

والنون زائدةً من قبلها ألفٌ ... ووزن فعلٍ، وهٰذا القولُ تقريبُ!

وفي الأبيات المذكورة بيتان فيهما نكتة نحوية:

انظرْ إليَّ بِعَيْنِ مولًى لم يَزلْ ... يولي النّدى وتلافَ قبل تلافي

أنا كـ(الذي) أحتاجُ ما يحتاجهُ ... فاكسبْ ثوابي والثناء الوافي

[الشعر لابن عنين، وقد شرح البِزم لطلابه النكتة فيه فقد شبّه الشاعر نفسه بـ(الذي): ألغز إلى المخاطَب بما يريد، فـ«الذي» يحتاج إلى (صلة)، فَوَصَلهُ بشيءٍ من

---

(١) الشعر لعبدة بن الطبيب.

(٢) البيت لكثيّر عزة، وينسب إلى صريع الغواني.

(٣) البيت لبشار.

(٤) البيت لأبي دلامة.

المالِ وغيره، و(عائد) فزاره وقد كان مريضًا، ووعده بعمل بعد شفائه فذلك هو (المحلّ من الإعراب)]!

وقد أَثنى تلامذة البِزم على طرائق أُستاذهم في تعليم العربية وتحفيظها، وتفهيمها، وتلخيصها، وتفسيرها، وتقعيدها من خلال النُّصوص، وقد نتج عن هٰذا أنهم: أحبّوا العربية، وأتقنوها وتزوّدوا مما درسوا زادًا بقي معهم ولم يَنْسَوا منهُ شيئًا.

ونَبّه ظافر القاسمي على بعض ما يذكره من طرائق البِزم في تعليم العربيّة، قال: «ومن فضائله التي لا ينساها طُلّابُه أنه أَوّلُ مَنْ عوّد الطلابَ الرجوعَ إلى المعاجم، وقد اختار لهم أيسرها وأصحها، **فألزمهم شراء مختار الصحاح... وكان له غَرام بالكليّات**، مع إحاطته بالجزئيات، وهٰذا من صفات الفكر العلمي[1]...

وفي مقالة صلاح الدين موسى: «كان يعتمد في تدريسه على الأمثلة ويُسمّيها الشواهد، ويكلّف الطلبة جميعًا حفظها ليسمعها منهم في الحصة التالية... وكان يحرصُ على ذِكر اسم قائل الشّاهد: ويسأل الطلبة **عن بحر البيت**...

... والشاعر البِزم معجب جدًّا بالمتنبي: قلّده في أسلوبه، وأخذ الكثير من معانيه، وصاغها في قوالب تنبض بالحياة...»[2].

إنّ الذي قدّمه محمَّد البِزم لتلاميذه وطلابه، على امتداد السنين التي أمضاها في التعليم: بإتقان النّص المختار شعرًا أو نثرًا، وذِكْرِ مناسبته، وإيضاحه، وتكميل بعضه لبعض، واستنتاجه ما يريدُ تعليمه غالبًا من النصوص المختارة المنتقاة، وسير الدروس جميعًا باللغة الفصحى... كل أولئك رشح محمَّد البِزم حقيقة ليكون أستاذًا للعربية: ناجحًا، مخلصًا، صاحب قضية، وأن يكونَ في هٰذا بِدْعًا، لم يجارِه في ذلك أحدٌ من معاصريه.

---

(١) مكتب عنبر: ٥٦.

(٢) المعلم الشاعر محمَّد البِزم: ٤٠.

محمَّد البزم في قاعة الدّرس

يجتمع من أَقوال تلامذة البِزم، ومما كتبه بعضهم صورةٌ واضحةٌ لائحة لِدَرْس البِزم: مادّةً علميّةً، وإدارةً، وتنظيمًا تعليميًّا، ورعايةً فائقة.

- فقد كان درسًا غنيًّا بالمادّة العلميّة، يخرج التلاميذ آخر الدرس بزادٍ وافرٍ من المعلومات، مع شيءٍ مناسب من المهارات.
- وكان درسًا حيويًّا: يتفاعل الطلبة (بتوجيه منهجي من البِزم) ويكونون مع المعلم، ومادة الدرس، كخليّة نَحْلٍ حركةً، ونتاجًا.
- **وكان درسًا منضبطًا تمامًا.** حدّثني الدكتور عبد الغني عرفة[1] قال: كان البِزم أُستاذًا «محترمًا» يضبط الصف بذلك «الاحترام» والتقدير **لا بالإخافة والعقوبة.** وكان له أسلوبه المختلف عن سائر الأساتذة في التعليم، والتدريب والتفهيم.

قال: وكان يعتمدُ على المتميّزين، يعني في حركة تفاعل الدرس وتنشيط مجرياته.

وقد ذكر هٰذا أ.ظافر القاسمي في مكتب عنبر[2]: قال: «وأَخذ خصومه عليه أنه كان يقوّي من الطلاب القوي، ولا يستطيع الضعيف أن يلحق به، وذلك عيبُ المِيزة *La défaut de la qualité* كما يقول الفرنسيّون... قلّ أنْ نجا منه عظيم».

وقال د.حقّي: إنه كان للبِزم **نقدٌ لاذع للمقصّرين.**

ووصف د.حقّي الدّرس - كما يذكره، وكما سجّله - فقال: إن البِزم **كان ينوّع في أساليب تدريسه،** وكان الدّرس الواحد يتألّف من مجموعة عناصر: فدرس

---

(١) في لقاء معه سجّلته في ملفّ خاص.

(٢) مكتب عنبر: ٥٨ - ٥٩.

القواعد مثلًا كان يبدأ بالموضوع، القاعدة المطلوب دراستها، فيشرحها، ويأتي لها بالشواهد: مِنْ أبيات شعرية من القديم ومن الحديث، وأَحيانًا كان يأتي بشيءٍ من شعره. وفي درسه ملاحظات مثل الكلّيات (وقد ضربنا عليها أمثلة من محفوظات د.حقّي).. وكان مع الشواهد يجيء **بالأمثال والحكم المناسبة** للموضوع.

وكانت للبِزم في الدرس **أَجوبةٌ مسكتة** – كما مَرَّ –، قال د.حقّي، ومع ذلك كان يتساهل إذا كان الجواب جيّدًا أو طريفًا، ولو كان له لذعٌ.

وقال د.مازن المبارك، وهو أَحد أَبناء الشيخ عبد القادر المبارك عضو المجمع، وأُستاذ العربيّة، وزميل البِزم: إنه عرف البِزم عن كثب، وكان يحضر بعض لقاءات البِزم مع والده. وعرفه في حالِ صحته وعافيته، وحال مرضه وتغيّره.

وسجّلت في لقائي معه خبرين مهمّين جدًّا في النظر إلى محمَّد البِزم، وإلى الصورة النمطيّة الشائعة عن البِزم، وما قيل عن «جفائه» و«شِرَّةِ عَداوته...».

- **أحد الأمرين** أن الشيخ عبد القادر سأل ابنه عمّن نُدِبَ لتدريسهم فذكر له اسم البِزم، فقال: «**أَوْصِ زملاءك أن يُفيدوا منه لأنه عالم**».
- **والثاني**: أن د.مازن المبارك لقي الأستاذ البِزم، ومازن في السنة الثالثة في قسم اللغة العربيّة فقال له البِزم: «**إن شئت أن تقرأ عليَّ المغني (مغني اللبيب لابن هشام) فأنا مستعدّ**».

وكان د.مازن في أول لقائي إياه لمذاكرتِهِ في ذكرياته عن البِزم قال: إن الأستاذ البِزم سأل د.مازن وقد عرفه: «أتدري ما كان بيني وبين أبيك؟ قال: فقلتُ له: لقد سألني والدي عن مُدّرس العربية الجديد فذكرتُ اسمك فقال: أَوْصِ زملاءك... الخبر.

فالبِزم في خصوماته لم يكن الحجر الصّلد الذي لا يلين فقد كانت خصوماتهُ:

- مرهونةً بوقتٍ مُعَين.

- أو: بحادثةٍ خاصّة.
- أو: كانت دعابةً اشتدّت فلبست لبوس الخصومة.
- أو: تكبيرًا لخصومة طارئة، كان الزمن كفيلًا بردّها أو تحجيمها.

وفي ذكريات د.مازن أن مدرسة التجهيز الأولى (جودة الهاشمي لاحقًا) كانت تدعو الأستاذ البِزم إلى احتفالات تقام في المدرسة، قبل مجيئه للتّدريس فيها، وكان يلبي تلك الدّعوات، ويشارك مشاركة فعّالة.

وفي ذكريات صلاح الدين موسى - تلميذ البِزم - عمّا كان يجري في الدرس أحيانًا ممّا يستحقُّ التسجيل:

- «أنه كثيرًا ما كان حديثُه للطلبة المُهمِلين والعابِثين يعتمدُ على ما يسوقُه لهم من أبيات الهجاء للشعراء العرب، فقد رأى طالبًا يعبث بكرّاسته بعيدًا عن الإصغاء للدرس؛ فقال: اكتبوا شاهدًا على زميلكم، لعلّ فيه ردعًا له:

وشُغِلْتُ عن حُبّ الكرامِ وما بَنَوْا إنّ اللئيم عن المكارِمِ يُشْغَلُ!

- وضَحِكَ الطلّاب مرّةً لصوتٍ صادرٍ من خارج الصّفّ،فقال لهم: اكتبوا:

ضَحِكنا، وكان الضِّحْكُ مِنّا سفاهةً وحقّ لسكانِ البريّةِ أَن يبكوا!

- وقال مَرَّةً للطلاب: ارفعوا الوظائف، فرفع طالبٌ ورقةً بيضاء؛ فجذبها البِزم، وقال للطلبة: اكتبوا:

وأنت امرؤٌ منّا ولستَ بِخَيْرِنا جَوادٌ على الأَقْصَى وأَنت بخيلُ!

الفصل الرابع

في أغراض شعره
وخصائصه الفنيّة

١- في أغراض شعره

في أَخبار محمَّد البِزم وأشعاره ما يدلّ على أنّه جعل الشعر جزءًا من مهمّته (أو مهامّه) في الحَياة. وأنه لم يقصد به مدحًا، ولا تكسبًا، ولا نُصرة فريقٍ يفضله على آخر. الشعر عنده: منبعُهُ من الذّات، وهدفه مخاطَبَةُ الناس. والتعبيرُ عن النفس، وبثُّ الهموم الوجدانية الخاصّة، ولو لم يسمعه أحد سواه؛ وحَمْلُ رسالةِ العلم، والعروبةِ، ونهضةِ الأمّة، وتجاوز الأخطاء.

ولا تتعادل كفّتا الرّثاء والمديح في شعر البِزم كما تتعادلان عند شعراء المديح عادةً. وإذا كان بعض رثاء القدماء وفاءً لما سبق من المرثيّين، فإن الرثاء عنده هو أوسع الأبواب، وأكثره عدد أبيات.

وبعض أغراض شعره لم تفرد بقصائد خاصة، ولكنها جاءت في مجرى قصائد مطوّلة كوصف الطبيعة، ووصف المعالم العمرانيّة، والفخر، والحكمة... إلّا ما قَلّ أو نَدر.

الشعر الوطني والقومي

(١)

في شعر البِزم وتَران متناغمان، ويتداخلان: الشعر الوطني، والشعر القومي، وإن وقف في بعض قصائده عند قضايا وطنية (محلية) تخص سورية وبعض رجالها وأَحداثها.

والتّداخلُ طبيعي، يصدق ذلك في شعر البِزم، وفي شعر معاصريه من شعراء سورية: الزّركلي، وجبري، وخليل مردم، ونجد هٰذا في الأَجيال التّالية أيضًا.

وقد كانت دمشق إبّان ما عُرِف بـ(الثورة العربية الكبرى) **تنتظر دولة عربية تضم أقطار العرب من أقصى المغرب إلى أقصى المشرق**. ثم تضاءلت الأحلام (بعد تآمر أوربة على العرب وسخريتها بالشريف حسين) وضاقت حتى اكتفت ببلاد الشام (الطبيعية). ولما طبقوا مقررات سايكس - بيكو صار الحلم يطوفُ حول (سورية) ويحاول أن يتماسك معها ويحافظ على حدودها. واقتُطع من سورية قطع أضيفت إلى لبنان، ثم ذهب قسم من الشمال الغربي «بتفاهم!!» فرنسي تركي... (سنة ١٩٣٨) ولم تلبث قطعة عزيزة عظيمة من بلاد الشام أن احتلّت من غزاة يهود العالم، وصارت فلسطين نهبى بين أيدي الواعدين (بلفور) والقانِصين (كيان العدوّ)...

لقد عاش البِزم هٰذا كله، وعصرًا قبله: عاشَ مدّة في ظِلّ الدولة العثمانية والغَرْبُ يُجهز عليها ويخلع الحجر القويّ في بنيانها (عبد الحميد) وظِلّ **جماعة تركية الفتاة** وهم يفسدون بغبائهم العلاقات بين أجزاء البلاد التي كانت آنذاك تحت الإيالة العثمانية.

- فنظم شعرًا في حال البلاد، وقد أطبق عليها حكام موالون لأنصار التتريك القائمين بالدعوة الطورانية.

- ونظم شعرًا وقد احتلت فرنسة سوريّة؛ وتعاطفَ مع الثورة السورية الكبرى ورجالها.
- والتفت يمنةً ويسرة إلى بلاد العرب: يغنّي في مواكبهم، ويتحمّسُ لحماستهم، ويُعلن على طريقته الدعوة إلى أمة عربية واحدة قويّة. وكانت تلك المدّة ملائمةً لنغمة صدّاحة صدرت عن فخري البارودي من منطلق العاطفة العربيّة:

بــلاد العــرب أوطــاني مـــن الـــشام لبغـــدان
ومـــن نَجـــدٍ إلى يمـــنٍ إلى مـــــصر فتطـــــوانِ

ونظم على هٰذا النسق شعراء سورية جميعًا، وأخص معاصري البِزم، كلٌّ شدا على أسلوبه، وطريقته...

(٢)

كان شعر البِزم في ما بين الحربين العالميّتين صدًى لما يجول في نفسه الوثابة المتعلّقة بالوطن: الصغير في بلاد الشام، والكبير على امتداده. وكان في الوقت نفسه صدًى للأحداث المتلاحقة من خروج الجيش التركي ودخول المستعمر الفرنسي، وقيام الثورة السّورية، وتوالي الجهاد والنّضال حتى الوصول إلى الاستقلال.

وللبِزم قصيدتان باقيتان من شعره الذي نظَمه بعد خُروج التّرك من الشام[1]: مطلع الأولى:

تَخـيَّرْ جيـادَ الـضُّمْرِ واتـركْ بطانَهـا وغـادر حيـاةَ الـضّيمِ واهْجُـرْ دِنانَهـا

يقول فيها، وقد امتلأتْ نفسُه حماسةً، فرفع صوتَهُ وهو الشّاعر الذي حمل جزءًا

(١) شعر محمَّد البِزم ١: ٢٤٨.

(مهمًّا) من مسؤولية التّوعية والتّنبيه:

ألا يا لقَوْمِي من جَحاجحِ يَعْرُبٍ — لساني تُناجيكم، فهاكم بيانَها
لئن كُمّت الأفواه في أرضِ جِلّقٍ — لكمْ كنتُ في داجي الخطوبِ لسانَها
وكيف أطبقُ الصّمتَ من بعد ما أَرى — لكمْ كارثاتِ الدّهرِ أَلقتْ جِرَانَها[1]

ويحذّر من عدوّ أشد على الأمة من الأُفعوان:

ألا يا لقومي والعدا تُضمرُ الرّدى — وتمزج باللأواءِ فِيكم لبانَها
يدبُّ إليكم بالرّدى أُفعوانُها — ألا فاحْذَرُوا ما اسْطَعْتُمُ أُفعوانَها

ومطلع القصيدة الثانية[2]:

المجدُ حيثُ قِراعُ السُّمْرِ والقُضُبِ — والعزُّ في صَهواتِ الضُّمَّرِ النُّجبِ

جعلها قصيدة حماسيّة، تستعين بالحميّةِ البدويّةِ الأعرابية، طلب فيها من الأمة أنْ تَثِبَ وثبة الأسد[3]:

وأخجلُ الناسِ ذِكرًا مَنْ إذا وثبَتْ — أعداؤه تَنْتَحِي الهيجاءَ لم يَثِبِ
ولم يَفُزْ بالمعالي غيرُ ذي هممٍ — مُجَرَّبِ العَزْمِ وثّابٍ على النُّوَبِ
أبناءَ قحطانَ، والأيامُ ناظِرَةٌ — إليكمُ بلحاظِ الآبِهِ الطَّرِبِ
إن كان أنْهَضكم والدَّهرُ ذو غِيَرٍ — حَيْفٌ يُصَبُّ عليكمْ شَرَّ ما صَببِ
عُودوا لتاريخ آباءٍ لكمْ سَلفتْ — وأمْعِنُوا نظرًا في غابرِ الكُتبِ
هل تُبصرون سوى عِزٍّ ومَكْرُمَةٍ — وأَنْفُسٍ دارُها في هامةِ الشُّهبِ؟

(١) ألقى عليه جرانَهُ: ثِقْلَهُ.
(٢) وعنوان القصيدة في المطبوع: وثبة الأسد.
(٣) ديوان البِزم ١: ٢٥٣.

(٣)

وعايش سنوات الثورة السورية، وسَجّل من أَحداثها، ووقفَ عند بعضِ أعلامها. ومن قصائده الطنّانة في هٰذا الجانب قصيدة أولها[١]:

غـادِرْ دمـشقَ ويمّـمْ دار سُـلطانا ... عـلى الـسُّويداءِ لا تحفِـلْ بِمَـنْ مانـا

قال في أثنائها عن **حَسن الخرَّاط** أحدِ أبطال الثورة السّورية، وشهدائها:

يـا مـؤثرَ المـوتِ في إنقـاذِ موطنِـهِ ... ركبـتَ صَـعْبًا، فـلا لاقيـتَ خِـذْلانا

سَـيّرتَ ذِكـركَ في الآفـاقِ تحملـهُ ... جوائـبُ الجَـوِّ أفراحًـا وأحزانـا

وخاطب **بني الشام** يَحُثُّهم على مواصلةِ الجهاد ضدّ العدوّ:

دَعُـوا الكـرى فـالكَرى عـارٌ ومَثْلَبَـةٌ ... وقَلّبُـوا الأمْـرَ بطنانًـا وظُهرانـا

الآنَ والـدّهرُ مـأخوذٌ بغفوتِـهِ ... هُبُّـوا خِفافًـا، وأُمُّـوا سـاحَها الآنـا

وذكر **الفرنسيين** صراحةً في هجوم مباشر:

أبنـاء غَلْيَـةَ لا كـان انتـدابكُم ... فقـد أسـال دمـاءَ العُـرْبِ غُـدْرانا[٢]

وسجّل فرحته وفرح الأمّة **بجلاء العدوّ**، وانكشاف الغُمّة[٣]:

دَعْـدِعْ أُميَّـةَ في غـافي مَراقِـدها ... وقل لها - وسَيُصغي التُّربُ والرُّجُمُ -:[٤]

هٰـذا تراثـك قـد رَدّ الزّمـانُ لـهُ ... بنـاءَهُ مُـشْمَخِرًّا لـيسَ ينهـدمُ

---

(١) ديوان البِزم ١: ٢٠ - ٢١.

(٢) أبناء الغال، وهم سكان فرنسة الأصليون. ومن الكنايات المعاصرة: أبناء الغال (الفرنسيون) وأبناء التايمز (الإنجليز) - انظر كتابنا: معجم الكنايات المعاصرة - محمَّد رضوان الداية - مادة (ب ن و).

(٣) ديوان البِزم ١: ٥٨.

(٤) الرُّجُم: حجارةٌ تُنْصَبُ على القبر. [المعجم الوسيط]. يقول لبني أميّة وهم راقدون: قوموا وانظروا عودة أمجادكم... أمجاد العرب.

وقـل لعِتْرَتِهـا الأبـرارِ مـا طمحَـتْ بهـم نفـوسٌ إلى الجُـلّى ومـا اقتحَمُـوا
أنـتِ المنـى والرجـاءُ الفَخْـمُ نـذْخَرُهُ يـا أمَّـةً طُويَـتْ في مجـدها أُمَـمُ
لا بِـدْعَ أن تـستردّي الحـقَّ غالبـةً فـالحقُّ أغلـبُ والأوطـارُ تُغتَـنَمُ

وخصّ يومَ الجلاء (مَعْلَمًا وتاريخًا ونَصْرًا) بقطعةٍ من القصيدة قال فيها:

وأَنـت أَعْظَـمُ في البُقيـا وأَخْلَـد في الـ .... ـعُقْبَى، وأَجْمَلُ في الـذكرى، ولا جَرَمُ

(٤)

وانطلاقًا من فكرة **وحدة العرب**، وإن لم تكن قائمة سياسيًا أو عسكريًا استنهض البِزم: أهل الجزيرة العربيّة «لنجدة الشام ذاكرًا ما أصابها من تدميرٍ، وما ارتكبه المستعمر من صنوف الاعتداءات الفظيعة»[1]. قال[2]:

بَنـي الجزيـرةِ والأنـسابُ جامعـةٌ والحـازمُ الـشهم يَلْقـى الـدّهْرَ يقظانـا
أيـن الحمّيـةُ، بـل **أيـن العروبـةُ**، هـل غـاضَ الوفـاء وآض الـودُّ هجرانـا
أمـا سـمعتم ورُسْـلُ الـبرقِ جائلـةٌ بـــما نعانيـــه إسرارًا وإعلانـــا
فقـد أبـاحوا حمانـا كـلَّ طاغيـةٍ فَـسْل يُـروِّعُ آرامًـا وغزلانـا

إلى أن قال في جرائم المستعمر وجنوده:

فـذكَّرونا ومـا الـذكرى بعازبـةٍ أيـام أَنـدلُسٍ تُـدْهى وإسـبانا

ونفَس قصيدة أَبي البقاء الرُّندي ظاهر في هٰذا النصّ.

وكان في توجهه القومي في شعره: «**استنهاضُ الهمم**، والتغَني بالأمجاد، وتسجيل الحوادثِ... وفي شعره انعكاسات حادّةٌ لما يعانيه المجتمع العربيّ من

(١) محمَّد البِزم - د.إبراهيم الكيلاني: ٢١٩.

(٢) ديوان البِزم ١: ١٨.

ضروب الضعف، والتخلّف والفرقة، وعيوب الحكم وغير ذلك من الأَدواء...»[1]، وفي شعر البِزم[2]:

يـا أيُّهـا الـوطنُ الـذي عبثـتْ بـهِ ... أبنـــاؤُه فترأســـت جُهّالُـــه

وتناوبَتْـــهُ الكارثـــاتُ فَـــساسَهُ ... في النـازلات المُـصمياتِ رذالُـه[3]

وتفرّقـــت شِـــيَعًا بـــهِ أبنـــاؤه ... وتخـــاذلوا فتقطّعـــتْ أَوصـــالُه

جالـت بـهِ خيـلُ العـدا فاسْـتَوْبَلتْ ... أرباعـــهُ وســـهولهُ وجبالُـــه

وفيه أيضًا[4]:

وأَجْـــدَرُ خَلْـــقِ الله بالـــذلّ أُمّـــةٌ ... تُـــدارُ بأيـــدي الجـــاهلينَ أمورُهـــا

وأولى بنـــي الـــدنيا بـــضيمٍ لأُمَّـــةٌ ... مفتّحـــــةٌ للطـــــامعين ثغورُهـــــا

فهـــل بـــالغٌ قـــولي مـــسامع أُمّتـــي ... فيوردهـــا ســـبلَ الهُـــدى ويُنيرهـــا؟

– وفي الأحوال التي عالجها البِزم أن تُوَسَّدُ الأمورُ إلى غير أَهلها؛ وقد قال في أحد المتوثبين المتغلّبين[5]:

رفعـــوه إذْ حـــسبوه حُـــرًّا نابغًـــا ... فـــسما الغبـــيُّ ومـــا لديـــهِ نبـــوغُ

تركـــوا إليـــه أمـــورهم، فـــإذا بـــه ... عـــن واضـــح الحـــقِّ المُبـــينِ يزيـــغُ

(٥)

واهتم البِزم بأعلامٍ من العرب: رجالَ دولةٍ، وحكامًا، بين تأييدٍ لخيرٍ يجيء منهم

---

(١) محمَّد البِزم – د.إبراهيم الكيلاني: ٢٢٠.

(٢) ديوان البِزم ٢: ١٣٨.

(٣) من أَصْمى الطّريدةَ (الصيد) فخَرّت في مكانها.

(٤) ديوان البِزم ١: ٢٦٩.

(٥) ديوان البِزم ٢: ١٤٠.

للعرب في أوطانهم المختلفة، ورثاء لمن يتوفى منهم إحياء لذكراه، فأنشد في الشريف حسين، وسعد زغلول، والملك غازي...

ومما قاله في الحسين[1]:

رَجُـــلَ العُـــرْب لقـــد علَّمتَنَـــا كيــف صــبرُ الحـرّ يجفــوه المُعــينْ
جُـزتَ بـالإخلاص حـدّ المخلـصين وتجـــاوزت حـــدود المُحـــسنينْ

وكان **شعره في أحمد شوقي وحافظ إبراهيم** فرصةً أُخرى ليردّد قضية وحدة العرب، واتصال أجزاء الوطن الكبير بعضها ببعض، ومن شعره في شوقي[2]:

لـــستُ أنـــسى هِـــزّةً شـــعريّةً لـــكَ في قـــوميَ، والقـــولُ ديـــونْ
قـــدحَتْ صـــلد الـــصفا متقـــدًا وأثارَتْهـــا لظـــى حـــربٍ زبـــونْ
وانتحَـتْ «مـروان» في غـافي الثـرى و«ابـنَ هنـدٍ» رجـل الـدهر الـركينْ
شـــبّت الثـــورة في مربـــضها تتنـــزّى بـــدماء الثـــائرينْ
هِجْـــتَ فـــيهم نفحـــةً فِهريّـــةً طأطـأتْ في الـدهر كِـبْرَ الجـائرينْ

وقد مرّ البِزم في القصيدة على مصر وشيء من تاريخها، وذكر أحمد شوقي بكثير من خصائصِه وصفاتِه ووجوهِ إبداعه.

وردّ البِزم دَيْنًا - في شعره هٰذا - لشوقي ولمصر، شكرًا له على مؤازرته الثورة السورية، وإنشاده قصائد الثناء على دمشق وبني أميّة وإشادته بتاريخ الشام وحضارته.

لقد كان البِزم يرى البلاد العربية جميعًا وطنًا له[3].

---

(١) ديوان البِزم ١: ٩٤.

(٢) ديوان البِزم ١: ١٠٦.

(٣) الشعراء الأعلام: ٤٧.

(٦)

في الديوان قصيدتان وُضِع لهما في الديوان عنوان: إسرال[١]، وإسرائيل[٢].

أما الأُولى فهجوم صارخ على اليهود الذين غَصبوا فلسطين؛ واستفادَ الشّاعر ممّا وَرد عنهم في القرآن الكريم، وفي السّيرة النبوية، ووَصفَهُم على ما هُم عليه من الذلَّةِ والمَسْكَنةِ من جهةٍ، والتنمّر وتضخيم الذّات والظّلم والعَسْف كلما أُتيح لهم ذلك، قال[٣]:

وَسَـمَتْهمُ الأعقـابُ مِيـسَمَ ذِلّـةٍ ... فَتَمَـسْكَنُوا في كـلِّ ذاتِ قَـرارِ
نَكِـرُوا الإِلَـهَ فـما يُلِـمُّ ببالِـهمْ ... وتمرّسُـوا بعبـادةِ الـدّينارِ
وتفرّقـوا قِـدَدًا: عـلى أكتـافِهمْ ... سِـمَةُ الهَـوانِ، وذِلّـة الإدبـارِ

ويصل إلى الوعيد[٤]:

إيـهٍ بنـي إسرال بعـضَ وعيـدِكُمْ ... ونَظـارِ ينكـشف اليقـينُ، نَظـارِ

وأعاد البِزم الكلام على «كيان العدوّ» وفظائعه التي ارْتَكبها ليخيف الفلسطينيين والعرب، ويثبّت عدوانه، ومزج هٰذا بالشكوى المُرّة من تقاعس العَرب وتخاذُلِهم، فلو صَدقوا في نياتهم، وصمّموا على تحرير أرضهم، ورسموا خُطّةَ عملٍ جهاديّة لرجالِهِمْ لما كان هناك (إسرائيل)، ولاستراح النّاسُ، واسْتُرِدَّت البلاد المغصوبة كاملةً...

---

(١) ديوان البِزم ٢: ٣٨.

(٢) ديوان البِزم ٢: ٥٤.

– وبالمناسبة فأنا لا أسيغ استعمال اسم دولة العدو الصريح، ولا أطيقُه، وأكتفي بعبارات أخرى مثل العدوّ وكيان العدو ودولة العدو....الخ.

(٣) ديوان البِزم ٢: ٣٨.

(٤) ديوان البِزم ٢: ٥٤.

وقد أشرت إلى هٰذه القصيدة عند الكلام على أسلوب الشاعر وملاحظة أحمد الجندي عليه. وقد قال البِزم: على لسان سيدنا عمر رضي الله عنه وقد رآه في المنام[1]، وشَكا له ما وقع على أهل فلسطين، وبعض البلاد العربية من ظلم يهود، وتَذَوّبِهم:

فـأجْهَشَ العـربيُّ القُـحُّ، واسـتبقَتْ دموعُـه، وهَمَـتْ بالـدّمعِ أَجْفـاني
وقـام يُنْـشِدُني بيتًـا لـذي لـسَنٍ بـاقٍ عـلى الـدّهْرِ، مـا كَـرّ الجديـدانِ:
«لـو كنـتُ مـن مـازنٍ لم تـستبِح، إبـلي بنـو اللقيطـة مـن ذُهْـلِ بـنِ شـيبانِ!»

والبيت الأخير مُضَمَّن من حماسيّة مشهورةٍ، هٰذا البيت هو مطلعها[2].

وبمناسبة شعر البِزم الوطني والقومي، ووقفته الصَّدَّاحة عند فلسطين أشير إلى ما كتبه د.جميل صليبا وهو يذكر الآثار الشّعرية لشعراء سورية في هٰذا المجال قال[3]: «... ولم يكادوا يخلّصون أنفسهم من تعسّف التّرك واستبدادهم حتى فوجئوا بفجائع الاستعمار الغربي وأهواله السّود. فلما أَذِن الله بميلاد فجر استقلالهم هَزّت نكبة فلسطين ضمائرهم، وأيقظت بأهوالها ومآسيها روح العزيمة والجهاد في نفوسهم، فلا عجب بعد هٰذا أن يميل شعراؤنا وكتابنا إلى أدب الالتزام وأن يجعلوا أدبهم أدب كفاح ونضال وتحرير...».

وأدرج د.صليبا جمهرة من شعراء سورية نَحَوْا ذلك المنحى فيهم محمّد البِزم وكوكبة من زملائه ومعاصريه.

الغزل

الكلام على المرأة في شعر البِزم – الذي بين أيدينا – قليل. وقد تحدّثتُ عن شِعْرِ

(١) على سبيل التخييل الشعري.

(٢) هو القطعة الأولى من حماسة أبي تمّام، من باب الحماسة وهي لرجل من بَلْعَنْبَر.

(٣) ديوان البِزم ١: ٢٣٠ – ٢٣١.

البِزم في فقرة (النقد الاجتماعي) الذي ذكر فيه المرأة من تلك الزاوية.

وفي القصائد التي تُصَنّف في غرض الغزل لا نعثر على اسم معين، ولا إشارات تتردّد تدل على ذلك.

و**القصائد الغزلية الخالصة** لهٰذا الفن هي خمس. وهو في هٰذا الفن شاعِرٌ رقيق، وقصائده الغزلية هي نصوصٌ تَرُدُّ بقوة على مَنْ جعلوا شعره جميعًا شعر قوّةٍ وغريبٍ ومعانٍ.

وفي قصيدته «ذِكْرى الشباب» يقدّمُ نموذجًا لغزلٍ تقليديٍّ رقيق، لا يتخلّى عن متانة العبارة، ولكنه متدفّقٌ بين لفظٍ وعبارةٍ ومعنًى وإيقاعٍ[1]:

رُبَّ دهـرٍ قـد ضـمّ شـملي بحَـوْرا ... ءَ تُـمَنّي نَـزْرًا وتَمْنَـعُ جَـزْلا
هَزَلَـتْ جسمَ ذي الجـوى وتهـادتْ ... يـشتكي خـصرُها المعـذّبُ هـزلا
شـابت الجِـدَّ بـالمجونِ فَخِيـلَ الـ ... ـهزلُ جـدًّا، وخُيّـلَ الجـدُّ هـزلا
ووهـى الناعـسانِ منهـا فراحـا ... يغـزلان الهـوى لـذي الـشوق غَـزْلا
ملّكاهـا عـلى القلـوب فَـما تَحْـ ... ـذَرُ إن خـاف صـاحِبُ التـاج عَـزْلا
مُهَـجُ العاشـقين نهـبٌ لَـدَيْها ... تركتهـا وقفًـا عـلى الحـبّ عُـزلا
نظـراتٌ تثـيرُ وجـدًا ووقـدًا ... تَخِـذا مـن حـشا المُتَـيَّمِ نُـزْلا!

وإذا لوّحت القصيدة بديباجة البحتري في أغزاله[2]، فإنّ شخصية البِزم بارزة واضحة.

ولم تخطئه الديباجة، والسّلاسة، والتدفق، في قصيدة غزلية أُخرى، على رغم

(١) ديوان البِزم ٢: ١٤٩، قصيدة: ذكرى الشباب.

(٢) انظر مثلًا قصيدةً له على بحر الخفيف الذي ركبه البِزم:

لي حبيـبٌ قـد لـجَّ في الهَجْـرِ جـدّا ... وأَعـادَ الـصُّدودَ منـهُ وأَبْـدى

روي **الظّاء**، وهي في الديوان[1]، منها:

أيّهـــا الـــسّاحِرُ ألفـــا ... ظًـــا، وإيـــماءً، ولَحْظـــا
كيف أرْجُو من رَغِيد الـ ... ـعيشِ في بُعـدكَ حَظّـا؟
وســلامٌ مِنْــكَ عنــدي مـن نعيمِ الخُلْدِ أَحْظى
إن تــنَمْ عينُــك عنّــي فَجُفــوني فيــكَ يَقْظــى

– وله منظومة غريبة الوزن، صَرّع أشطارها جميعًا، وجاءت راقصة الإيقاع، سريعة الحركة، أدارها الشاعر على قضية الحبّ (الهوى) وأنه، باختصار، كما ثبت في العنوان: هوان[2] قال فيها:

إنّ الهـوى هـوانْ وذُلّـــه ألـــوانْ
فـسِلْمهُ عُـدوانْ وسُخْطُه رضـوانْ
وسِرّهُ عنـــوانْ يقظانــهُ سَــهْوانْ

ومضت أبياتها، وكأنها مطالعة نظرية في الهوى وما يجلبه على صاحبه.

– وفي الديوان قصيدة من سبعة أبيات[3] كأنها من أيّام السهر والسمر القديم، نظمها في مُغنِّيَةٍ، عنوانها: يا دُمية القصر... فيها وَصْفٌ، وغزلٌ سريعٌ؛ فإنه وجَد في حضور تلك الملاهي عبرةً لمن يلهي نفسه بالسّهر والسمر، والتقط صورة الغَوِيّ الذي يحضر تلك الملاهي ثم يخرج على الناس بصورة التقي النقي، وفيها:

إنْ أعْـوزَ النّـور واشـتدّت بنـا ظُلَـمٌ فـذا جبينـكِ في الظّلـماءِ مـصباحُ!
كـم في تعـاطف هٰـذا الليـل مـن زُمَـرٍ ضَـوَوْا فـما لهـمُ في الليـلِ أشـباحُ...

(١) ديوان البِزم ٢: ٥٢.
(٢) ديوان البِزم ٢: ٤١.
(٣) ديوان البِزم ٢: ١٥٠.

...وكـم غِـوِيٍّ تُـشِيبُ الليـلَ جَهْلتُـه شـعارهُ حـين يلقـى النـاسَ: مِـسْباحُ!

الوصف

الوصف في شعر البِزم كثيرٌ، وهو فاشٍ في الجزء الأول من ديوانه، في قصائده: دمشق - التي في الجزء الأَوّل -، وحماة، وطرابلس الشام، وحمص...الخ. وللبِزم قدرة عالية على التصوير بالكلام المباشر، ومن خلال الأدوات الفنية المختلفة، فهو يلتقط الصورة، ويطيل النظر فيها، ويشقق الكلام.

وأختارُ قطعةً من قصيدةِ «حماة»[1] في فقرة منها عنوانها «النَّواعير» يقول فيها:

تـــئن ممّـــا بَـــرّحَ الوَجْـــدُ بهـــا أنّـاتِ مـضنًى مـن صُـدودِ هـاجِرِ
كأنّهـا رَجْـعُ صَـدى الحـقّ فـما مِـــنْ أوّلٍ يُـــدْرى لهـــا أَو آخِـــرِ
رواهـــبٌ مـــا رَهبَـــتْ وَفْـــدَ ردًى كثـــيرةُ الـــذّكرِ مـــع الـــذَّواكِرِ
إنْ أخطـأ الـرَّوضَ الحَيَـا فـدمْعُها مُطَّـــرِدٌ مـــن أعـــينٍ هـــوامِرِ

ومنها في صفة النواعير، وهي تشبه الأفلاك في دورانها وحركتها الدائبة:

تُـمَثِّـــلُ الأفـــلاكَ في عليائهـــا بالـــسَّير والأَعـــراضِ والجـــواهِرِ

وانتقل من وصف الناعورة شكلًا وعملًا، ومن الكلام عليها في البساتين أثرًا وفائدةً، وفي نيابتها عن المطر أحيانًا، إلى رؤًى ذهنيّةٍ، مُستخلصًا بعضَ العبر من دورانها الدائم، المديد في الزمن[2]:

تُلقـي ضروب الـوعظ لم تَـسْفَهْ عـلى مُحـــاورٍ يومًـــا ولا مُنَـــاظِرِ
لوالـــبٌ يُحـــصي بهـــا الـــدّهرُ عـــلى أبنائِـــه الخَطْـــوَ إلى المقَـــابرِ

(١) الديوان ١: ٤٣.

(٢) ديوان البِزم ١: ١١.

أَرْحِيَــةٌ تطحــنُ أعــمار الــوَرى هَوْنًــا بــلا عَــوْنٍ ولا مــؤازِرِ

ومثلما رأى في الناعورة أداةً تعين على أسباب الحياة، تصور فيها عظة وعبرةً، فهي كالساعة تدور، وتحصي الشهور والسّنين التي تنقضي من حياة كل إنسان.

وفي قصيدة (دمشق) وقف - فأطال - عند نهر بردى وفروعه، وعند غوطة دمشق (وهما غوطتان):

وبأسلوبه الرّصين المتين وصف الغوطة، واستطاع أن يُبْرِزَ صورتها، ويوضح خصوصيّتها[1]:

سافِرْ بلحظكَ حيث شئت فلن ترى إلا عجائــبَ توجــبُ التّوحيــدا

أنّــى التفــتَّ فجــدول مُــتَرَنّمٌ أو نــائحٌ في أيكــهِ تَغْريــدا

وســواكبٌ ومواكــبٌ وكواكــبٌ تجــري النحــوسُ بجــوّهنّ سُــعودا

وقد استرسل في الوصف، واجتهد في توليد المعاني، وابتكارها أيضًا، ما بين لمحة تراثية، وأُخرى هي بنت الوقت، ومن إيحاءات البيئة الشامية التي انغمس فيها البِزم كغيره من شعراء الشام[2].

والبِزم ابن البيئة الشاميّة، ولا أعرفُه خرج عن سورية إلا إلى لبنان، وأطراف الطرق المُصَاقبة للشام. وفي وثائق البِزم في مكتبة ولده أ.حسان صُوَرٌ في عدد من معالم مدينة طرابلس (الشام) وكان - حين التقطت الصور - في رحلةٍ مدرسيّة.

وفي شعره لطائفُ في وصف الطبيعة، أو تصوير البيئة التي عاش في ظلالها، وحمل لها في نفسه ذكريات عزيزة؛ ونقرأ له من منظومة «ظل النيربين»[3]:

---

(١) ديوان البزم ١: ٤٤.

(٢) فيهم: أنور العطار الذي غاص كثيرًا في بساتين الغوطة ورياض دمشق. (انظر ديوانه: ظلال الأيام).

(٣) ديوان البِزم ٢: ٨٩.

إِيـه يـا عـصفورةَ الـوا ... دي أثـــيري بأَنينِـــكْ
مــن حنــينٍ في فــؤادي   راحَ يُـــزري بحنينِـــكْ
ذكّرينـــي عهــدَ رَيْعَــا ... ني بظــــلّ النَّيْرَبَــــيْنْ
يــوم لا أســمعُ في ظِلّــ ... ـــيهما نـــاعِقَ بَـــيْنْ!

* * *

فهـــا المرتـــادُ والمـصـ ... ـــطافُ والمُرْتَبَــــعُ
بهجةُ النّفسِ وَمَسْلا ... ةُ الأســــى والمتــــعُ

* * *

ذكّرينـــي إنّـــا العَيْــ ... ـشُ على الـدّهرِ ذِكَـرْ
كبريــاء غالهــا النِّـسْـ ... ـيانُ، بل هٰذِي الغِيَرْ!

* * *

فهي ذكرياتٌ محفورة في الذاكرة، وثابتة – على حلاوة باقية – في النفس. ووقف الشاعر في ظل النيربين، وكانت – آنذاك – بساتين ممتدّة. وقد استظهرْتُ عند الكلام على (طلائع الجحيم) أنه كان في حواره مع شخوصه يلقب نفسه «**شيخ النيربين**».

النقد الاجتماعي

عالج البِزم في شعره بعض المُشكلات الاجتماعيّة مثل قضية الدَّجَل، وإدمان الشراب، وفتنة المرأة، والغنى والفقر.

وإذا كان الشاعر في ساعةٍ «شعريةٍ» قد تغنّى بالخمرة على طريقة النّواسي[1]:

(١) ديوان البِزم ٢: ١٣٧.

فمنتهــى أوطــاره والمُنــى   كرميّةُ الأعراقِ بِكْرٌ صُراحْ

فإنه وقف موقفَ الجِدّ، ولبس ثوب النّاصح في قصيدته: «مَصارع الصَّهباء»[١]:

حتــى خلَــتْ كــأسُ مُثْــريهم فنكَّبَهــا   وراحَ يَلْقــى ضروبَ الــذُّلِّ ناكِبُهــا

والبِزم، وإن سُجّل عليه بعض المُزاح الثّقيل، كالشّعر الذي نظمه على لسان بعضِ زملائه[٢]: عز الدين التنوخي، والشيخ عبد القادر المبارك، فإنه في نَقْدِه الاجتماعي في شعرِه **يحذّرُ من المُزاح، أَو من الاسترسال فيه**، ويضيف نصائح أُخَر تفيد في اكتمال الشخصيّة التي تُحسن الاتّساق مع المجتمع، قال[٣]:

أَمْـسِكْ عليـك قليـلَ المَـزْحِ في مـلأٍ   كـي لا يبيتَ قـوامُ الطبع فيك دَدا[٤]

واعذرْ خصومكَ في البَغْضاء ملتمِسًا   أسبابَ بغضائهم ثـم انتهجْ صَـددا[٥]

فــإن رأيــتَ صــفاءً فاللِّيــان، وإنْ   ألفيتَ لؤمًا فجمّعْ – وَيْحَكَ – العُـددا

وصوّر شخصية **دَجّالٍ يلبس ثياب الأتقياء**، ويتصرف تصرّف الخُبْثاء والدجّالين. ومن أبيات قصيدة (صورة)[٦] رسم لذلك الدجّال، فهو رجلٌ:

ذو لحيـةٍ شَـهباءَ تحـتَ عمامـةٍ   لألاءة لِغوايــــةِ الألبــــابِ

ذو خفّـةٍ عبثـتْ بهـا شـيخوخةٌ   مُزِجَـت بـماء كهولـةٍ وشـبابِ

---

(١) ديوان البزم ٢: ١٢٨.

(٢) أدرج أحمد الجندي هٰذه المنظومات تحت اسم «المقالب» في مقالته بمجلة العربي (آب ١٩٥٩).

(٣) الديوان ٢: ١٤٦.

(٤) الدَّدُ: اللهو واللعب. [المعجم الوسيط]

(٥) الصَّدَدُ: القَصْدُ. [المعجم الوسيط]

(٦) ديوان البِزم ٢: ١٠.

خـبٌّ يريـكَ تقـشّفًا وتنـسّكًا وفـؤاده مُغْـرًى بـأمّ حُبَـابِ[1]!

ولكنّه في الحقيقة:

ذو جَهْلـةٍ زدَّتْ سَـوادَ ظلامِـه فلـقَ الـصّباحِ مُرَقّـشًا بـضبابِ

فـإذا دجـا دارتْ بـه أكوابـهُ مُتَرَنّحًـا بمـشفّف الجلبـابِ

مـن قهـوةٍ فِـضِّيَّةٍ رقـصتْ عـلى جنباتها في الكأس زُهْرُ حَبابِ[2]

محبوبـهُ مـن فـضّةٍ، وإلَهُـهُ مـن عَـسْجَدٍ، متمنّعًـا بقبـابِ

وقال في آخرها مخاطبًا أَمثاله:

أَتوحّدونَ بلفظكـم؛ وقلـوبُكُمْ مـشغولةٌ بتعـدّدِ الأَربـابِ!

- ووصف المنافق[3]: فقال:

وكـم غَـوِيٍّ تُـشِيبُ الليـلَ جَهْلَتُـهُ شِعارُهُ حين يَلْقى الناسَ مِسْباحُ!![4]

- وكان من رأيه أنْ تجتنب المرأةُ الانغماس في الشّكل العصري للحياة التي وردت من الغرب، ورآها درّةً من حقها الصَّون[5]:

أَخْلِـصِي للقـرينِ إخـلاصَ مَـنْ يعـ ... ـلَمُ أنّ الحيـاةَ في الإخـلاصِ

نِعْـمَ مثـوى الفتـاةِ دارةُ زوجٍ فاسـتقرّي يـا دُرَّةَ الغَـوّاصِ

وعاب على مجتمعٍ يرفعُ الرّجُلَ لأنه غنيّ، فإذا سأَلت عن أعماله (خدماته

(١) أم حباب: الدنيا.

(٢) القهوة من أسماء الخمرة. (وفي كتب اللغة تفصيل).

(٣) الديوان ٢: ١٥٠.

(٤) يخدع الناس بالمسبحة!

(٥) ديوان البِزم ٢: ٢٩.

للناس والمجتمع) أَو قيمته العلميّة والاجتماعية، لم يُجبك أحد بشيء!.. وجعَل الشاعر عنوان إحدى قصائده: (دَهْرٌ يمزح) وفيها[1]:

عــبرَ الطّريــق وكُلّهــم يَعْنُــو لــه ... وقلــوبُهم تهفــو إليــه وتَجْــنَحُ
فمشى وقد لعبَ الغرورُ بعِطْفِهِ ... ثَمِــلَ الجــوانحِ معجبًــا يــترنَّحُ
فــسألتهم: مَــنْ ذا؟ فقيــل ممــوَّلٌ ... يُــشْقِي إذا شــاء الــبلادَ، ويُــصْلِحُ!
رفع الصُّروحَ الشامخاتِ وحَوْلَهُ ... مُهَــجٌ تَمــزّزُ[2] مــن ثــداه وتكــدحُ
بلــغ الثريــا بــالثراء فبيتــهُ ... في قُنَّــةِ العليــاء لا يتزحــزحُ
فــسألتُ: مــا أعمالُــه؟ فــتَرَدَّدُوا ... ومــضَوْا وكــلٌّ مُفْحَــمٌ لا يُفْــصِحُ[3]

.....

ســدّدْ خطــاك فــما الثــراء برافــعٍ ... ولــئن رُفعــتَ، فــذاك دهــرٌ يمــزحُ!

وعالج قضية الغِنى في قصيدة (المجد الكاذب) وجعل الغني خصيمًا له (ولم يُسَمّه، والظاهر أنه شخصيَّةٌ حقيقية) فقال[4]:

يفاخِرُنــا جهــلًا بمــن صُــمّن الثّــرى ... رويــدكَ بعــضُ الفخــرِ للعــارِ أبْعَــثُ
ولــولا فُــضولُ المــال مــا كــان سيّدًا ... ولكنّهــا العليــاءُ والمــالُ تــورثُ!

وصرّح بأن المال لا يشغل باله، ولا يقوده حُبّه أو الحرصُ عليه. لقد اغتنى

---

(١) ديوان البِزم ٢: ١٢٧.

(٢) تمزز تأكل المُزّ. وهو ما كان طعمهُ بين الحلو والحامض. يقول إنّه يأكل هٰذا الطعام الجافي (لفقره وحاجته).

(٣) كأنه نظم عبارة اشتهرت عن عمر رضي الله عنه: «إني لأرى الرجلَ فيعجبني فإذا قيل لي: لا صنعة له سقط من عيني».

(٤) ديوان البِزم ٢: ١٢٦.

طويلًا، ثم صار مستورَ الحال. ولا بأس! ومن شعره في هٰذا الباب[1]:

إنّي امـرؤٌ وبنـاتُ الـدَّهرِ تـشهدُ لي لا أنْـدُبُ الـذّهبَ الوهّـاجَ إنْ ذهَبـا

الهجاء والتَّعريض

في حياة البِزم أكثر من خصومة مع بعض معاصريه، وهي خُصومات من نوع خاصّ، وينبغي أن يضاف إلى العبارة: «خصومات البِزم».

- ومن خصوصيّتها أنها ترقُّ فتكون نوعًا من **الدُّعابة**... وهي دُعَابَةٌ قد تتطور لتكون **دعابةً ثقيلة**. (وقد مرّ الكلامُ في هٰذا).

- ومن ذلك **انتقالها من الحقيقة إلى الخيال**. وهو خيال فني (نثري شعري) فإنّ «**الجحيم**» أو **طلائع الجحيم** هو «حوارات» واسعة، مطوّلة، استحضر فيها شخصيات معاصرة له: فيهم من هم مكمّلون للمشاهد مثل استحضار شخصية اللغوي المشهور أنستاس الكرملي، وفيهم مَنْ أراد حوارهم «**حوارًا ساخنًا**» يصل إلى اللّذع.

- ومن خصوصِيَّةِ خصوماته ارتقاؤها **من العتبِ إلى الحَردِ**[2].

وقد علّل إسماعيل عبد الكريم هٰذه النقمة - كما سمّاها[3] - وهو يتحدّث عن تطلع البِزم إلى عضوية المجمع: «ولكنّ **أبواب المجمع أُوصدَتْ في وجهه لاعتباراتٍ شخصيّة**، مدّةً طويلة»[4].

---

(١) ديوان البِزم ٢: ٥٧.

(٢) حَرِدَ عليه حَردًا: غضب، واغتاظ، فتحرّش بالذي غاظه وهَمّ به، فهو: حَرِدٌ، وحارد، وحَرْدان.

(٣) شعر محمَّد البِزم - إسماعيل عبد الكريم: ٤١.

(٤) المرجع السابق: ٤١ - ٤٢.

وفي بعض قصائد الهجاء يجتمع التعريض[1] والوعيدُ معًا: ويذكر هنا من يحاول الغَضَّ منه، وإلصاق معايبَ فيه[2]:

عَيَّرْتَنِـــي كـــأس الطِّـــلى ... وحَـسوْتَ في الظلـماءِ دَنَّـكْ!
وأجلْـتَ سـاجي الطَّـرف يسـ ... ـقي القـومَ في ناديكَ صَـحْنكْ
ولحـــوتَ غُـــصْنِي عـائبـــاً ... وعفَفْتُ فاستبقيتُ غُـصْنَكْ[3]
فاحـذرْ - هُـدِيتَ - قَـوارعِي ... جَوّالـــةً، واســـتَبْقِ ركنـــكْ
لا حِـــصْنَ يَـــدْفَعُها ولـــو ... كانـت ذُرا الجـوزاءِ حِـصْنَكْ!

- وعَرّض بمجهولٍ في قصيدةٍ، ووصفه بالمُخادع: شاكيًا ما جرى عليه منه، ناعيًا صحبة حسنةً بذلها له... معرّضًا به دون أن يسمّيه[4]:

ومُخـــادعٍ يُبـــدي الـــولاءَ مَنَحْتُـــه ... وُدًّا يَعِـــزُّ عـــلى الزّمـــانِ مِثالُـــهُ
وصَـحِبْتُهُ، وظننـتُ - غـيرَ موفّـقٍ - ... أنّ الفتـــى بيَـــدِ الوفـــاءِ حبالُـــهُ
حتـى إذا وثَـبَ الزّمـانُ وناهـضَتْ ... أَحداثُـــه، وتقلّبـــت أَحوالُـــهُ
ألفيتـــهُ الخَـــصْمَ الألَـــدَّ ولـــو رأى ... سـاحًا يـصولُ، قـضى عـليّ صِـيالُهُ!

وحريّ بمثل هٰذه النصوص: قِطَعًا، أو قصائدَ تامّةً أو أجزاءً من قصائد أنْ تكونَ رَصْدًا شخصيًّا لأحوالٍ تخصُّه، أو لأمورٍ جَرتْ على غيره، فهو يُسَجّلُها

---

(١) التعريض، في رأي ابن رشيق أهجى من التّصريح: «لاتّساع الظنّ في التعريض، وشدّة تعلّق النّفس به، والبحث عن معرفته».
- العُمْدة في محاسن الشعر وآدابه ٢: ٨٤٩.

(٢) ديوان البِزم ١: ٣٠٤ - ٣٠٥.

(٣) لحى الشجرة والعصا: قشَرَها، ولحى فلانًا: عابه وقَبَّحه.

(٤) ديوان البِزم ٢: ١٣٨.

– ولكنه يتعاطفُ معها – فهي بين أحوالٍ تُشبه الأخبار، وأخبارٍ لها علاقةٌ بالشاعر على وجهٍ من الوُجوه.

– وفي ديوان البِزم **حَملاتٌ لا تهدأ على مَجْهُولين**: أسماؤهم غائبة، وصفاتُهم ظاهرة: فيهم مَنْ تولّوا المناصب وهم ليسوا أهلًا لَها، ومَنْ نظم الشعر ولا موهبةَ له، ومتظاهرون بالدِّيانة والصيانة وهم منغمسون في الفساد، وشعوبيّون يتظاهرون بالعروبيّة...

– وله من قصيدة[1]:

وأعجبُ شيءٍ يؤلمُ اللُّبَّ وَقْعُه ... جسومٌ هي الأَرماسُ في النَّاسِ تخطِرُ

يَغصُّ بهم في حلقةِ الحفلِ مجمعٌ ... وإن رِيمَ حُرُّ الشّعر والنثر قصَّرُوا

منائحُ ألقابٍ ونعتُ ضلالةٍ ... يبيتُ لها قلبُ البيان يُفَطَّرُ

مَوالٍ شعوبيون قلبًا ونَزْعَةً ... لهم عِمَمٌ عن مَوْطنِ الجهل تُحْسَرُ![2]

عباديدُ نعّارونَ في غَيْرِ طائلٍ ... لهمْ في انحطاطِ الضّادِ رِبْحٌ ومَتْجَرُ

يقولون: «شعرٌ عبقريٌّ» فَتَشتكي ... إلى رَبِّها والإنسِ والجِنّ عَبْقَرُ!!

وهٰذه الشكاوى المجتمعة ممّا يرى في زمانه، وممّن لهم سطوةُ قُدرة أو سطوةٌ أدبيّة لها نظائر حين شكا ممّن أفسدوا النحو وصعبوه على الناس... (وقد مرّ الكلام في هٰذا).

وصوتُ محمَّد البِزم عالي النبرة وهو يَذْكُر العربَ وأَمجادهم، ويكرّر انتماءَهُ العربيّ الأصيل؛ وانتسابه إلى دمشق. فإذا وصل إلى الشام عامة ودمشق خاصة نبضَ

(١) ديوان البِزم ١: ٢١٨.

(٢) في ثبت مشروعات كتبه ظَرْفٌ امتلأ بجزازات تخص كتاب (المَوالي).

عرقٌ بكلّ ما يستطيعُ من حيويّة ليذكرَ مآثرَ الشّام في التاريخ والحضارة، ويفخَر **بما صنَع بنو أميّة للأمّة** من مَجْدٍ وتاريخ وبناءِ دولة، واستبحار علوم، وامتداد فتوح، وانتشار عدل...

وينتقل الشّاعرُ في مثل هٰذه الملامح من الإشارات التّاريخية والحضارية **إلى الفخر بانتمائه إلى ذلك كلّه**:

قال في قصيدة في رثاء أحمد كردعلي[1] (وهو أخو الأستاذ الرئيس محمد كردعلي):

بنو عبد شمسٍ في الدّراري، نِجَارُهم ... نجـــومٌ بآفـــاقِ الزّمـــانِ فرائـــدُ

أُساةٌ لِصَدْعاتِ الخطوبِ، سيوفُهم ... لجـرحِ الليـالي المرهفـات مَـراوِدُ[2]

واسترسل فذكر من مآثرهم، وامتداد الدّولة شرقًا وغربًا، وتوغلّهم برًّا وبحرًا، حتى قال:

وسِـيقَ الجـواري المـاخِراتُ كأنهـا ... جبـالٌ جَـرَتْ فـوق الخِضَمّ موائِـدُ[3]

عليهـا **رجـالٌ عبـشميّون** مـا غفـت ... لهـــم هِمَـــمٌ داراتُهـــنَّ الفَراقِـــدُ[4]

أولئـــك آبـــاءٌ لنـــا طـــارَدَتْهُمُ ... مـن الـدّهرِ أحـداثٌ فضاقَتْ مطـاردُ

الإخوانيّات

كان في أصدقاء البِزم المقرّبين، ممن ورد ذكر لهم في الديوان: خير الدين الزركلي وأحمد عبيد.

---

(١) ديوان البِزم ١: ١٤٢.

(٢) الأساة جمع الآسي. وهو الطبيب. والمَراوِدُ جمع المِرْوَد: المِيلُ من زجاج أو معدن يُكْتَحَلُ به. (يريد سيوفهم تعالج المشكلات وتصونُ وتحمي).

(٣) موائد من مادَ يميدُ.

(٤) الجواري: السُّفن. وعبشميون: (من بني عبد شمس - أمويّون).

وقد خاطب البِزم زميله القديم، وصديقه خير الدين الزركلي بقصيدة على رويّ النّون عارض بها قصيدة مشهورة للزركلي، وكانت قصيدتُهُ حنينًا - من الغُربة - إلى الوطن، وتغنيًّا به. فخاطب البِزم صديقه شاكيًا من الوطن نفسه، قال في أوّلها(١):

لا تَبْكِ أوطانًا ولا سكنا ... يا (خير) وانشُدْ غيرَها وطَنا
فبذا جرى حكم القضاء بنا ... أنت الغريبُ معذّبًا وأنا
ثاوٍ على الفيحاءِ ذو أرقٍ ... متحرّقٌ أتصيَّدُ الوسنا

قال فيها:

لا عيشَ للعربيّ في وطنٍ ... رَبُّ السّيادةِ فيه **مَنْ رَطَنا**

- فالشاعر مؤرّق، ضاق به وطنه - على تلك الحال - والاستعمار جاثمٌ.

واسترسل البِزم إلى ذكرياتٍ له مع الزركلي (والصحب):

أذكرتَني (قلمونَ) ناضِرَةً ... جَنَّاتُه تُوحي لنا اللَّسَنا
أيّام ننحو الرّوضَ نهصر في ... ذوب اللُّجَينِ من المنى فَنَنا
فأثرتَ مِنّي غيرَ متّئدٍ ... شَجْوًا أناءَ بثقلهِ البَدَنا

فمزج البِزم بين حاله الشخصية وبين حال الوطن مَزْجًا تعوّد قارئ شعر البِزم عليه.

ونظم قصيدةً، تحيّةً لأحمد عبيد بمناسبة عودته من الحج أَوّلها(٢):

شبّ بك الشّوقُ إلى دارها ... بَنِيّةٌ تَدْفَعُ عن جَارِها

بدأها بالكلام على المشاعر المقدّسة من الكعبة المشرفة والمسجد الحرام وسائر المشاعر، وذكر ثواب الحجّ، ورِبْحَ تلكَ «التّجارة الإيمانية».

---

(١) ديوان البِزم ١: ٣١٠.

(٢) ديوان البِزم ١: ٢٧٥.

وقال في مقطعٍ آخرَ من القصيدة يخاطبُ صديقَهُ:

فَقُلْ لنا والقولُ من «أحمدٍ» نحمَدُهُ في سَرْدِ أَخبارِهَا
وحدّثِ الإخوانَ صَدْرَ الدُّجا بما يُذكّي عزمَ سُمّارِها[1]
وكيف ألفيتَ بها زمزمًا مفخرةَ الأرضِ بآبارِهَا

والشعر عاطفي رقيق فيه أَشواق ذاتية من وراء تلك الأوصاف التي عرفها وحفظها لتلك الأماكن والبقاع الكريمة.

- وقال في مقطع ثالث؛ في لمحات إيمانيّة يخاطب «الحاجّ»:

فهل تُرى تذكُرني عندما تساءَلُ الأنفسُ عن دارِها
أَجَنَّةٌ تزهُو بأبرارِها أم سَقرٌ تَرْغُو بأشرارِها

ودَعا له بالقبول، والجنّة. وتخيَّلَ نفسه في ذلك الموقف:

أحومُ حولَ الخُلدِ أشكو الذي يشكوهُ ذو الشَّوق لأقمارِها
ثاوٍ على الأعرافِ لا أنثني يَصُدّني شاهقُ أسوارِها
مستعطفًا بالشّعر رضوانَها رقائقًا تُزْرِي بمهيارِها!

- والإشارة إلى مهيار الديلمي. يقول: في ذلك الموقف سوف يستعطف رضوان خازن الجنان عسى أن يدخل الجنّة، ويغادر الأعراف.

وختم بهٰذين البيتين:

قد ينفع الذِّكْرُ بأهْلِ النُّهى ويُرتجى الخيرُ بأخبارِها
وكُلُّنا لولا التّقى والحِجَا من معدنِ الأرضِ وفخارِها

(١) الأصل في ذكّى النارَ وأذكاها: أوقدها. واستعملها الشاعر مجازًا لتحريك المشاعر الإيمانيّة.

- وهنأ الشاعر صديقه بدر الدين الصفدي بمولودٍ، وتحدّث مع صديقه عن ولديه: السّابق والجديد، وأثنى عليهما، ورَجا لهما أيامًا قادمةً طيّبةً، ومما قاله[1]:

ليهنــكَ ذا اليــومَ أُفكوهتــانْ وفي القــادمِ المُرتَجــى دارعــانْ
إذا اشـتقت يومًـا إلى المهرجـانْ أباحـاكَ مـن نَـسْمةٍ مهرجـانْ
يَــزِينُ صَــبُوحَك ريحانتــانْ ويُنــشِي غَبُوقــكَ أُغرودتــانْ
وإن رُمْتَ فردوسَ هٰذي الـدُّنا سَــمتْ لــك وازّينــت جَنّتــانْ

وتجري أبيات القصيدة على هٰذا النمط من الرقّة اللغوية والعُذوبة، والحيوية، والبساطة، والانسياب، وهي تمثل الوجه الآخر من أسلوب الشاعر في صنعته الشعرية.

الرثاء

يشغل قسم الرثاء من الديوان ما بين الصفحة ٨٣ والصفحة ١٧٢ من الجزء الأول وفيه «تسع قصائد»: رثى فيها شخصيات من سورية، ومن أقطار عربية أُخرى. وتطول بعض هٰذه القصائد طولًا شديدًا كقصيدته في رثاء شكيب أرسلان.

وهو يسترسل في الكلام على الشخصية المرثية من جوانب مختلفة ويغتنم الفرصة ليقدّم آراء في «الدنيا» عامة، وفي قضية الحياة والموت.

وفي مطلع قصيدته الأولى: **مصرع الحق**[2] أبيات افتتاحية، قبل أن يصل إلى المرثيّ والكلام عليه. قال:

غالــب الــدّهرَ إن اسْـطَعْتَ غلابـا وانتـزع مـن كفّـه الحـقّ اغتـصابا
ضــــلّةٌ منــــا ومــــن آبائنــــا عَـذَلَ الـدَّهرِ، وقـد أعيـا جوابـا

(١) ديوان البِزم ١: ٣١٤ - ٣١٦.

(٢) ديوان البِزم ١: ٨٣ - ٩١.

يُحسن العتبَ ضعيفٌ ضارعٌ فاتَّرِكْ للضَّارعِ الغِرّ العتابا
فبَناتُ الدهرِ ليست تأتلي ببني الدهر طعانًا وضِرابا[1]
كل يوم غارة رجراجَةٌ تعلقُ الأرضَ وفودًا وإيابا

ومرّ سبعة عشر بيتًا من هٰذه المقدمة قبل أن يبدأ الكلام المباشر:

صَدع النّفيُ فلم يتركْ حشًا راكبًا من خافقِ البرقِ ركابا
وجَفَ الشامُ له مُستَعْبِرًا مائدَ الأَطرافِ سهلًا وهضابا
هاجها دكناءَ ليلًا صبحُها تقرعُ الأكبادَ وقدًا والتهابا

ويتوإلى الكلامُ على الفاجعة، ويستعين (من حيث الأفكار العامّة) بما استرسل في أشعار الرثاء وصولًا إلى المدارك الإسلامية:

صَدع المشرقَ في أحشائه أجلٌ وافقَ من نفسٍ كتابا
ورمى جلّقَ في خافقها قدرٌ يصطاد في الجوّ العُقابا

ويبالغُ - بل يُسرف - بعد ذلك:

قدرٌ أرعنُ فظٌّ ما درى أضلالًا جاءَ، أم جاءَ صوابا
أَيّدٌ، لو قرع الشهبَ هوتْ تنتحي الأرض شهابًا فشهابا

ويوظف المعالم الإسلامية والملامح الدينية في مقاصِد رثائه كلما كان الموقفُ يسمحُ بذلك أو يستفيدُ من ذلك، كقوله في رثاء الحسين[2]:

---

(١) بنات الدّهر: حوادثه، ومصائبه، ونوائبه (المضاف المنسوب للثعالبي ١: ٤٣٢) وكنى المتنبي عن الحمّى بـ(بنت الدهر) على المنهج نفسه:

أبنتَ الدّهر عندي كل بنتٍ .....

- وبنو الدهر: أهله في كل زمان.

(٢) ديوان البِزم ١: ٩٢. (وهو الحسين بن علي شريف مكّة).

سـائلوا الأنجـمَ في أفلاكهـا فهي تدري أَوْجَهُ في الخالـدينْ
وسـلوا أُمّ القـرى عـن ربّهـا قبل حينٍ، فهي أَدرى بالـدّفينْ
والمسوا الـنعش تَـرَوْا جدرانَـهُ تتنـدى بلبـانِ المرسـلينْ
وانظروا هل زحفَ الطّورُ إلى جانبِ الأقصى مع المختلفينْ[1]

ونلاحظُ هٰذا الحشدَ من الملامح الدينيّة، وهٰذا الضّجيج في الألفاظ والعبارات، وهو يرى - كما يبدو - أن لذلك أثرًا في تثبيت قضيّة الرثاء في القصيدة، وفي إضفاء ثوبٍ من الإجادة عليها، وقد قال بعد ذلك.

وبكـتْ زمـزم أم غاضَـتْ بهـا نُطَـفٌ تَـشفي أُوارَ الزائـرين

- وقصيدة الرثاء في ديوان البِزم طويلة، وفي قسم الرثاء أطول قصيدة في ديوانه:

- والشاعر يهتم بالمتوفّى: يوفّيه حقّه من ذكر مآثره، ومحاسن أعماله، وما قدّم للناس من خير، ويمرّ بالكلام على أثر وفاته في أهله وصحبه ومَنْ حوله، فإن كان شخصية عامّة ذكر أثر غيابه على الوطن والقوم عامّة.

ويستطرد في قصيدة الرثاء بما يناسب المرثيّ، ففي رثائه لشوقي مثلًا استطرد إلى الكلام على «الشاعر»[2]:

إِنّـــما الـــشّاعرُ في أُمَّتـــهِ مُرْسَـلٌ مـن رَبّـه لـو يَهْتَـدونْ!
زورق مـــن رحمـــةٍ في لُجّـــةٍ زَخـرتْ بـالآثمينَ الغاشِـميْنْ

- إلى أن قال[3]:

---

(١) من **اختلفَ** إلى المكان: تردّد. يقول على المبالغة: انظروا جبل الطور فكان مع الآتين إلى المسجد الأقصى (مشيّعًا أو معزّيًا) تعظيمًا لوفاة المرثيّ.

(٢) ديوان البِزم ١: ١٠٤.

(٣) ديوان البِزم ١: ١٠٥.

خُلِـق الـشّعرُ لتعريـفِ العُـلا ولتمجيــدِ العظــامِ النــابغينْ
وقــديمًا مهّــد الــشّعر لِمَــنْ يبتغـي المَجْـدَ سـبيلَ الـسّالكينْ

- ورجع إلى شوقي يَذْكُر مآثره، ويقرّظ شعره، ويغتنم الفرصة ليهاجم الشعراء «الضّعاف»:

يــا أمــيرَ الــشّعرِ قــد غادَرْتَــهُ لعبادِيــدَ ضــعافٍ ضَــارعينْ
إِمْــرَةُ الــشّعرِ ومــا أضْــيَقها سِيمَتِ الخَسْفَ بأيدي الغاصبينْ
و«عبيــدُ الــشّعر» لا أذكــرهمْ أنــت أدْرى، وهــمُ عَــدُّ المئـينْ

وعلى عادته، لا يترك مجالًا ممكنًا إلا وتظهر فيه شخصيته، ولمحاتٌ من آرائه ومواقفه.

الحِكْمَة

كان استخلاص العبرة من الأَحداث جزءًا من عمله الشعري، وهو في ذلك يجاري كثيرًا من القدماء والمعاصرين، ونذكر ممّن يفضلهم البِزم أبا الطيب المتنبي، وأبا العلاء المعري، وأحمد شوقي، كقوله في آخر قصيدة قصيرة[1]:

رويدك لا تغضبْ فذي سُنَّةُ الورى وبعــد وصــال الغانيــاتِ صــدودُها

والبِزم يغتنم الفرصة صغيرةً أو كبيرةً؛ ليولّدَ منها عبارة يمكن أن تكون شَرُودًا أو حِكمةً تنطق من خلال الموقف...

وفي قصيدته التي اعتذر فيها عن عدم إنشادِه بنفسه، عَدّ ذلك إحجامًا من أدواتِه الصوتيّة عن مساعدته، وقال على سبيل الإجمال والخلوص إلى حكمةٍ أو ما يدخلُ تحت عنوانها[2]:

(١) ديوان البِزم ٢: ١٥٩.
(٢) ديوان البِزم ٢: ١٢٥.

وعُـذرًا فـبعض المـرءِ حَـرْبٌ لبعـضهِ وهـل يعـدم الإنـسانُ ضِـدًّا يحارِبُـهْ؟

- وكثيرًا ما تتولد الحكمة عند البِزم في أثناء الكلام على الحياة والموت، ومصاعب الحياة، وقد قال في قصيدة رثاء[١]:

يهـدمُ المـوتُ مـن الجـسم فـإن رامَ هـدمَ الـذِّكرِ والأفعـال خابـا

وكرّر هٰذه الفكرة - الحكمة - فقال في رثاء الملك فيصل[٢]:

يـذهبُ المـوتُ بالجـسوم ويُبقـي لـذويها إن اسـتحقّوا الخُلـودا

- وقال في ظلال آرائه عن الأخذ بالقوّة والحزم والحسم[٣]:

مـا رأينـا الحـقّ إلا قـوّةً يُـذعِنُ الحـقُّ لهـا في الـذاعنين

- وقال مستفيدًا من المقاصد التّراثية، والتمثيل بالنسور وبُغاث الطير[٤]:

إنّ النُّـسور إذا انْـبَرتْ وتجاوَلَـتْ لجـأ البُغـاثُ إلى حِمـى الأوكـارِ

- وقد تَتَسلسل أبيات الحكمة وتتوإلى، وهي تخدم الموضوع الأصلي كقوله[٥]:

وَدَعُونـا مـن «عـسى» إن: عـسى تُـورثُ القلـبَ الأسـى والأَلَمـا
لا يـرى العـزَّ الغنـى إلَّا إذا حـالفَ الحَـزْمَ، وأقـصى اللؤمـا

- وقال في قصيدته عن المتنبي[٦]:

---

(١) ديوان البِزم ١: ٩١.
(٢) ديوان البِزم ١: ٩٨.
(٣) ديوان البِزم ١: ١٣١.
(٤) ديوان البِزم ١: ١٦٥.
(٥) ديوان البِزم ١: ١٧٢.
(٦) ديوان البِزم ١: ١٨٣.

ومَـنْ أَلِـفَ المـوتَ الـزؤامَ حَلَـتْ لـه عـلى طـولِ مَـسِّ النازعـاتِ حناظِلُـهْ

– وقال في موضوع العلم والجهل، وقد استحوذ على كثير من اهتمامه في ثنايا ديوانه[1]:

ألا إن عــصرًا يَرْفَــعُ الجهــلُ أهلَــهُ ســتلعَنُه في مُقبــل الــدّهرِ أَعــصُرُ

وهٰذه الوقفات الحكميّة في ديوانه كثيرة مبثوثة في جزأيه.

٣– شعر البزم وخصائصه الفنية

الشِّعرُ والشَّاعِر

أكثر «قضايا» البِزم في ديوانه تَردُّدًا في قصائد مُستقلّة أو في ثنايا قصائد أخرى مطولة أو قصيرة هي **قضيّة «الشعر» موصولةً بقضية «الشاعر»**.

والكلام في الشعر والشاعر يجيء عامًّا، يصلُح لأَن يقال في كلّ شعر راقٍ، وكلّ شاعرٍ مُبدع. ولكنّه – أيضًا – كلام يخصُّ محمَّد البِزم. **وكلّما ذكَر «الشعر» و«الشاعر» فإنّ له من ذلك الذِّكْرِ نَصيبًا**...

وقد وقف د.شاكر مصطفى، وهو من تلاميذ البِزم، ومُحبّيه عند قضية الشعر في ديوان أُستاذه. وفي مطالعته أن «منزلة الشعر عنده بمنزلة الوحي، ولولا عميقٌ من الرهبة الدينية لجعله تنزيلًا من التنزيل. فهو لديه شيءٌ لا يوصَفُ كُنهه، ويتأبّى على التّعريفِ رغم محاولات العلماء. وهو صُوَرُ العُقول، ومثال العبقريّات، والنبوغ. وأينَ الفلسفةُ منه، وهي تبعثُ على الكآبةِ لأنها تفتقد الجَمال. والشعرُ ناطق ساحرٌ قويّ لا يقلّل القِدَمُ شيئًا من هيبته أو جلاله وجماله وطرافته أو سحره وقوته».

(١) ديوان البِزم ١: ٢٢٣.

وتابع د. مصطفى وهو يقتبس من كلام البِزم، ويعلّق عليه:

«**وليس عجيبًا أن يتعصّب شاعِرٌ للشعر** وهو صنعته التي يُباهي بها. ألسنا نجد إلى اليوم شعراء يقولون: الوطن الذي يلغي شعراءه يلغي نفسه؟ وما أشقى الأوطان التي لا تحميها كلمات الشعراء. إنك لن تجدَ فيها فكرًا ولا حياةً. تأليه الشعر جزءٌ من الشعر نفسه» انتهى[1].

وإذا كان البِزم يورد كلمة «وحي» وما شابهها على وجهها اللغوي، وعلى أساطير العرب القدامى، فإنه يبقى في استخدامها دليل على ذلك الإكبار والتقدير.

والشاعر - كما يصفه البِزم - «أُمَّةٌ من نفسه» و«جَحْفَلٌ من قلبه»[2] وهو أيضًا:

يَزْهُـو عـلى الجبّـارِ في سُـلطانِه ... بمـسوّماتٍ تحقـرُ التّحجـيلا

وإذا ترفّـق خِلْـتَ مـن ألفاظِـه التـ ... ـتوراةَ والفرقـان والإنجـيلا

والشعر ليس أوزانًا تصاغ[3]، ويخاطبُ البِزم مجهولًا:

فـلا تَـبجَّحْ بـأوزانٍ تُرتّلُهـا ... فـما القـريضُ لَعَمْـرُ الـشّعرِ أَوزانُ!

على أن لدى البِزم تفصيلًا لتعريف الشعر، وتوصيفه[4]:

الـشعر مـا مـلأ الأَسـماعَ شـاردةً ... وخالَـهُ رَبُّـهُ وحيًـا وإلهامـا!

والـشعرُ مـا أقْحَـمَ الأقـوامَ قاتمـةً ... هيجـاء، يَنْقُـفُ فيهـا الفيـصلُ الهامـا

والشعرُ ما امتزجَتْ شتّى النّفوسِ بـه ... فطبّـقَ الأرضَ إنجـادًا وإتهامـا

والـشعرُ مـا هـزّ ذا بُخْـلٍ إلى كـرمٍ ... طوعًـا، وجَـلّى عـن الأفكـارِ إبهامـا

---

(١) مقالة د.شاكر مصطفى: ١ - ٢.

(٢) ديوان البِزم ٢: ٧٥.

(٣) ديوان البِزم ٢: ١٠٢.

(٤) المصدر السابق ٢: ١٠٧.

والـشعرُ مـا إن وعـاهُ العـاقلونَ نَـضَا عنهُمْ - وقد أَلِفُوا الأوهـامَ - أَوهامـا
إن أُسْــمِعَتْهُ فتــاةُ الخِــدْرِ هَــذّبها وإن وَعــاهُ فتًــى ذو صَــبوةٍ هامــا
تَنْـدى بـه الكَبِـدُ الحَـرّى وينـزلُ مـن بـؤس النّفـوسِ عـلى الـلّأواءِ أَرْهامـا

- (الرهمة: المطرة الضعيفة الدائمة، وهيَ داعية خصبٍ ونماء).

وهٰذه خصائص فنيّة للشعر يشترطها البِزم في المنظوم لكي يُعَدّ عنده شعرًا. فإذا كان ذلك ظهرت للشعر هٰذه المزايا الكثيرة.

والشعراء عنده نوعان: **سادة الشّعر، وعبيده**[1]:

يـا عبيـد الـشعر قـد أبـ ... ــرَمْتُمُ الليــل دبيبــا
وأغَــــرْتُمْ فتركــــتُمْ شــاعرَ القــومِ ســليبا!

في صَنْعَةِ الشِّعر

ننتبه قبل الدخول في تفصيل صنعة الشعر في ديوان محمَّد البِزم إلى عدد من الأمور:

الأول: أَنّ للبِزم مزيّةً على غيره من شعراء العصر هي استبحارُه في حفظ اللغة، ومعرفة أسرارها، والقدرة على استعمالها لمقاصدها. لقد حرص البِزم في نثره وشعره على سلامة اللّغة، وتماسك العبارة، وقُوّة ترابط الكلام بعضه مع بعضه الآخر... وهٰذه خصائص يشترك فيها شعر البِزم (ونثره) جميعًا.

والثاني: أن من منهج البِزم التّعليمي تلقين طلابه اللغة وتحفيظهم من مفرداتها عن طريق النصوص العالية الحسنة المعلّمة... وانتقل هٰذا الملمح ليصبح هاجسًا له... فكأنّه يريد لقارئ شعرِه أن يفيدَ كما أفادَ طُلّابُه...

(١) ديوان البِزم ٢: ٨٢.

والثالث: احتشاد النّصوص الشعرية العربية الغزيرة – التي كان قد حفظها وأتقنها – في وجدانه، وانثيالُها – قَصَد أو لم يقصد – في أثناء أشعاره...

- ثم ينقسم الكلام على أسلوب البِزم قسمين.

فالأقربُ إلى البِزم **بناء النص الشعري على الأسلوب العربيّ الأَصيل**: من حيث بناء العبارة الفخم، واستخدام المفردات التي يقال عنها اليوم (غريبة)، والتي كان بعضها على أيّام البِزم غريبًا.

ولا بد من كلمة في معنى (الغرابة) عنده. لقد حفظ من اللّغة القدر العظيم، وصنع معاجم للغريب والنادر والشارد في موضوعات شتّى، وطوّع مفردات كثيرة لتكون لَبِنَاتٍ في صنعة الشعر. فهي غريبة عند جمهرة القراء، وقد يكون بعضها كذلك عند المثقّفين الثقافة العربية السّائدة، التي يحتاج صاحبها إلى الاستئناس بالمعجم إذا قرأ من شعر البِزم وشعر غيره من الفُحول ذوي المعاجم اللغوية الشخصية الواسعة كالبارودي وشوقي وبدوي الجبل والجواهري.. (وقَلَّ هٰذا في شعر الزركلي وحافظ وأمثالهم).

- وفي ديوان البِزم في جزأيه قصائد بناها على أسلوبٍ أكثر سلاسةً، وأقلّ غريبًا. وقد تخلو القصيدة – وأخص الجزء الثاني بمزيّة – من الغريب.

(أ)

وأكتفي بعرض شيء من شعره في طرفيه لتقريب هٰذا الذي أذهب إليه. وأَبدأ بقطعة من قصيدة يحتاج أكثر أبياتها إلى شرحٍ لغويّ في الحاشية أو إلى إيضاح مقصد واضعًا في النظر القارئ المتوسَط من جهة، والتدليل على ما أَذهبُ إليه من ضرورة شرح كثير من شعره إذا حقّق ديوانه.

قال البِزم في مطلع قصيدته في رثاء الملك غازي (بن فيصل) ملك العراق[1]:

إلى بغـــداد مَثْـــوى المَكْرُمـــاتِ ومـــأوى العِـــزّ والـــصِّيدِ الأُبـــاةِ[2]

تجـــوبُ بيَ الـــسباسبَ عاريـــاتٌ عجـــولٌ؛ طبعُهـــا غـــيرُ الأَنَـــاةِ[3]

تخاوَصُـــها الفراقِـــدُ في سُراهـــا فيقـــرعُ لحظُهـــا صَـــدْرَ الفـــلاةِ[4]

مـــشرّدةُ الكـــرى، ولْهـــى أَمـــونٌ عـــلى الأهـــوال صـــادقةً العِـــداتِ[5]

---

(١) ديوان البِزم ١: ١٣٢ - ١٣٣.

(٢) ثوى بالمكان: أقام واستقرّ. والمثوى: المقام. والصِّيدُ جمع أَصْيَد (وصيداء): المتكبّر المزهوّ بنفسه، وكلُّ ذي حَوْلٍ وطولٍ من ذوي السُّلطان. [المعجم الوسيط]

- وفي شعر المتنبي في كافور:

أقومـــك البـــيضُ أم آبـــاؤك الـــصِّيدُ؟

يقول: إنه متجه إلى بغداد: دار المكرمات، وعاليات الشمائل.

(٣) **جاب البلاد**: سار فيها، أو قطعها.

و**السّباسب**: جمع سَبْسَب: المفازة.

و**العاريات** جمع عارية من فعل عَرِي؛ وعَرِي الفرس لم يكن عليه سَرْج.

و**عجول** من عجِلَ: أسرع. وهو وهي: عَجُول.

(٤) **الفراقد** جمع الفَرْقَد: نجم قريب من القطب الشمالي، ويسمّى النجم القطبي. والفرقدان: النجم القطبي ونجم آخر بقربه مماثلٌ له أصغرُ منه. ووردت: الفراقد أيضًا.

- و**تخاوصت** النجوم: صَغُرت للغؤور. وخَوِصَتْ عينُه: غارت وضاقت.

يقول: إن الفراقد إذا رأت الراحلة المُسرعة سرعة أسطورية: تحدّق وتضيّق من طرفها لتستطيع الرؤية مع السّرعة. والمطية في أثناء ذلك تخترق أجواز الفلاة.

(٥) **ولهى**: من وَلِهَ: وفي معانيها: ولهت الأمّ إلى طفلها: حَنّت إليه. والولهى: الثكلى والمعنى الأول أولى بالسياق.

و**الأَمُون**: المطية المأمونةُ لا تعثرُ ولا تفتر.

و**العدات** جمع العِدَة: الوعد. والمطيةُ تَعِدُ صاحبها بالسُّرعة، والصبر على السفر، واجتياز المسافات بلا كلل. =

محرّقــــةُ الفـــؤادِ فلــيسَ تخــشى فــراقَ الإلــف أو غَــدْرَ الثقــاتِ[1]
تطالِعُهــــا الأوابــــدُ نــــافراتٍ فَتَــذمَرُ مــن قلــوبِ النــافراتِ[2]
تُجَمِّـــشُها الريــــاحُ فــــلا تبـــالي بتجمـــيش الرّيـــاحِ الــسَّافياتِ[3]
وتُرســـل في الـــدُّجَا لَحْظَـــيْ هِزبْـــرٍ فتخــرقُ مِــن إهــابِ الــدّاجياتِ[4]
إذا رقــصَ الــسَّرابُ لهــا اطمأنّــت وصَــدّت عــن بــوارقَ خادعــاتِ[5]

= **مشردّة الكرى**: هجرت النوم، فهي تصلُ سرى الليل بسير النّهار. ومثلُه:

دعوتــكَ للجفــن القــريح المُــسَهّدِ لــديّ وللنــوم القليــل المُــشَرَّدِ

(١) **حَرْق الفؤاد**: مجاز، يقول هٰذه المطيّة تمضي مصمّمة لا تبالي. وقد فرغت مما يَشْغَلُ البال: فلا إلف تخشى فراقه، ولا ثقة - لديها - تخشى غدره. تَركَتْ ذلك كلّه، وهَمُّها منصبٌّ على بلوغ الغاية، وقطع المسافة.

(٢) **الأوابد** جمع الآبدة: **وأوابدُ الوحش**: التي توحّشت، ونَفرت من الإنس. ويكثُر الكلام على الأوابد في الجبال.

- **وذَعره**: خوّفه وأَفزعه. وذَعِرَ: دَهِش.

وإذا صحت رواية البيت على هٰذه الصيغة فالمعنى أنّ نفور الأَوابد يُفزع المطية في طريقها، فتزداد جريًا وسرعةً؛ هكذا ضبطها الدِّيوان: فَتُذعَرُ.

وإذا قرأناها: فَتُذْعِرُ، أي تُفْزِعُ هٰذه المطيّةُ المسرعةُ قلوبَ الأَوابد، إذ لا عَهْدَ لها بمثلها.

(٣) جَمّشَ؛ يقال: جَمشَ المرأة وجَمَّشها: غازلها بقَرصٍ أو مُلاعبة.

و**السّافيات** جمع السّافية صفة غالبة للرّيح. ومعنى: سَفت الريحُ التّرابَ: ونحوه: ذرّتهُ أو حَملته، فالريحُ سافية.

- يقول إن الرّياح تواجه المطية، وتبدو وكأنها تجمّشُها من شدّة الملامسة لشدة السُّرعة من كلا الطرفين: الرياح والمطية.

(٤) **الهزبر** من أَسماء الأسد. **والإهابُ**: جلد الحيوان قبل دبغه، أوردها لمعنى الجلد مطلقًا. ثم أدار الكلام على المجاز فجعل لليالي الداجية إهابًا تخترقه عينا المطية التي تشبه ناظري الأَسد.

(٥) **السَّراب** معروف، وعَبَّر عن حركته التي تظهر للعَيْن بالرّقص لأنها تبدو كالماء المتحرّك. =

فلــو لاذتْ بهــا الــوَحْشُ الـضَّواري لأصــبحت الكـــواسرُ مرشــداتِ[1]
حسَتْ ضـوءَ الكواكـبِ حـين ظنّـتْ بوارِقَهـــا اضــــطرابًا في أَضــــاةِ[2]
وعَبّــت مـــن حيــاضِ الفجــرِ عَبًّــا وقــد نَهِلَــتْ خِـضَمَّ الحالكــاتِ[3]
ولــو كُـسِيَتْ جنَــاحَيْ ذاتِ طــوقٍ لأرهقـــت المَجَـــرّةَ بالحُـــسَاةِ[4]

= والبوارق جمع بارق. وبرقت السّحابة والسماء: لمع فيها البَرْق.

يصف الراحلة - لأصالتها - بالقُدرة الفائقة على الصَّبر على مشاق الطريق - بقلّة الماء فيه - فهي لا يَخْدَعُها السّراب ولا تكترثُ للبرق الخُلّب الخادع (الذي لا مطر معه).

(١) هٰذا البيت في تقديري في غير موضعه من القصيدة.

(٢) **حَسا الطائر الماء**: تناوله بمنقاره، و**حسا الرجل الحِساء**: تناوله جرعة بعد جرعة. و**بوارق الكواكب**: لمعانُها. و**الأضاة**: الغدير. واضطراب الغدير: لمعان الماء وبريقه من انعكاس الشمس أو الضوء عليه.

- على المبالغة، والتّخييل.

(٣) العَلَلُ: الشرب الأول؛ و**النَّهَلُ** الشُّرب الأول. يقال: شرب عللًا بعد نَهَل. و**الحالكات** جمع الحالكة صفة لِلّيْلَة.

- هٰذه المطية تخترق الزّمن: شربها الأَول من ضوء الفجر (جعل ضوء الفجر كصفاء الماء، فأجرى عليه فعل الشرب) وجعل شربها الثاني من بحر اللَّيل الواسع. والعرب تسمي النهر العظيم بحرًا كدجلة والفرات والنيل.

(٤) **ذات الطَّوق**: الحمامة المطوقة. وأراد الحمام مطلقًا.

والكلام على المطايا «العاريات» التي يمتطي واحدة منها، وتَجَنْبُه أكثر من واحدة.

ولو استطاعت أن تصل إلى المجرة بجناحين أسطوريين يشبهان جناحي الطائر لشربت منها وأكثرت الشرب حتى كادت تُرهقها.

و**المجرّة** معروفة: مجموعة كبيرة من الأجرام السماوية تتراءى من الأرض كوشاح أبيض يعترض السَّماء، وهي المجموعة التي تنتمي إليها شَمْسُنا وتدعى: دَرْب التبّانة أو: سكّة التبانة. وهي في الأجنبيّة: الطريق اللبني (ولهٰذا اللقب أو الاسم أسطورة عندهم).

- و**الحساة** جمع الحاسي: فاعل من حسا الشراب وغيره شربه شيئًا بعد شيء.

رسـولُ الخـير حـين الـسّلمِ صِرْفًـا وعنـد الحَـرْبِ إحـدى الكارثـات![1]

*** *** ***

هٰذا **المقطع من قصيدة البِزم في رثاء ملك العراق غازي بن فيصل** هو واحدٌ من أحد عشر مقطعًا، وفيه التفات من الشاعر إلى بغداد يريد الوصول إليها. فاختار مطية تردفها مطيٌّ أُخر لتكون وسيلته إلى هناك.

وقد صوّر الشّاعر لقارئه **مطية أُسطوريّة**: شديدة قوّيةً نشيطة، لا حدود لصبرها على السَّير في حالك الليل وفي رابعة النهار. وهي مصمّمة – على الأخطار المحتملة في الطريق – وخالية البال مما قد يشغلها فيؤخّرها؛ فهي: «ليس تخشى فراق الإلِف أو غَدْر الثقات» – تُرى هل هي تشبه شخصَ صاحبها في أحواله؟ – وهي من السّرعة بحيث تنفر منها الأوابد وتصكّها الرياح فلا تبالي، وتقتحم أهوال المجهول، وتكتفي بالزاد الذي زُوِّدتْ به قبل الرحلة، وكأنها – لذلك الصبر وذلك الجَلَدِ – تشرب من ضوء الفجر أو من بحر الليل، وهي، في همّتها، لو أُعِيرت جناحيَ طائرٍ، لوصلت إلى المجرّة وشربت من مائها. ولعل الشاعر شَبّه المجرّة بالنّهر كالذي تراه العين المجرّدة فيها، أو استفاد من اسمها عند الأجانب الطريق اللبني (واللبن هنا الحليب).

ثم أثنى في آخر المقطع على تلك المطية العظيمة، ومدحها بأنها تصلح لكل وقت، ولكل أَمرٍ: في سلم وفي حَرْب.

ومطية كهٰذه، تُوصِلُ صاحِبَها بهٰذه السرعة والدقة، وبذلك الصَّبر على أهوال

---

(١) وختم هٰذا المقطع من القصيدة ببيت يجري مجرى الحكمة على عادته في كثير من شعره.

هٰذه المطية رسول: تصلح للسِّلم خالصًا، وهي أيضًا شديدة الوطأة على العدوّ إن شُبّت للحرب نار.

الطريق واتّساع الفيافي جديرة بأن يقال فيها ذلك المديح.

وبدأ المقطع الثاني بقوله: «**إلى رَبَض العروبة....**» واسترسل حتى قال عن بغداد خاصة والعراق عامّةً:

إدارةُ مَحْتِـدي وقـديمُ فَخْـري ومُرْتـادُ النّوابـغِ والكُـمَاةِ

وتوالت مقاطع القصيدة، متواصلةً متناغمة إلى آخرها. وقد بناها الشاعر قصيدةً بدويّةً أَعرابيّة. وجعل رحلته على مطيّة أشبه ما تكون بالأسطوريّة، وذلك لكي يجعلها تصل من دمشق إلى بغداد بالسُّرعة القُصوى، والأمان التامّ لأداء واجب اللقاء والعزاء.

وقد «**زادت جُرعةُ**» **الغريبِ** أو ما يشبه الغريبَ في الأبيات المختارة (وفي سائر القصيدة) واستقصى الشّاعرُ أسباب تحقيق رحلة بدويّة فكرتُها قديمةٌ جاهليّةٌ، وإخراجُها حديثٌ جديدٌ: فَجَمَع بين عُمق التراث البدويّ، وبين رؤيةٍ جديدةٍ لتلك الرحلة.

وقد عمد البِزم إلى هٰذا في قصيدته عمدًا. وأُوضِحُ ذلك بثلاثة أسباب كانت ماثلةً أمام الشاعر وهو ينظم قصيدته، ويحيك نسيجها.

١- إنّ البِزم لمّا اعتمد نهج الرّحلة البدويّة الجاهليّة المعالم، حاكى ما جرى عليه كثير من الشعراء القدامى في قسم الرّحلة من القصيدة وهو قسم أساسيّ من القصيدة لا ينفصل عنها. وفي شعر الرحلة القديم ميل إلى الجزالة والفخامة واللجوء إلى الغريب المناسب.

٢- المرثيّ قريب عهد هو وأسرتُه بالبداوة. فقد دخل أبوه الشام بلباس أهل الحجاز، وانتقل إلى العراق كذلك. وكان الملك غازي وطنيًّا عروبيًّا. واصطناع النهج البدوي - عند البِزم - ملائم لذلك، ويجاري منهجه.

- وقد قال للملك غازي في القصيدة، وهو يذكر تعاطفه مع الشام قولًا وفعلًا.

وطوّقْـتَ الـشآم عـلى اللّيـالي قلائـدَ خالـداتٍ في الـصِّلاتِ

٣- وللبِزم في القصيدة صلةٌ شخصيَّةٌ فقد رثى الملك فيصل، ورثى قبله الشريف حسين:

رثيــتُ أبــاكَ بعــد أبي عــليٍّ وذا مَنْعــاك ثالثــةُ العِظــاتِ

فهو يؤدّي واجبًا قوميًّا، ولكنه في الوقت نفسه يرثي ويُعزّي، ويتقبّلُ العزاء

- وهٰذا الملمح يكمل ما سبق من اصطناع الطريقة البدوية العربية الأعرابية.
- وقد دعا الأمة في أواخر القصيدة إلى اليقظة والاستعداد للعدوّ دون تهاون، وجعل للشعر مهمّة، قال فيها:

ولا انتخـتِ الـشعوبُ بِمثلِ شعرٍ يُقـضقِضُ في الجنُوبِ الوادعـاتِ!

(ب)

وله قصيدة بناها على مجزوء الكامل المُرَفّل: متفاعلن متفاعلاتن. وبدأها ببيت فيه ما يسطره اليَراعُ (القلم) على الطروس (الورق) واستغنى عن فعل «كَتَب...» بـ«صَرّ» من الصرير، وهو صوت القلم المتخذ من القَصب اليَراع، على سبيل الكناية. ثم استرسل الشعر رخاءً رقيقًا. قال[1]:

صَرّ الــيَراعُ عــلى الطُّــرو ... سِ، فَـراعَ قلبـكَ بالـصَّريرِ
وجــرى تُــسَيّرهُ البَنــا ... نُ، فجـاءَ بـالأَدبِ النَّـضيرِ
مــــا ضَرَّهُ ألّا يُــــرى بيــدِ الفــرزدقِ أو جريــرِ
مــــا شــــانَهُ وبنانَــــهُ أَنْ جـاء في الـزّمن الأخـيرِ
أبْـدى النّفـورَ مـن المَذلّــ ... ــةِ، فـاجْتنى ثمـرَ النّفـورِ
وسَــعى إلى نَيْــلِ المُنــى بالجِــدِّ والجَــدِّ العَثُــورِ

(١) ديوان البِزم ٢: ٣٩ - ٤٠.

جـابَ الـسُّهول، ولم يَرُعْـ ... ـهُ إلى العُـلا قطـعُ الوعـورِ
ركـبَ العَظـائمَ واعْـتلى للمَجْـدِ طامِيَـةَ البُحـورِ
ومَـشتْ إليـهِ حـوادثُ الـ ... أيّـامِ بالخَطْـبِ المُبـيرِ
وكـذلك الأيـامُ تَعْـ ... ـبَثُ بـالكبير وبالـصّغيرِ
مَـدَّتْ لـه بِـصُروفِها تَحـوي الـرَّدى كـفُّ المُـشيرِ
والـذّلُّ إن أَلِـفَ النُّفـو ... سَ فذاك مِـنْ فَقْـدِ الـشعورِ
والطّـيرُ تـأنفُ، بالخُـضو ... عِ لغيرهـا، سُـكنى الوكـورِ

والقصيدة - كما ترى، وعلى متانة سبكها - سهلةُ الألفاظ بعيدة عن الغريب، رائقة الإيقاع، مطلقة القافية.

والشاعر لم يغيّر من أسلوبه العام في النظم، ولكنه جرى في ألفاظه وعباراته على ما يناسب الموضوع ويؤدّي الغرض ويوصل الفكرة ويوضح الصّورة.

ومن الطريف أن يجيء الشاعر بقصيدة على روي الظاء، وقافيتهُ عادةً وعرة، واستطاع كما ترى من الاختيار أن يسوق الكلام متناسقًا: لفظًا ومعنًى، ووزنًا وقافيةً[1]:

يـا أرقَّ النَّـاسِ أعطـا ... فًـا وأحـلى النَّـاسِ لفظـا
وأَشـدّ الخَلْـقِ للعَهْـ ... ـدِ عـلى الأيـامِ حِفْظـا
لـستُ واللهِ وإن جَـرَّ ... عْتَنِـي المكـروهَ - فظّـا
يـا قريـرَ العـينِ قـد أو ... قَـدْتَ في الأحـشاءِ قَيْظـا
وعظـت عينُـكَ قلبًـا لم يكـنْ يقبـلُ وَعْظـا

الأبيات...

فالشعر سائغ، وساغت معه (الظاء) على ما فيها من النفور عن أن تكون رَوِيًّا رقيقًا.

(١) ديوان البِزم ٢: ٥٢.

تأهيلُ الغريبِ في شِعْرِه

لا بدّ أن يكون في البال، ونحن في الكلام على قضيّة اللّغة في شعر البِزم أَنّ الرجل كان مشغولًا بإصلاح النحو، وكان يغوصُ في المعاجم، ويستخرج معاجم تخصّصية، وله رأي في تأليف المعاجم قديمًا.

وكان البِزم يقدّم لتلاميذه، وطلابه نصوصًا مختارة في جملة المقاصد منها تشكيل المعجم الخاص للطالب عربيًّا صحيحًا واسعًا، يضم شيئًا فشيئًا من الغريب القابل للاستئناس.

وأول مفردة في معجم الصّفّ الثّامن الذي سجله إبراهيم حقّي[1] في تلك المدة من حرف الهمزة (أبث)، وهي غريبة، ولا شك في أنه قدم لطلابه الكلمة في بيت شعر، أَو مثلٍ أو عبارة مأثورة، أو لعله قرأ عليهم من قصيدته: «كلهم أبث»[2].

وقد سبق القول إن طريقة البِزم (بل طرائقه) في تعليم العربيّة بفروعها أثمرت طيّبًا جدًّا. وطار «للأستاذ» البِزم صيتٌ في التعليم، واشتهر بنجاح طلّابه في البراعة في فروع العربيّة سريعًا. وأنقل عبارة دقيقة لأديب صحفي عاصر البِزم وعَرفَهُ، وعرفَ جمهرةً من تلاميذه هو: عبد الغني العطري قال:

«ومهما كان فإن الجيل الذي تتلمذ على يدي المرحوم البِزم طوال عشرين عامًا، التي قام خلالها بتدريس اللغة **كان أقوى جيل درس اللغة** وقواعدها وأصولها وأسرارها»[3]. وكان قال قبل ذلك: «إن شاعرنا كان يتعمّد اختيار الألفاظ الغريبة

---

(١) سبق الكلام في ذلك الاستشهاد.

(٢) ديوان البِزم ١: ٣١٠ - ٣١٣، قال:

أَعـلاجُ سـوء، كلهـم أَبـثٌ يتلمّـسونَ مـع الـدُّجى أُتُنـا!

والأبث: الأشِر البَطر.

(٣) عبقريات شامية: ٤٤.

ليشرحها لهم ويُدْخِلَها في قاموس أَفهامهم....»، وهٰذا صحيح مع تعديل لازم، وهو أن يقال إنه كان يعلمهم الألفاظ الغريبة القابلة للاستئناس، وكان يسوقها في مساقها من النّصوص المُعَلّمة المُختارة.

هٰذه الإشارة لازمة قبل أن ننظر في الحكم العام الذي قيل في لغة البِزم في شعره، أو قيل في شعره وأثر «الغريب» فيه.

١- والبِزم في تقدير د.سامي الدهان[١]: «**كان ينظرُ أبدًا إلى الماضي في معانيه ومبانيه وأغراضه وأهدافه**... ولهٰذا لم تُصِبْ لغتُه أو أسلوبُه خصائص الأدب المجدّد، **وظل على بداوته** العربية، يتلقّن قوالب اللغة القديمة، وأساليبها في النظم، فيقلّدها كأنه يعيش لزمانها **بين ظَهْرَانَي بني أمية في دمشق قديمًا**»، ثم قال: «وهكذا خلصت قصائده من ضَعْفٍ وركاكة».

٢- وحُكم د.إبراهيم الكيلاني أرحبُ صدرًا؛ فإن البِزم عنده[٢] قد «حفظ شعرَ الفُحول، وقلّد أساليبهم، وسار على سَنَنِهم قوّةَ بناءٍ، ومتانة سبكٍ، وجزالة ألفاظ، وضخامة جرس، فكانت حصيلة هٰذه العشرة ديوانًا جديرًا - بما تضمّن من الغريب، والألفاظ الصعبة - أن يُلْحِقَهُ، وهو في القرن العشرين، بشعراء العصرين الجاهلي والأموي».

٣- وفي ختام مقالة د.شاكر مصطفى عن شعر البِزم قال[٣]: «أحسبُ في شطحة من شطحات الوهم لو أن محمَّد البِزم خُلِقَ في العصر الجاهلي، فماذا كان ممكنًا أن يكون؟ ما أحسبه سيكون إلا نِدًّا عنيفًا **لأولئك الذئبان**[٤]

---

(١) الشعراء الأعلام في سورية، سامي الدهان: ٤٥ - ٤٦.

(٢) محمَّد البِزم، إبراهيم الكيلاني: ٢٢٣.

(٣) مقالة خطيّة في ملفات البِزم.

(٤) المعروف: ذؤبان.

الصعاليك الشعراء المُتَفَرّدين بشجاعتهم وحياتهم في الصحراء، ولو كان في العصر الأموي لكان جارًا للحطيئة... الخ».

٤- وللدكتور جميل صليبا آراء مشابهة أَيضًا[١].

٥- وجرى أ.أحمد الجندي على ما جرى عليه القوم، ولكنه فتح نافذةً صغيرة، وقد أعجب إعجابًا شديدًا بقصيدة فيها خطابٌ - على البعد التاريخي - لسيدنا عمر رضي الله عنه.

قال الجندي[٢]: على أنّ هٰذا لا ينفي عن الشاعر أَنه خَلا إلى نَفْسِه في أحيان كثيرة، فكان من أثر هٰذه الخلوات شعر كثيرٌ هو أقربُ إلى الغناء وأنأى عن التكلف والتقعر، وإن كان حُبُّ الفصيح والغريب قد أصبح سليقة عند شاعرنا. اقرأ هٰذه الرؤيا لترى صفاء الديباجة، وعذوبة الكلمات، ثم إني أَلْفِتُكَ إلى ما في هٰذه الأبيات من نبوءة هي أشبه بالرؤيا كما أسمّي القصيدة[٣]:

ظفرتُ في النومِ بالفاروقِ في ملأٍ ... من المَلائِكِ في حُورٍ وولدانِ
فقمتُ أسألهُ عن حادثٍ جَللٍ ... أثار كامن أشجاني، وأشجاني!
فقلتُ: إن بني إسرالَ قد نبذوا ... وأثَّلوا ملكهم في أَرضِ كنعانِ
ولم يُراعوا بني عيسى ولا عرفوا ... أبناءَ أَحمد مِنْ فهرٍ وغسانِ
فأجهش العربيّ القُحّ وابتدرتْ ... دموعُه، وهمتْ بالدمع أجفاني
وراح يُنشِدُني بيتًا لهجتُ به ... منذ الحداثة في سرّي وإعلاني
«لو كنتُ من مازن لم تستبِحْ إبلي ... بنو اللقيطة من ذهلِ بن شيبان»!

(١) انظر مقدمة الكتاب، فقرة: محمد البزم في آثار الدارسين.

(٢) شعراء سورية: ٧٨.

(٣) شعراء سورية: ٨٠ - ٨١.

ولا شكّ في أنّ البِزم أكْثرَ من الغريب، وبعضه يحتاج إلى شرح في الدِّيوان. ولكنّه أدرج المفردات في مواقعها، عن حفظٍ لِلّغة، واختيار قاصد لما يريدُ من الكلمات، وتطويع لذلك الغريب على منهجه في النظم وفي التعليم معًا.

والذي أقوله: إن الشاعر **لم يكن يصطنع الغريب** ليحشو به شعره، ويدسَّه فيه دسًّا، ولكنه كان **يؤهّل الغريب**، وكان على ثقة من أن هناك من يتابعهُ في عصره، وأنّ خطته، وطريقته في صنعة الشعر ستكون مثالًا يُحتذى؛ لأنها منهج جديد بين زملائه شعراء دمشق، ومنهج قديمٌ جديد (أَو مجدّد) من حيث صنعة الشعر، وبناؤه اللّغويّ والفني.

الابتكار والتوليد

في مزايا البِزم قُدْرَتُه **الواسعة على ابتكار المعاني والتقاط الصور الفنيّة**: وإمامه في ذلك أبو تمام في السابقين، والمتنبي في اللّاحقين، وهو يأنس من المعاصرين بإبداعات شوقي، وابتكاراته:

وهٰذا مقطع قصير من قصيدته في أحمد شوقي[1] وهو يتحدّث عن أهمية الشاعر، ويقول فيه:

زورقٌ مـــن رَحْمَـــةٍ في لُجَّـــةٍ ... زَخـــرتْ بـــالآثمينَ الغاشـــمين
تقطـــرُ الحكمـــةُ مـــن جُدرانِـــهِ ... وســـوادُ الـــرّأيِ والأرزاءُ جَـــوْنْ
فطنـــــةٌ تلـــــتهمُ الغيـــــبَ إذا ... ما استشَفَّ الغيبُ جهدَ العَمِهينْ
بلظـــــاةٍ صَـــــوّرتْها قلـــــمًا ... قـدرةُ الخـلّاقِ، حَـرْبِ الظـالمينْ
ينطـــفُ الـــسمُّ عـــلى ريقتـــهِ ... وبـــه تؤســـى جـــروحُ البائـــسينْ

(١) ديوان البِزم ١: ١٠٤.

فانظر إلى هٰذه الصّورِ الناضحة بالمعاني المبتكرة: **زورق من رحمة في لجة**، و: **فطنةٌ تلتهم الغيب**، و: **بلظاة صوّرتها قلمًا قدرةُ الخلّاق**. فهٰذا كله من ابتكاره، فلما استرسل في وصف القلم استفاد من أستاذه أبي تمام في قصيدته في محمَّد بن عبد الملك الزيّات.

قال البِزم في القلم: «ينطفُ السمّ على ريقته» أي يسيل قليلًا قليلًا. بما يشبه السمّ ثم قال: إنه يأسو الجراح أيضًا،

فللقلم مهامّ كثيرة بين حربٍ وسلم، وجِدّ وهزل...

وقد سبق أبو تمام فقال يصف أثر القلم:

لعابُ الأفاعي القاتلاتِ لعابُه وأرْيُ الجَنى اشتارَتْهُ أيدٍ عَواسِلُ

– ومن استعاراته الحسنة، وصوره المتقنة وهو يصف غوطة دمشق، قوله[1]:

ضَحِكَ الغديرُ إلى الغَدِيرِ وقهقهتْ لها المثاعِبُ مُبدئًا ومُعِيدا
عَذراء تحسبُها العَشِية (....) تُغوي بزينتها الفُحولَ الصِّيدا
غنجت فدَغْدَغها النّسيمُ كما انتحتْ أيدي الخلاعةِ في الصُّدور نُهودا
وثنت معاطِفَها الغصونُ فكُلُّها ثمِلٌ يعانِقُ من أخيهِ مَيُودا
يَتمازجُ الدّمعانِ دمعُ غَمامِها بِحَبيس خُضُرَتِهَا فتنضِرُ عُودا
وتكادُ عاتيةُ السَّحابِ بجوّها تهوي فتلصقُ بالحميم سُجودا
فُتِن الصَّباحُ بها وغارَ مساؤها فَتبارَيا بِرًّا بها ورُفُودا

فهٰذه قطعة من مقطع من مقاطع قصيدة مطولة عَنون لها الديوان باسم: (دمشق). وترى تدفّقَ الصّور الجميلة المبتكرة والمعاني المتسلسلة متوالية متآلفة لترسم مشهدًا طبيعيًّا حَيًّا...

(١) ديوان البِزم ١: ١١ – ١٢.

فهٰذا من الابتكار والتجديد. ولكنّ التوليد، واردٌ أيضًا فانظر قوله:

نفضت بها الزّرقاءُ غُرَّ نُجومِهَا نثرًا تخال به اللّحاظَ نُقودا

فإنه من قول المتنبي في أثناء وصفه لِشِعْبِ بَوّان:

وألقى الشَّرقُ منها في ثيابي دنانيرًا تفرُّ من البنانِ

ولكنه أعاد الصياغة ولون وغيَّرَ، فهو توليد.

ومن مبتكراته معنًى وصنعةً[1]:

يا قاتل الله بروقَ المَطْمَعَهْ

وقوله في قصيدة (نجوى)[2]:

وسَطَرْتَ في قلبي الأسى شُطَبًا، فلستُ أطيقُ مَحْوَا

ولَحَوْتَ غُصني بالنّوا ... ئبِ والضّنى، فأَلِفْتُ لَحْوا

وفَطرتَني ثَمِلَ الجَوا ... نحِ، لا أرى في الكوْنِ صَحْوا

ومن الصّور المبتكرة، المُتقنة، الحيوية قوله[3]:

قد مَزّقتْ ثوبَ الحَيا ... ةِ لي الحياةُ فعِفْتُ رَفْوا

ومن الكنايات البارعة المُبتكرة، وهو يصف دمشق - حماها الله وصان أهلها وأهل الشام - :

«فَيحاءُ» ماقَصَر الصَّلاةَ مسافِرٌ فيها، ولا خَشُنتْ عليه مُهودا

فزائرُ الشّامِ وإن كان في الأصل عابرًا، تستهويه، فيقيمُ فيها، ويطيلُ الإقامة

---

(١) ديوان البِزم ١: ٥٠.

(٢) المصدر السابق ١: ٧١.

(٣) ديوان البِزم ١: ٧٠.

(وتنتقي عنه صفة المسافر فلا يقصر الصلاة)!

ومن المُبتكر الطّريف: الشُّرْبُ من اللّحاظ بأكواب من الوجد، وقد قال[1]:

ورُبَّ سِرْبٍ بنـــور العـــينِ مُنْتَبِـــذٍ عـــن العيـــونِ يُـــصادِينا «ببُقّينـــا»[2]
تعـشّقَ الظّبْـيُ منـه الخِـشفَ فائتلفـا فالخِـشْفُ يُـسْعِدُنا، والظَّبْـيُ يُـشْقِينا
فـــإن ظمئنـــا **شَرِبْنـــا مـــن لَواحظـــهِ سـحرًا، بـأكوابِ وَجْـدٍ** مـن مآقِينـا

- هٰذا كله مُبتكر، من قريحة محمَّد البِزم.

- وأسلوب صناعة هٰذه الصور يُذَكّر بمنهجِ أبي تمام الابتكاري المجدّد.

ومن الصور المبتكرة تشبيهُ بردى والمياه تتدفق فيه وتترقرقُ في ضوء الشمس بالألماس الذي يلمع «متكسّرٌ كالماس» ثم أتم البيت بمعانٍ تقليدية، قال[3]:

متكـــسّرٌ كالمـــاس، تُلبِـــسُهُ الـــصَّبا زردَ الحَبيـــكِ، ومـــا أشـــفّ زُرودا

ومن الكنايات المبتكرة، في شعر البِزم، كنايته عن «القلوب» بـ«مواطن الأَعمار»، وكان البحتري قد كنى عن القلب بقوله في صفة الذّئب ومعالجته:

فأَوْجَرْتُـه أُخـرى فأضْـلَلْتُ نـصلها بحيث يكون اللُّبُّ والرُّعْبُ والحِقْدُ

فقال البِزم في تهديد العدو ووعيده بِمَنْ سيقضي عليهم، ويخلص الأرض الطيبة منهم[4]:

حَـرّان لـو جَمعَـتْ لـه **إسْرائُل** مـا في الأرض مـــن أَبنائهـــا الأغْـــمارِ
لانقـضّ ينقـرُ عـن سـوادِ كُبودِهـا حُمْـرَ الكـلى، **ومـواطِنَ الأعـمارِ**

(١) ديوان البِزم ٢: ١٠١.
(٢) المصيف المشهور (بقّين).
(٣) ديوان البِزم ١: ٩.
(٤) ديوان البِزم ٢: ٣٨.

وفي معانيه المبتكرة الطريفة – على بساطة هٰذا الشاهد – قولُه لصديق له يهنّئه بمولود جديد انضم إلى ولد سابق[1]:

كأَنّــك أَلْفْــتَ فَــنّ العُــلا كتابًــا، وهٰــذان أُطْرُوحَتــان[2]

ومن معانيه المبتكرة قوله في قصيدة السّجن[3]:

وكَبــا بــهِ جَــدٌّ فَحَالَفَــهُ الــضَّنى فوقوعُــه بيــد الــردّى إبْلالُــه

فَسُقوطه بيد الردّى – بالقياس إلى معاناته من سوء الحظ – صحة وعافية! وهو يشرب من قول النواسي:

..... وداوني بــالتي كانــت هــي الــدّاءُ

وقوله فيها، واصفًا حركة السَّرابِ، كما تخيّلَت له[4]:

فلأَرْحَلَــنّ إلى الجزيــرة رحلــةً بدويّــةً، والقَفْــرُ يَــرْقُصُ آلُــه

شبه حركة الآل (السّراب) وهي تلتمع وتخفق تحت أشعة الشمس بالرقص بجامع الحركة فيهما.

– وفي رثاء شوقي جاء ببيت فيه معنى قديم، وهو تشبيه الندى بالدّموع، مع أنه أخرجه إخراجًا حسنًا[5]:

ونــدى الأزهــارِ دمــعٌ حــائرٌ مُفْــصِحٌ عــمّا أجَنّــتْ مــن شــجونْ

ثم قال بعده مباشرة في صورة مبتكرة:

---

(١) ديوان البِزم ١: ٣١٦ من قصيدة الطفولة.

(٢) «الأطروحة: المسألة تطرحُها للنظر والبحث» (الوسيط). قلت: شاعت الكلمة في العصر الحديث لمعنى: «رسالة علميّة يكتبها الطالب للحصول على درجة الماجستير والدكتوراه» المعجم الأساسي.

(٣) ديوان البِزم ١: ٢٦١.

(٤) المصدر السابق ١: ٢٦٢.

(٥) ديوان البِزم ١: ١٠٠.

مـــا لعـــابُ الـــشّمسِ إلّا عَـــبْرَةٌ قـــد أعـــدّتها لـــه في المُـــوجعِين

-ومن المبتكر صورةٌ بارعة، وإن كانت قاتمةً أدرجها الشاعر في صفة النّاعورة (ناعورة من نواعير حماة)[1]:

لوالـــبٌ يُحْـــصِي بهـــا الـــدّهرُ عـــلى أبنائـــــهِ الخَطْـــــوَ إلى المَقـــــابرِ

وكان المتنبي في خاطر محمَّد البِزم حين قال[2]:

أحْرى بني الأرضِ بـالأَرْزاءِ تَقْرَعُهـا عُـرّبٌ غَفَـتْ، **فتـولّى أَمْرَهـا عَجَـمُ**

وأضـيَعُ النّـاس حقًّـا أمّـةٌ تركـت حقًّـا لهـا بيـدِ الأعـداءِ يُهْتَـضَمُ

وكان المتنبّي يرفع الصَّوت بمثل هٰذا:

وإنّـــما النّـــاسُ بـــالملوك ومـــا تفلـــحُ عُـــرْبٌ ملوكهـــا عَجـــمُ

وعندي مثلُ اليقين أن المتنبي قُتِلَ لنزعته العروبيّة هٰذه على أيدي الدّيلم العجم، وإن أعطوه دنانير «لا تفرّ من البنان».

- وقال البِزم في مدح رسول الله ﷺ[3]:

أتيـتَ وقـد شـاخَ الزّمـانُ فَـردَّهُ نـداك فَتِيًّـا بعـد مـا ارْبَـدّ حالِبُـه

وقد قال أبو الطيّب:

أتـــى الزّمـــانُ بنـــوه في شـــبيبته فـــسرَّهُمْ **وأتينـــاهُ عـــلى الهَـــرمِ**

وقال البِزم[4]:

غالـبِ الـدَّهْرَ إن اسْـطَعْتَ غِلابـا **وانتـزعْ مـن كَفّـه الحـقَّ اغتـصابا**

---

(١) ديوان البِزم ١: ٤٤.

(٢) ديوان البِزم ١: ٦٢ - ٦٣.

(٣) ديوان البِزم ١: ٧٨.

(٤) ديوان البِزم ١: ٨٣.

وقال شوقي:

وما نيلُ المطالبِ بالتَّمَنّي ... ولكنْ تؤخَذُ الدُّنيا غِلابا

من فنون البديع

(صريع الخمر)[1] قصيدة للبِزم أورد فيها عددًا من فنون البديع ومنها:

لعنْتَ إبليسَ إِذْ نُبِّهْتَ في غَلَسٍ ... فلم نطِقْ في غِمارِ القومِ تغليسا

سقوكَ عذبًا، فقلتَ: المرُّ شربُكُم ... ومذ أتوكَ بِمُرٍّ ذقتَ إمليسا

حسوتَها فظننتَ البَرّ ماخِرَةً ... فيه المَواخِرُ، والدأماءَ إمليسا

وأنذروكَ بتفليسٍ إذا احتكمتْ ... أمُّ الشُّرورِ فما بالَيْتَ تفليسا

وفي الأبيات من البديع:

الجناس الناقص (غلس - تغليس) و**جناس القوافي** (إمليس وإمليس: الأولى نوع من الرمّان، والثانية: الفلاة ليس فيها نبات)، و**الطباق**: (عذب - ومُرّ)، و(البرّ وإمليس)، و**ردّ الصدر على العجز** (تفليس - وتفليسا...).

وليس من عادة محمَّد البِزم أَن يَزْحَم قطعة من الشعر بهٰذا العدد من أنواع البديع، ولكنه مثال على قدرة البِزم على توظيف علمه بالبلاغة وفنونها وتكميل النصّ بما يلائم غَرضه...

على أنّ البِزم يحبّ - كلما أمكن الأمرُ سلسًا دون إقحام - أن يستفيد من إيراد **الجناس**، و**ردّ العجز على الصّدر**، و**الطّباق**...

وقد تجيء المقابلة، على قلّة يسوقها مجرى الكلام، والتمايز بين حالين أو أمرين[2]:

---

(١) ديوان البِزم ٢: ١١٩.

(٢) المصدر السابق ٢: ٦٤.

فـذو الجَهْـلِ فيهـا بـأوجِ الـسُّها وذو الفـضلِ مُطّـرَحٌ بـالعَرا

وفي الجناس[1]:

أيـنَ الحميّـة؟ بـل أيـن العروبـةُ هـل **غـاضَ** الوفـاء **وآضَ** الـودُّ هجرانـا

وفي الطباق[2]:

طبيـبٌ بـأدواءِ القَـريضِ، إذا كبَـا لـذي فَـرَقٍ زَنْـدٌ أَضـاءَ لـه زَنْـدُ![3]

وفي جناس القوافي[4]:

أطْلِـــق المُوثَـــقَ وَأْسُ الـــ ـــكَلْمَ يـــا صـــدّاحُ وَهْنـــا

إنّ في قلبـــــيَ والأحْـــــ ـــشاءِ لـــو فتّـــشْتَ وَهْنـــا

(فالوهن: جانب من الليل، والوهن: الضعف).

لزوم ما لا يلزم

في القصيدة العربيّة قسم في آخر كل بيتٍ منها يتردّد: وأظهرُ ما يتردّدُ ويتكرّرُ الرّوِيّ، وهو الحرف الذي تُبنى عليه القصيدة، وتسمّى به كالقصيدة الدالية، والعينية والفائية...الخ.

لكنّ بعض الشعراء يفرضون على أنفسهم قيودًا إضافيّة؛ «وأهم هٰذه القيود التطوّعية أن يلزم الشاعر قافيتين، كما فعل المعري في اللزوميات، وبعض الدرعيات، وهٰذا النوع من الالتزام لِمَا لا يلزم قديم... ولزوم ما لا يلزم قيد غاية في الثقل، وقلّ

(١) ديوان البِزم ١: ١٨.

(٢) ديوان البِزم ٢: ١٣٤.

(٣) الزند: العود الأعلى الذي يُقتدح به النار (أو الشّرر يوقد النار).

(٤) ديوان البِزم ٢: ٦٢.

أن تتيسّر معه الإجادة إلا ما كان من أمر كُثَيّر، والمعرّي في بعض لزوميّاته»[1].

وقد كَثُرت ظاهرة لزوم ما لا يلزم في شعر محمَّد البِزم، وهي كثرةٌ لافتة لوعورة المطلب، ولخشية الوقوع في التعقيد، ولعزوف العصر الحديث عن هٰذا النوع من الأداء الشعري في قافية القصيدة:

ولكن البِزم **أُغْري بهٰذا الفنّ البلاغي**:

- لإعجابه بالمعرّي، والأخذ من مناهجه: في بعض أفكاره، وبعض أساليبه، وبعض مواقفه من التراث (والنحويّ خاصة).
- ولغزارة مُعجمه اللغوي، فقد كان يستحضر اللغة، وينتقي منها ما يناسب المقام: لفظًا ومعنى، متجنّبًا الجَوْرَ على صنعته.
- ولإثبات جانب من جوانب قدرته في النّظم، وتمكّنه من اللغة.

وأكثرُ قصائد الجزء الثاني من الديوان تجري هٰذا المجرى، ونقرأ له في قصيدة (صورة)[2]:

ومضلّلٍ يهوى الثراء فدهرُه مُتَقلّبٌ بتقلُّبِ الأسبابِ
ذو لحيةٍ شهباءَ تحتَ عمامةٍ لألاءةٍ لغوايةِ الألبابِ
ذو خفة عبثتْ بها شيخوخةٌ مُزِجت بماء كهولةٍ وشبابِ

فالباء الأخيرة، رويّ، والألف قبلها ردفٌ، وهما لازمان في مثل هٰذه القافية، والباء التي قبلها هي من لزوم ما لا يلزم.

- وفي قصيدة الشباب الراحل[3]:

---

(١) المرشد إلى فهم أشعار العرب - د.عبد الله الطيّب ١: ٤٢ - ٤٣.

(٢) ديوان البِزم ٢: ١٠ - ١١.

(٣) المصدر السابق ٢: ٢٢ - ٢٣.

أَيها الفرقدان بعضَ التّداني إنّ شوقًا إليكما قد حَداني
أيها الأمردان والأمرُ دانِ فانفحاني ببعض ما تجدانِ
لُحْتُما لي والليل غضٌّ غُداني وَخْطةَ الشّيبِ في أحمّ الغُداني

فالدال في القافية من لزوم ما لا يلزم. ولاحظ - أيضًا - التزامه الدال في عروض البيت: تطوّعًا منه، واتّساعَ لُغة.

- وقد يلتزم عدم تبديل الردف (لا يمازج بين الواو والياء) إضافة إلى المتطَوّع به للزوم ما لا يلزم. فتبدو القافية كثيرة الحروف المتشابهة. لاحظ قوله من قصيدة (الشاعر)[1]:

يزهُو على الجبَّارِ في سُلطانهِ بِمُسَوّماتٍ تحقرُ التّحجيلا
وإذا ترفَّقَ خلتَ من ألفاظهِ التْـ ... ـتَوراةَ، والفُرقانَ والإنجيلا
يتربّصون بهِ الرّدى، وقلوبهُمْ مُلئت على كُرْهٍ له تَبْجِيلا

وجاءت ألف الإطلاق إضافة صوريّةً - سمعيّةً، لتعطي لزوم ما لا يلزم شكلًا لافتًا وإيقاعًا ذا مزيّة.

أصداء تراثيّة في شعر البِزم

كان التّراث العربيّ حاضرًا دائمًا في فكر البِزم ووجدانه، وهو متشعب متعدّد الاتجاهات: ومن ذلك:

- ذكر أعلام التاريخ العربي في الجاهلية والإسلام؛ وهٰذا في ديوانه ظاهر، أُشير إلى بعضه على سبيل التمثيل؛ قال[2]:

(١) ديوان البِزم ٢: ٧٥.
(٢) ديوان البِزم ١: ٣٠٢.

فأزمعـــتُ عـــن دارِهـــا هجـــرةً وأنـــشدتُ مـــا قالـــه الـــشَّنفرى:

أقيمـــوا بنـــي أُمّ صَـــدْرَ المَطِـــيّ فـــلي في ســـواكمْ ذَرا يُكْـــتَرى!

وهٰذه صياغة أخرى لبيت الشنفرى من لامية العرب:

- واستفاد من صورة جنكيزخان المدمِّرة، والمُحَطّمة لقطاعٍ واسعٍ من مجالات الحضارة العربية الإسلامية، فقال[1]:

ســـألتُه منـــذُ حـــينٍ أيـــنَ نِـــسْبَتُه فكـــان مَحْتِـــدُهُ في آل جنكيـــزِ!

- وذكر وادي عَبْقَر الذي زَعم القدماء أنّه موطن شياطين الشعراء والمُبدعين[2]:

عَباديـــدُ نَعَّـــارون في غـــيرِ طائـــلٍ لهـم في انحطـاطِ الـضّادِ رِبْـحٌ ومَتْجَـرُ

يقولـون: «شـعرٌ عبقـريٌّ» فتـشتكي إلى رَبّهـا والإنـسِ والجـنِّ: عَبْقَـرُ!

- وأَشار إلى قصّة الزَّبّاء، وهي مشهورة في التاريخ القديم، وفي كتب الأمثال العربية[3]:

لـــو حـــالف الـــدّهْرُ إنـــسانًا لِمَنْعَتـــهِ غالَـــتْ قَـصَيْرًا وعَمْـرَو الشّـأرِ زَبّـاءُ

وقال:

لا عـــيش للعَـــربيّ في وطـــنٍ رَبُّ الـــسّيادةِ فيـــه مـــن رَطَنـــا

وهو موصول بشعرٍ للمتنبي. والاستقصاء يطول.

* * *

(١) ديوان البِزم ٢: ١٣٩.

(٢) ديوان البِزم ١: ٢٢١.

(٣) ديوان البِزم ٢: ١٤٥.

ملامح شعبية

من الأمور التي[1] غابت عَمّن كتبوا عن محمَّد البِزم تغلغلُ الشّاعر في التّراث الشّعبي، وصدورُه في بعض شعره ونثره عن ذلك المحفوظ المخزون في الذاكرة والوجدان من الأمثال الشّعبية، والأقوال الشّائعة، والأوصافِ الغالبة. والصور البيئيّة... الخ.

- قال مثلًا[2]:

فـلا تَعْجَبُـوا إن خـاب ظـنّكُمُ بِـهِ فَمُـذ مَـدحُوا نيـسانَ دبّـتْ عقارِبُـهْ!

وفي المأثور الشعبي كلام وعبارات شائعة عن أيام يشتد فيها البرد زائدًا عن المعدل السنوي للبرد في ذلك الوقت يسمّونها (عقارب نيسان).

- وأَشار أكثر من مرّة إلى كتاب رائج شعبيًا - آنذاك - هو: **رُجوع الشيخ إلى صباه**، قال مثلًا[3]:

أسْمِع المحزونَ من لَحْـ ... ـنَيكَ ما يُحيـي الـرِّمَمْ
ويَـرُدُّ الـشَّرْخَ للـشّـ ... ـيخِ ويُـودي بـالهَرَمْ

- وشرخ الشباب: أوله ونضارتُه.

وأوضح من هٰذا قوله[4]:

وخمـرةٍ عـاقَرْتُ في روضـةٍ فأَبـدلَتْني بـالهُمومِ انـشراحْ
تـردّ للـشَّيخِ زمـانَ الـصِّبا وتُذهِبُ الحُزْنَ وتأسو الجِراحْ!

---

(١) سبقت الإشارة إلى استفادته من عمل التّجارة ومعايشة الأسواق ولقاء الناس...

(٢) ديوان البِزم ٢: ٦٩.

(٣) ديوان البِزم ٢: ٩٥.

(٤) ديوان البِزم ٢: ١٥٦.

وقال[1]:

أنـا الفحـلُ في صَـوغِ القـريضِ مُجَـرَّبٌ وإن ضـــلالًا أن يُـــرازَ المُجَـــرَّبُ

والشطر الثاني صياغة فصيحة لِـمَثَلٍ شعبي مشهور[2]. ومعنى راز الشيء: جَرَّبه واختبره.

- وقال[3]:

يا عَظْمَـةَ الدّسـت قـد أَوْقَـرْتَ واعيـةً براكـدٍ سـال مـن شِـدْقَيْكَ مَـسْنُونا

هٰذا نَبْزٌ من الشاعر للمخاطب بالشعر. والعظمة واحدة العظم. والدّستُ[4]: في استعمال أهل الشّام: قِدْرٌ[5] كبيرٌ يُطبخ فيه في المناسبات، وكان شائعًا في الدور الشامية القديمة والأسرةُ كبيرةٌ.

والشعر يستفيدُ من مثلٍ شاميٍّ شائع[6].

وقال في الرثاء[7]:

خُطِفْـتَ فلـم يظفـرْ بمـرآكَ عائـدٌ محـبٌّ ولم يـشمتْ بِمَشْـوَاكَ حاسِـدُ

فقوله: (خطفت) على فصاحة العبارة هو من ملمح شعبيّ، يقولون في مَنْ اعْتُبِط شابًّا: في الدارجة «انخطف» بمعنى خُطِفَ المبني للمجهول.

---

(١) ديوان البِزم ١: ٢٣١.

(٢) من قول الناس: «مَن جرّب المجرب كان عقله (مخرّب)».

(٣) ديوان البِزم ٢: ٩٩.

(٤) أورد الوسيط معاني للدست.

(٥) القِدْرُ: مؤنثة، وقد تُذكَّر.

(٦) هو في معجم الأمثال العامية الشامية - محمَّد رضوان الداية: ٨٥٨، ومثله قول أحدهم:

ومـا مثلـه إلا كفـارغ بنـدق حليّ مـن المعنى ولكـنْ يفرقـعُ

(٧) الديوان ١: ١٤٥.

– ومن لطائف استفادته من التراث الشعبي قوله[1]:

وَطِّــنِ الــنّفْس عــلى نــأي القطــينْ **واكْــسِرِ الجــرَّةَ إثْــرَ الــرَّاحِلِينْ!**

فعاده كسر الجرّة كانت شائعة في الشام (وغيرها كمصر) يفعلون ذلك إذا رحل ساكنٌ مؤذٍ سيِّئ عن الحيّ، يفرحون بذلك، ويزعمون أن كسر الجرّة يحمي الحيّ من عودته، وهو في الوقت ذاته تَشَفٍّ منه!!

– وممّا احتواه شعره من العبارات الدارجة قوله من مطلع قصيدة:

ذهبَــتْ ذَقْنــكَ مَرْشــا فــاحتكِمْ لي تُعْـط أَرْشـا

وقد شرح الشاعر على أصل القصيدة بخطه معنى المَرْش والأرش في اللغة الفُصحى. ولكنّ الشاعر أخذ العبارة من الكلام الدارج الشامي. يقولونها لمن فاته أمرٌ (كدعوةٍ إلى طعام أو توزيع هدايا لمناسبةٍ ما) وأرادوا إغاظته أو التندّر به[2].

– وقال في قصيدة[3]:

لم يَجْـنِ خَـيْرًا مَـنْ نَجَـلْ ولم يَمُـتْ مَـنْ قـد نَجَـلْ

«نجل» الأُولى فعلٌ من نَجَلَ الناسَ: شارّهم، و«نجل» الثاني فعلٌ لمعنى آخر وهو أن يولدَ له أولاد. والعبارة من مثل شعبي دارج: «مَنْ خَلّف ما مات».

واستفاد من قول الناس في الشائع «فلان حَظُّه أسود» فقال[4]:

---

(١) الديوان ١: ٢٦٤.

(٢) أو العبارة الشامية الدارجة: «راحت دقنك مَرْش».

(٣) الديوان ٢: ٧٦.

(٤) ديوان البِزم ٢: ٢٣.

– وهم يديرون الكلام على جهاتٍ مختلفة. فيقولون حظه أسود، وحظه سُخام، أو مسخم (والسّخام: سوادُ القِدْر)، ويقولون: حظه أسود «عُطّاب». وهذه عامية مُحَرّفة من: عُطبة، وهي خرقة تؤخذ بها النار... الخ. وذلك كلّه للتعبير عن السّواد.

ودَجــا الأســودان: حَــظٌّ وليــلٌ فَقِيــادي يَــسْعى بــه أَسْــوَدانِ!

وهٰذا في شعره - ونثره - كثير. ويستطيع الدارسُ أن يستخرج من الديوان والمنثور الباقي بحثًا واسعًا في هٰذا الموضوع.

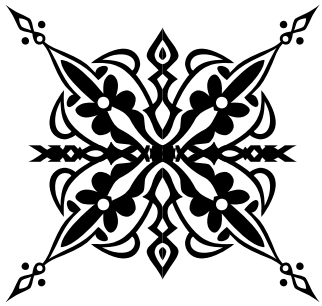

تذييل

محمَّد البِزم و«نقد» شعره

(١)

أثنى علي الطنطاوي على البِزم، آخذًا مادّة الثناء من أخويه ومن زملائه «فخبّرونا أنه كان **مدرّسًا نادر المثيل**. كان فصيح اللّهجة، بَيّنَ الأُسلوب: تعرفُ ذلك من سلامه، ومن كلامه: **لا يتكلّمُ إلّا اللغة العربيّة البليغة**»[١]. قال الطنطاوي حاكيًا عن صلته به: «ولقد اتّصل حبل المودّةِ بأَخَرة[٢] بيني وبينه، وكانت جافيةً أَوّلًا؛ ذلك أنه كان يكتب في مجلة **الميزان**[٣] كلمات يتناول فيها الأدباء بالتجريح لا يكاد يَسْلَمُ من لسانه أحد. فكتب عن أستاذنا الجندي[٤]: «أنه يهدمُ للمعرّي قصرًا فخمًا ليقيمَ من أنقاضهِ كوخًا حقيرًا» فأخذتني الحميّةُ لأستاذي، وكتبتُ عن البِزم: «إنه يعرف في النحو ما يجهله الناس... ويجهلُ ما يعرفه الناس، وإنّ شعره جدارٌ من الحجارة الصّلدة ولكنها مركومة ركمًا ليس بينها مَلَاط!!، **فغاظه ذلك مني، وكفّ** عن الجندي...»[٤].

(٢)

في كتاب ظافر القاسمي القيّم «مكتب عنبر» ورد ذكر البِزم كثيرًا، وأفرده

---

(١) ذكريات – علي الطنطاوي ١: ١٢٥.

(٢) بأخرة: أخيرًا.

(٣) كان يصدرها أحمد شاكر الكَرْمي في أوائل العشرينيّات من القرن الماضي.

(٤) ذكريات – علي الطنطاوي ١: ١٢٦.

المؤلف بوقفة خاصّة، وكان من تلاميذه، وفي ذكريات ظافر القاسمي مع أستاذه هٰذا الخبر المناسب لهٰذه الفقرة من الكلام[1] قال:

«... ولقيتُه مرّةً في الزبداني صيف عام ١٩٣٠ بعد أن نشرت الصحف قصيدته في رثاء المرحوم فوزي الغزي[2]، وقد أردتُ أن أُداعِبَهُ، فقلت: قرأتُ قصيدتك العصماء، **وعجبتُ من توارد الخواطر**[3] في ما بينك وبين ابن المعتزّ.

قال: حيث يقول؟

قلت: ختمتَ قصيدتَك بهٰذا البيت[4]:

لستُ أستسقي لمثواك الحَيا ... فلقد ضُمِّنَ غيثًا وعُبَابا

وابن المعتز يقول:

لستُ مُسْتَسْقِيًا لقبرك غيثًا ... كيف يَظْما وقد تَضمّنَ بَحْرا؟

ففهم - رحمه الله - إشارتي، **وظهرت في وجهه علامات استنكاره** لجرأتي عليه، وقال: لم أسمعْ ببيت ابن المعتز حتى الآن. فسكتُّ لِمَا لمحت في مُحَيّاه...» ثم قال القاسمي: إنه بعد صدور الديوان ووصولِ نسخةٍ منه إليه سارع إلى القصيدة، ولم يجد ذلك البيت فيها. قال: «ويقيني أنه قد استغنى عنه، رحمه الله، فشطبه بعد مصارَحَتِي له». وزاد القاسمي: «**تلكم بعضُ مظاهر إحساسِه المفرط**، الذي لازمه

---

(١) مكتب عنبر - ظافر القاسمي: ٥٧ - ٥٨.

(٢) سياسي وزعيم سوري مات غيلةً. وقد رثاه شوقي بشعرٍ جيّد أيضًا.

(٣) القصيدة في ديوان البِزم ١: ٨٣، ولم يشر المحققان إلى أنها في فوزي الغزّي!!

(٤) مطلع القصيدة (ديوانه ١: ٨٣) وهي بعنوان: مصرع الحقّ:

غالب الدّهْرَ إن اسْطَعْتَ غِلابا ... وانتزعْ من كفّه الحقَّ اغتصابا

وآخر بيت فيها:

يهدمُ الموتُ من الجسم فإنْ ... رامَ هَدْمَ الذِّكْرِ والأفعالِ خابا

طوالَ حياته، وكم عانى منه، وكم سبّب له من آلام: زادته سقامًا على سقام».

(٣)

وقال ظافر القاسمي: إن البِزم زاره بعد زواجه مهنّئًا، وعرفَ أن اسم الزوجة (ناهدة) فقال البِزم: كيف ترضى أن يكون اسم زوجتك خطأ؟ الصواب: ناهد، فقلت له: وما رأيك إذا كان اسْمُها قد ورد في شعر أبي نواس؟ قال: أبو نواس آخِرُ من يُحْتَجُّ بشعرهّ![1] ماذا قال؟ قلت:

وناهــدة الثّــدْيينِ مــن هَــدمِ القَــصْرِ

قال رحمه الله ضاحكًا: لقد صَرَعْتَني...الخ»[2].

(٤)

وفي «تاريخ يتكلّمُ» لفخري البارودي[3] خبرٌ أركانهُ: خليل مردم بك، وأحمد شاكر الكرمي صاحب مجلة (الميزان)، وفخري البارودي، ومحمَّد البِزم. قال البارودي: إنه علم من الكرمي ومردم أنّ المجلة ستنشر بحوثًا في تقويم بعض الشعراء، وعرف أنه سَيُكْتَبُ عن البِزم كلامٌ فيه هٰذه العبارة: «رأى مشكاة الشعر فسار إليها، ولّما كاد أنْ يصلها ضلّ الطريق...». ولّما لقي فخري البارودي محمَّد البِزم سارع إلى تنبيهه على العبارة السّابقة دونَ أن يسمّي له كاتبها. وساور الشك الشاعر البِزم أن يكون البارودي هو صاحب العبارة.

---

(١) أي لا يُحتجّ بشعره أَصلًا (في اللغة والنحو...).

(٢) مكتب عنبر: ٥٨ - ٥٩.

- وزاد القاسمي شاهدًا من شعر عمر بن أبي ربيعة في الحاشية، وفيه:

وناهدةِ الثديين قلتُ لها اتّكي...

(٣) تاريخ يتكلم: ٩٧ - ٩٨.

وقال البارودي: وما لبثت أَن قرأتُ للبِزم قصيدة زائيّة[1] في جريدة (المُفِيد) كان يحرّرها خير الدين الزركلي «يفخر فيها على معاصريه، ويهاجم فيها شخصًا لم يذكر اسمه. وقال البِزم لِبَعْضِ أصحابه إنه لا توجد قصيدة عربية على روي الزاي تحوي أكثر من أربعة عشر بيتًا. فنظم البارودي قصيدة على روي الزاي أيضًا، وكأنها ردٌّ على البِزم وقد وقع في وهمه أن البِزم يعنيه بزائيّتِهِ وأرسلها إلى الزركلي لنشرها في (المفيد). قال البارودي: فأطلع الزركلي البِزم على قصيدتي قال، والعبارات له: «فجاءني مهرولًا وقال: ما دهاك؟ ما لك وما لي؟ قلت: جوابًا عن قصيدتك. قال: أنا لم أقصدك أنت! قلتُ: بلى! قال: «أبدًا»، وأَقسم أيمانًا مغلّظةً أنه لم يقصدني فيها، قال: المقوّم (الفني للشعر) الذي أخبرك! قلت: وما تريد الآن؟ قال: أريدُ أنْ تُبقيَ قصيدتكَ بلا نشر، وسنبقى إلى آخر العُمر أصدقاء. وكان ذلك». ثم قال: ويبدو أن الكرمي ومردم أحجما عن نشر تقاويم الشعراء.

ونشر فخري البارودي قصيدته الزائية في كتابه «تاريخ يتكلم»[2]:

عجبتُ وأيم اللهِ من أمرِ شاعرٍ ... لهُ - كل يومٍ - في تقلّبه طَرْزُ
ولم أرَ في ما قاله في زمانهِ ... من الشعر بيتًا كان فيه له فَوْزُ
ومَنْ يَدّعي في الناس ما ليس عنده ... ولم يأتِ بالبرهان يفضحه العَجْزُ
ويسكتُ دهرًا ثم يأتي بقطعةٍ ... يظنُّ بأن الكونَ من ذاكَ يهتَزُّ
يفتش في القاموس عن كلّ لفظةٍ ... لها في مجاري السمع من وَقْعِها وَخْزُ

(١) القصيدة في الديوان ١: ٢٩٤ - ٢٩٧. وهي في تسعة وعشرين بيتًا أَوّلها:

يُعَيّرني في تركيّ الشّعْرَ أَخرقٌ ... ويُزْعَمُ بي عن درك غايته عَجْزُ!
ولو شئت سَيّرتُ القوافي جحافلًا ... وأوقرتُ أَسماعًا، وكان لي الفوزُ

(٢) تاريخ يتكلم - فخري البارودي - مطابع ابن زيدون - دمشق - ١٩٦١ - ص٩٨.

فـإن كـان إظهـارُ البلاغَـةِ في الـورى بزعمك يـا هٰـذا هـو الحَمْـزُ والجَمْزُ[1]

فَثَلْبًـــا إذن للمُـــصْمَعِدّ بنزْبِـــهِ هـو البَغْثَـرُ الجفـاخ يلزمـهُ الطنـزُ[2]

فقــل لي إذن بــالله إن كنــتَ عالمًــا متى كـانَ سبعُ الغـابِ تنطحـهُ العنـزُ

ولكـــنْ إذا دارَ الزّمـــانُ بأمّـــةٍ ونامـت نـسورُ الجـوّ يَسْتَنِـسرُ الـوزُّ!

هٰذه الأخبارُ وأمثالها قليلة، ولكنّها لا توحي بانطباعٍ واحدٍ، فقد يمرّر البِزم النقاش بدعابة؛ وقد يتجنّب ذلك لأنه سيدفعه إلى أَخذٍ وردّ، ونفسه لا تحتمل هٰذا.

وفي أبيات البارودي تهكّم، والبِزم - بلا شَكّ - كان قادرًا على الرّدّ الشديد، ولكنّ «**حساباته الاجتماعية**» كانت أشدّ وأَقوى[3].

(١) حمز الخردلُ اللسان: لذعه. وجمز: عدا وأسرع. [المعجم الوسيط]

(٢) الثلب: الخسار. المصمعدّ: المتكبّر المتعجرف. النّزب: الصوت العالي. البغثر: الأحمق. الجفاخ: المتكبّر. الطنز: السخرية. والطنّاز: الساخر (من شرح البارودي على قصيدته).

(٣) وانظر ما كتبناه عنه في هٰذا الملمح من «ملامح الشخصيّة» من هٰذا الكتاب.

الصور والوثائق

محمَّد البزم في شبابه

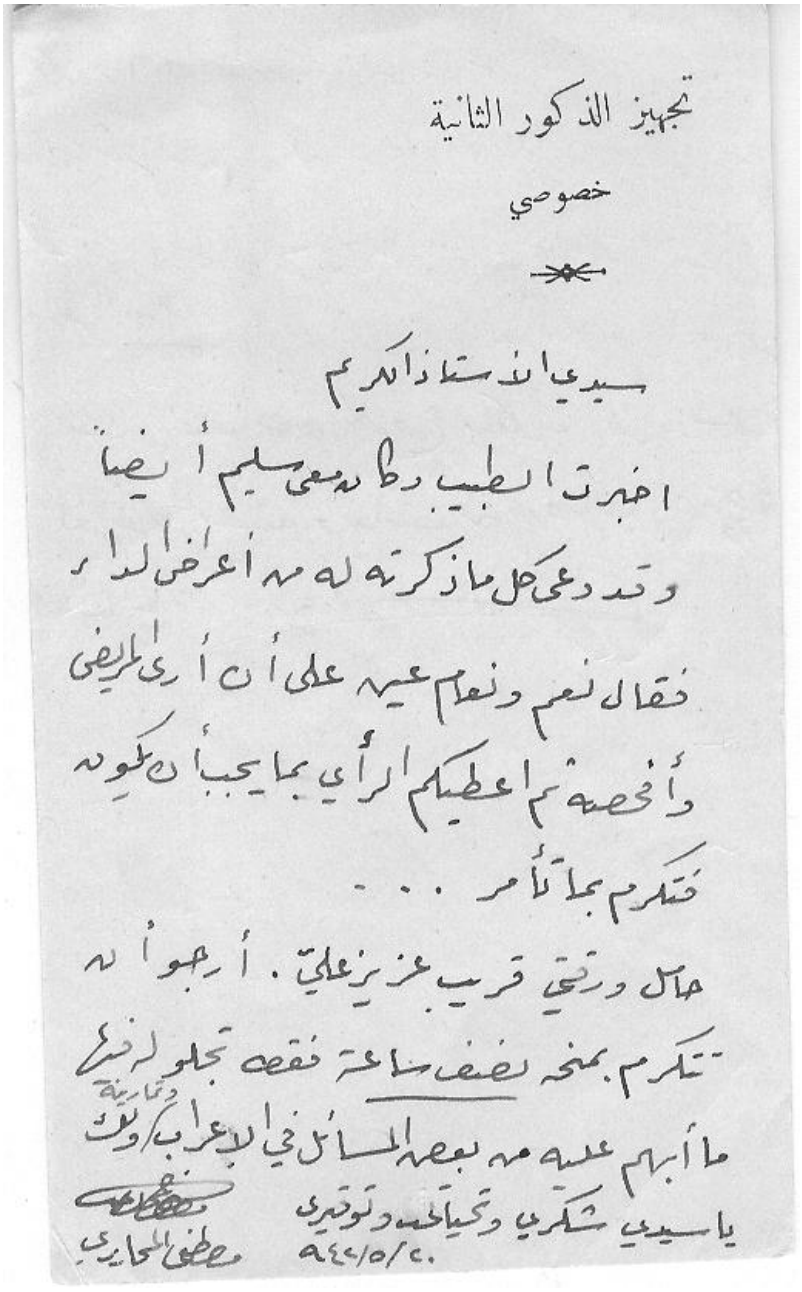

تجهيز الذكور الثانية

خصوصي

سيدي الأستاذ الكريم

اخبرت الطبيب رطاه معي مسليم أيضا
وقد دعي كل ما ذكرته له من اعراض الداء
فقال نعم وتعلم عليه على أن أرى المريض
وأفحصه ثم اعطيكم الرأي بما يجب أن تكون
فتكرم بما الأمر . . .
حامل رقعتي قريب عزيز علي . أرجو أن
تتكرم بمنحه نصف ساعة فقط تجلو له فيها
ما أبهم عليه من بعض المسائل في الإعراب وتمارينه ولك
ياسيدي شكري وتحياتي وتوقيري

مصطفى الحمادي
٩٤٢/٥/٢٠

رسالة أحد أصدقائه إليه

(أشرنا إليها في سيرة حياته)

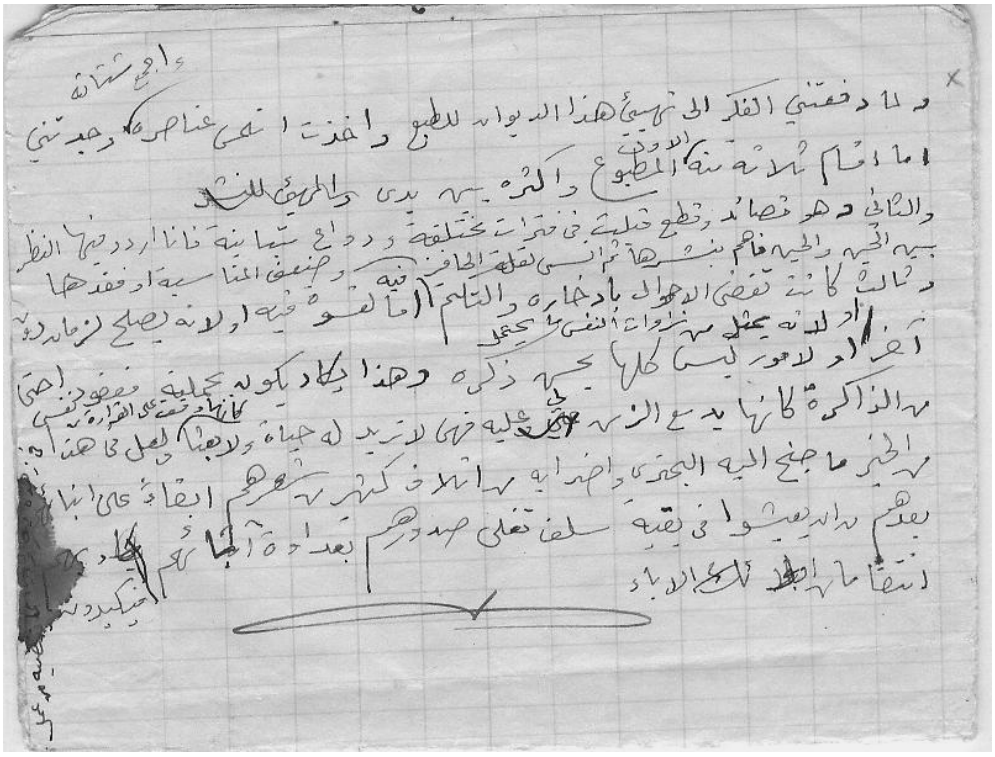

صورة جذاذة من خطّه

من مقدمته على ديوانه

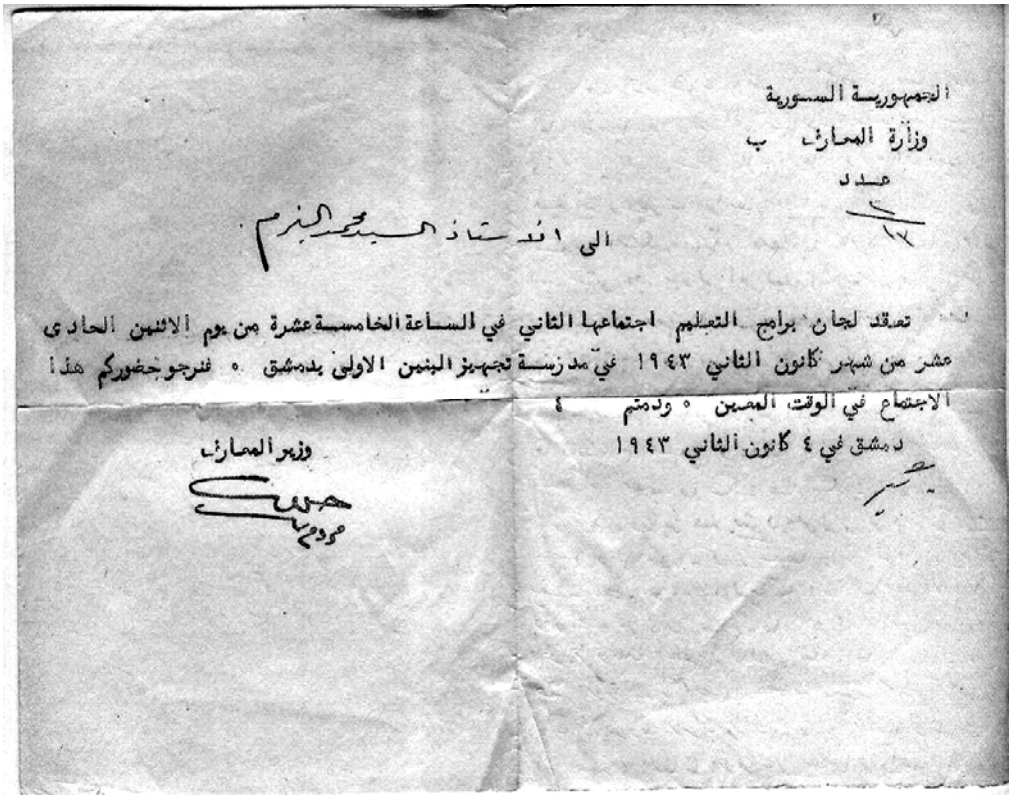

الجمهورية السورية
وزارة المعارف ب
عدد

الى الاستاذ السيد محمد البزم

تعقد لجان برامج التعليم اجتماعها الثاني في الساعة الخامسة عشرة من يوم الاثنين الحادي عشر من شهر كانون الثاني ١٩٤٣ في مدرسة تجهيز البنين الاولى بدمشق . فنرجو حضوركم هذا الاجتماع في الوقت المعين . ودمتم

دمشق في ٤ كانون الثاني ١٩٤٣

وزير المعارف

صورة عن دعوة البزم إلى اجتماع تربوي في وزارة المعارف

تمثل جانباً من نشاطه في مجال التربية والتعليم

(وكان الوزير آنذاك خليل مردم بك)

(وتوقيعه ظاهر)

صورة من خطّ محمد البزم في شبابه الأول

(انظر بحث مقالات نقدية من هذا الكتاب)

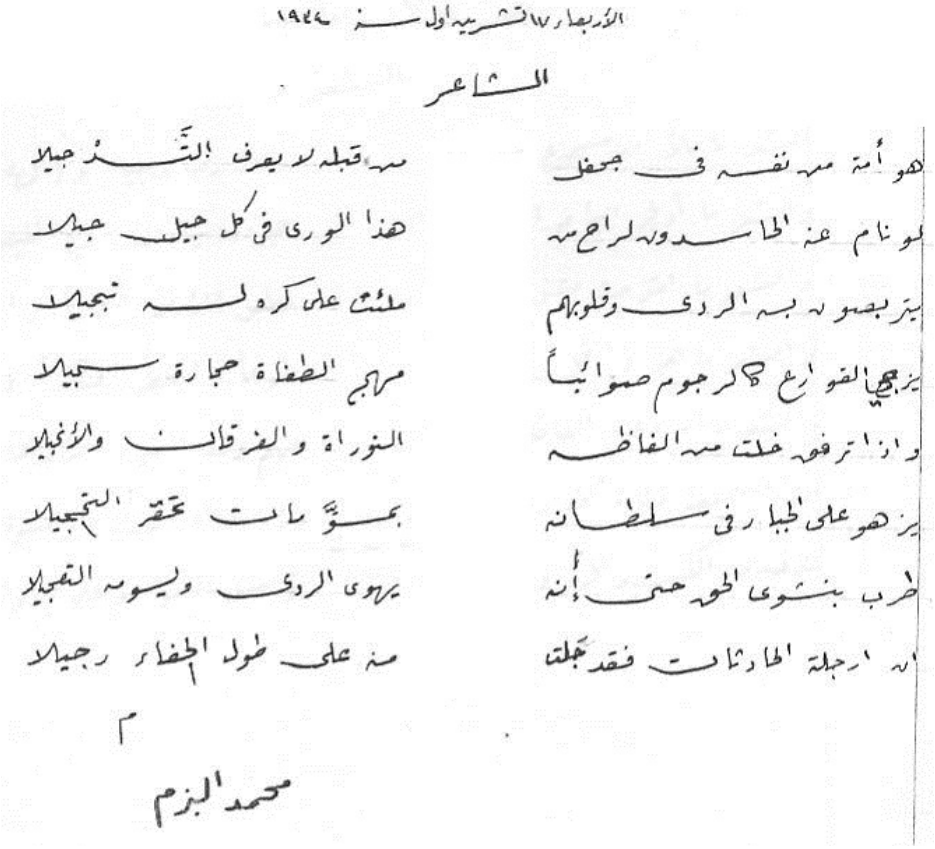

الأربعاء ١٧ تشرين أول سنة ١٩٤٤

الشاعر

هو أمة من نفسه في جحفل ... من قبله لا يعرف التشرد جيلا

لو نام عن الحاسدين لراح من ... هذا الورى في كل جيل جيلا

يتربصون به الردى وقلوبهم ... ملئت على كره له تبجيلا

يزجي القوارع كالرجوم صوائباً ... مراجم الطغاة حجارة سجيلا

وإذا ترفق خلت من ألفاظه ... التوراة والفرقان والإنجيلا

يزهو على الجبار في سلطانه ... بمقوّمات تحقّر التبجيلا

طرب بنشوى الحوم حتى أنه ... يهوى الردى ويسومه التقبيلا

إن أرجلة الحادثات فقد جلت ... منه على طول الجفاء رجيلا

م

محمد البزم

من دفاتر الدكتور إبراهيم حقي وهو في الصف الثامن الإعدادي

(شعر للاستظهار مكتوب بخط الدكتور حقّي)

انظر: محمَّد البِزم معلّماً

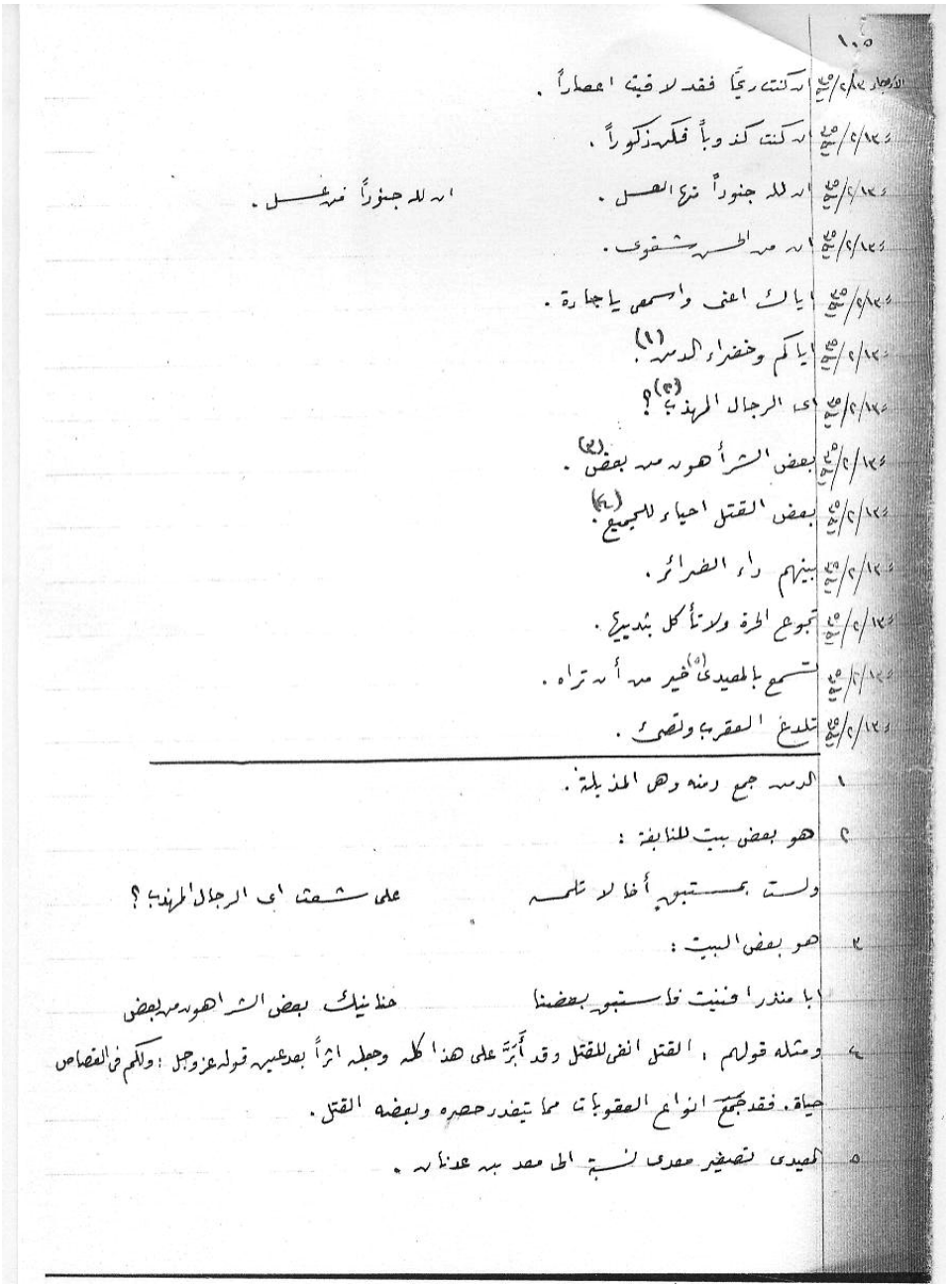

١٠٥

إن كنت ريحاً فقد لاقيت إعصاراً.

إن كنت كذوباً فكن ذكوراً.

إن لله جنوداً منها العسل. إن لله جنوداً من عسل.

إن من الطير مشقوف.

إياك أعني واسمعي يا جارة.

إياكم وخضراء الدمن (١).

أي الرجال المهذب (٢)؟

بعض الشر أهون من بعض (٣).

بعض القتل إحياء للجميع (٤).

بينهم داء الضرائر.

تجوع الحرة ولا تأكل بثدييها.

تسمع بالمعيدي (٥) خير من أن تراه.

تلدغ العقرب وتصيء.

١ الدمن جمع دمنة وهي المزبلة.

٢ هو بعض بيت للنابغة:

ولست بمستبقٍ أخاً لا تلمه ... على شعثٍ أي الرجال المهذب؟

٣ هو بعض البيت:

أبا منذر أفنيت فاستبقِ بعضنا ... حنانيك بعض الشر أهون من بعض

٤ ومثله قولهم: القتل أنفى للقتل وقد أُثر على هذا كله وجعله أثراً بعد عين قوله عز وجل: ولكم في القصاص حياة. فقد جمع أنواع العقوبات مما يتعذر حصره وبعضه القتل.

٥ المعيدي تصغير معدي نسبة إلى معد بن عدنان.

من دفاتر الدكتور إبراهيم حقي وهو في الصف الثامن الإعدادي

(من الأمثال العربية)

انظر: محمَّد البِزم معلّماً

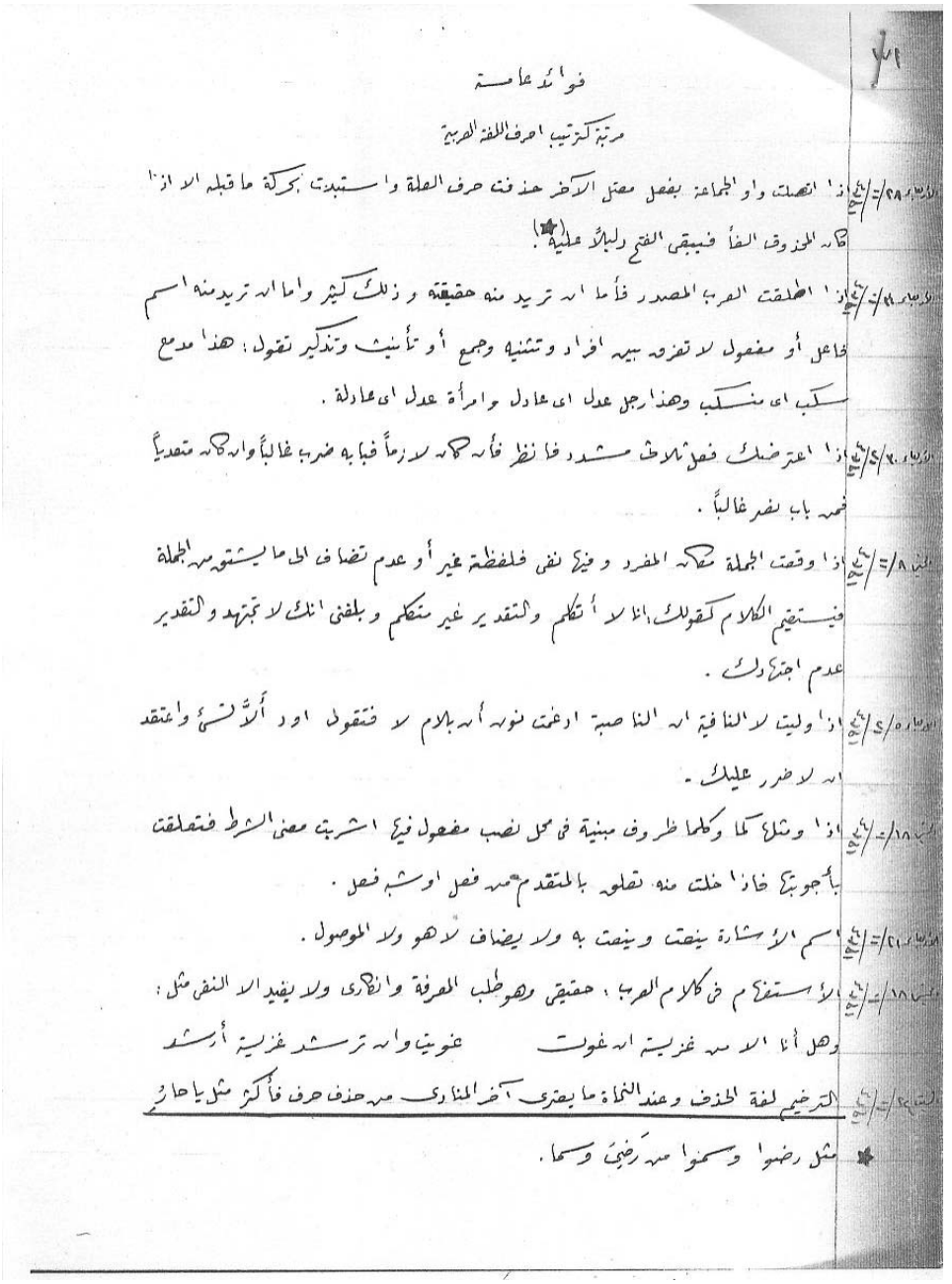

١/٧

فوائد عامة

مرتبة كترتيب احرف اللغة العربية

اذا اتصلت واو الجماعة بفعل معتل الآخر حذفت حرف العلة واستبدلت بحركة ما قبله الا اذا كان المحذوف الفاً فيبقى الفتح دليلاً عليه (★).

اذا اطلقت العرب المصدر فأما ان تريد منه حقيقته وذلك كثير واما ان تريد منه اسم فاعل أو مفعول لا تفرق بين افراد وتثنية وجمع أو تأنيث وتذكير تقول: هذا ماء سكب اى منسكب وهذا رجل عدل اى عادل وامرأة عدل اى عادلة.

اذا اعترضك فعل ثلاثي مشدد فانظر فأن كان لازماً فبابه ضرب غالباً وان كان متعدياً فمن باب نصر غالباً.

اذا وقعت الجملة مكان المفرد وفيها نفى فلفظة غير أو عدم تضاف الى ما يشتق من الجملة فيستقيم الكلام كقولك انا لا أتكلم والتقدير غير متكلم وبلغنى انك لا تجتهد والتقدير عدم اجتهادك.

اذا وليت لا النافية ان الناصبة ادغمت نونها باللام فتقول اود ألا تنسى واعتقد ان لا ضرر عليك.

اذا ومتى كلما وكلما ظروف مبنية في محل نصب مفعول فيه اشربت معنى الشرط فتعلقت بأجوبتها فاذا خلت منه تعلقت بالمتقدم من فعل او شبه فعل.

اسم الاشارة ينعت وينعت به ولا يضاف لا هو ولا الموصول.

الاستفهام في كلام العرب: حقيقى وهو طلب المعرفة وانكارى ولا يفيد الا النفى مثل:
وهل أنا الا من غزية ان غوت غويت وان ترشد غزية أرشد

الترخيم لغة الحذف وعند النحاة ما يعترى آخر المنادى من حذف حرف فأكثر مثل يا حار

★ مثل رضوا وسموا من رضى وسما.

من دفاتر الدكتور إبراهيم حقي وهو في الصف الثامن الإعدادي

(فوائد عامة)

انظر: محمَّد البِزم معلّماً

البزم في المشفى العسكري بدمشق – المزة

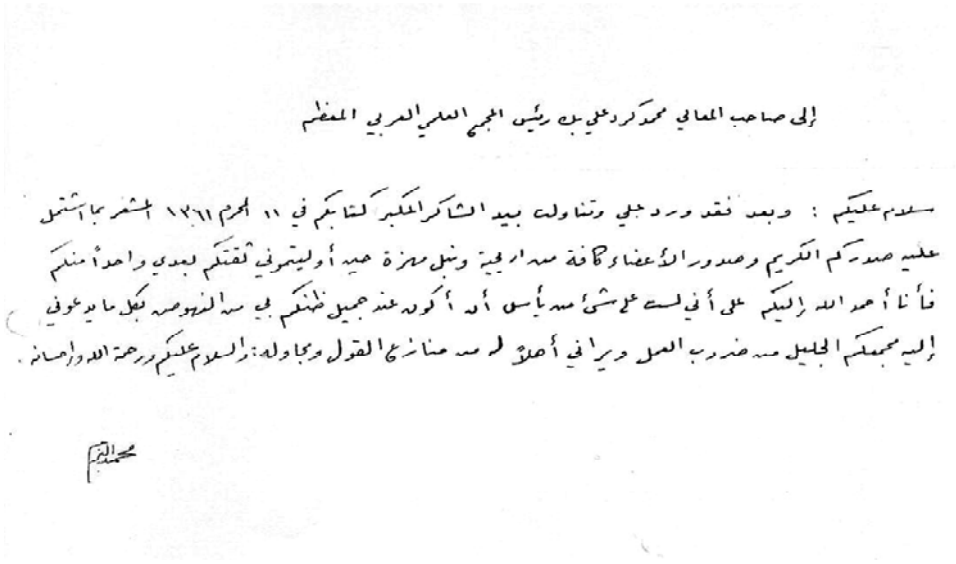

إلى صاحب المعالي محمد كرد علي بك رئيس المجمع العلمي العربي المعظم

سلام عليكم: وبعد فقد ورد جلي وتناولت بيد الشاكر المكبر كتابكم في ١١ المحرم ١٣٦١ المشعر بما اشتمل عليه صدركم الكريم وصدور الأعضاء كافة من ارتياح ونبل مبرة حين أوليتموني ثقتكم بعدي واحداً منكم فأنا أحمد الله إليكم على أني لست على شيء من يأس أن أكون عند جميل ظنكم بي من النهوض بكل ما يدعوني إليه مجمعكم الجليل من ضروب العمل وأرى في أصلي له من صنائع القول ومجاوله. والسلام عليكم ورحمة الله وإحسانه.

محمد البزم

رسالة الأستاذ البزم إلى رئيس المجمع

بعد انتخابه عضواً فيه

في المصادر والمراجع

الكتب المطبوعة

- الاتجاه القومي في الشعر العربي الحديث – عمر الدقاق – دار الشرق – حلب – ١٩٦٣.
- اتجاهات النقد الحديث في سورية – د.جميل صليبا – معهد البحوث والدراسات العربية – القاهرة – ١٩٦٩.
- الأجوبة المسكتة – ابن أبي عون – تحقيق د.ميّ أحمد يوسف – دار عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية – القاهرة ١٩٩٦.
- الأجوبة المسكتة لابن أبي عون – عبد القادر عطا – القاهرة.
- الأدب العربي المعاصر في سورية – سامي الكيالي – دار المعارف بمصر – ١٩٥٩.
- الأعلام – خير الدين الزركلي – دار العلم للملايين – ١٩٩٧.
- الأندلس – د.شوقي ضيف – دار المعارف بمصر – الطبعة الثانية.
- أصلي ومولدي ومنشئي – محمد البزم.
- تاريخ الأدب العربي – كارل بروكلمان – الملحق – الجزء الثالث.
- تاريخ الشعر العربي الحديث – أحمد قبش – دمشق.
- تاريخ يتكلم – فخري البارودي – دمشق.
- تكملة المعاجم العربية – دوزي – ترجمة محمد سليم النعيمي – بغداد – (١٩٧٦ – ٢٠٠١).
- جمال الدين القاسمي وعصره – ظافر القاسمي – دمشق – ١٩٦٥.

- جيل الشجاعة حتى عام ١٩٤٥ - نجاة قصاب حسن - دمشق.
- حاضر اللغة العربية في بلاد الشام - سعيد الأفغاني - معهد البحوث والدراسات العربية - القاهرة - ١٩٦٠.
- دمشق الشام عاصمة الثقافة العربية - هيئة الموسوعة العربية - دمشق - ١٤٢١هـ - ٢٠٠٨م.
- ديوان البزم - جزءان - ضبط وشرح: سليم الزركلي وعدنان مردم بك - المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، دمشق ١٣٨١هـ - ١٩٦١م.
- ديوان الزركلي - خير الدين الزركلي - مؤسسة الرسالة دمشق - ١٩٨٠.
- ديوان حافظ إبراهيم - أحمد أمين - وزارة المعارف - القاهرة - الطبعة الأولىٰ.
- ديوان شوقي - د.أحمد الحوفي - مكتبة نهضة مصر - القاهرة (غير مؤرّخ).
- الذخيرة - لابن بسّام الشنتريني - تحقيق د.إحسان عباس - دار صادر - بيروت - الطبعة الأولىٰ.
- ذكريات - علي الطنطاوي - دار المنارة للنشر - جدة - ١٤٠٠هـ - ١٩٨٥م.
- شخصيات: دراسة أدبية ونفسية - د.إبراهيم الكيلاني - منشورات اتحاد الكتاب العرب دمشق ١٩٧٣.
- الشعر الحديث في سورية - د.سامي الدهان - طبعة ثانية مزيدة - تشرين الثاني - ١٩٦٨ - دار الأنوار - دمشق.
- الشعر وطوابعه الشعبية على مرّ العصور - د.شوقي ضيف - دار المعارف بمصر - ط٢ - ١٩٨٤.
- الشعراء الأعلام في سورية - د.سامي الدهان - دار الأنوار - دمشق - ١٩٦٦.

- شعراء سورية – أحمد الجندي – دار الكتاب الجديد – بيروت – ١٩٦٥.
- طوق الحمامة في الألفة والأُلّاف – ابن حزم القرطبي – مكتبة عرفة بدمشق – ١٣٤٩هـ – (قدّم له الشاعر العربي الكبير محمد البزم).
- طوق الحمامة في الألفة والألاف – ابن حزم – ضبطه وحَرّر حواشيه الطاهر مكي – دار المعارف بمصر – ١٣٩٥هـ – ١٩٧٥م.
- ظلال الأيام – أنور العطار – دمشق – ١٩٤٨م.
- عبقريات شامية – عبد الغني العطري – (دون ناشر) – الطبعة الأولى – ١٩٨٦ – دمشق.
- عصر الطوائف والمرابطين – د.إحسان عباس – دار الثقافة – الطبعة الأولى.
- علامة الشام عبد القادر بدران – محمد ناصر العجمي – دار البشائر الإسلامية – بيروت (١٣١٧هـ-١٩٩٦).
- العمدة في محاسن الشعر وآدابه – ابن رشيق القيرواني – ت.محمد قرقزان – دار المعرفة – دمشق – ١٤١٤هـ، ١٩٩٤م.
- في الأدب الأندلسي – محمد رضوان الداية – دار الفكر دمشق – ط٤.
- المثالث والمثاني – حليم دَمّوس – مطبعة العرفان – صيدا ١٣٤٤هـ – ١٩٢٦م.
- محمد البزم – د.إبراهيم الكيلاني – منشورات دار الثقافة – دمشق – غير مؤرّخ.
- مكتب عنبر (صور وذكريات من حياتنا الثقافية والسياسية والاجتماعية – ظافر القاسمي – المطبعة الكاثوليكية – بيروت – ١٩٦٤.
- النور والنار في مكتب عنبر – مطيع المرابط – بلا ناشر – دمشق – ١٩٩١م.

* * *

المجلات والدوريات

أعداد من:

- مجلة الثقافة (الدمشقية).
- ومجلة الميزان (الدمشقية).
- ومجلة العربي.
- ومجلة مجمع اللغة العربية.
- ومجلة الرّسالة.
- جريدة: الأسبوع الأدبي (اتحاد الكتاب العرب - دمشق).

ندوات ومحاضرات

ثبت في موجودات الشابكة إشارات إلى ندوات ومحاضرات عن محمد البزم، وهي جميعاً تأخذ عما كتبه الدكتور إبراهيم الكيلاني غالباً في كتابيه «محمد البزم» و«شخصيات». وهي ترادٌ لما ورد فيهما، منها محاضرة للشاعر مصطفى عكرمة وللأستاذ زهير ناجي، وكان الديوان بين أيدي أولئك الباحثين أيضاً.

مراجع حيّة

حصلت على معلومات كتبتها عن أصحابها في لقاءات خاصة معهم، وحوار يخصّ محمد البزم وجوانب اطلعوا عليها وعرفوها عن شخصه وشخصيته وسائر أحواله، وعن علمه وتعليمه وشعره.

- مقابلة مع الدكتور إبراهيم حقي[١] (لقيته في منزله لقاءين اثنين).
- مقابلة مع الدكتور عبد الغني عرفة[٢] في مقر عمله بجمعية مكافحة السلّ في أبو رمّانة.
- مقابلة مع الدكتور مازن المبارك[٣]، في مركز البحث العلمي من مجمع الفتح الإسلامي (فرع معهد الشام للدراسات العربية والإسلامية)
- مقابلة مع الدكتور عبد الفتاح البزم، وقد أَدرك الشاعر محمد البزم في حال صحّته، وزاره مع والده وعمه في المستشفى العسكري بدمشق. لقيته في دار الإفتاء بدمشق، وفي مجمع الفتح الإسلامي.
- محادثة مع أ.محمد شفيق ياسين (كلية العلوم بجامعة دمشق).

---

(١) طبيب مشهور، ومؤلّف متقن: له كتب في قضايا الطب، ومعجم (٣ لغات) في أمراض النساء، ومؤلفات في الثقافة والحضارة واللغة العربية.

(٢) طبيب مشهور، وموظف كبير قديم في وزارة الصحّة.

(٣) أستاذ جامعي، وعضو مجمع اللغة العربية بدمشق. وكان والده الشيخ عبد القادر المبارك من الرعيل الأول – مع محمد البزم – في بناء صرح التّربية العربية الإسلامية، وترسيخ اللغة العربية على ألسنة الجيل وأقلامهم وفي مشاعرهم. وصارا رصيفين في المجمع العلمي العربي.

- حديث مع محمود الصَّلاحي في محل عمله بدوما (من غوطة دمشق).
- مقابلات كثيرة مع السيّد حسان البزم في منزلة من منطقة الشعلان بحي السُّبكي وقد أفدتُ منه كثيراً في أخبار والده، وبعض أصدقائه وتلاميذه.

وإني لأشكرهُ على تعاونه، وثقته؛ ووضعه ما عنده من تراث محمد البزم بين يديّ؛ حفظه الله ورعاه.

المخطوطات

- دراسة د.شاكر مصطفى في مقدمة محمد البزم النّقديّة (مقالة في ٩ صفحات بخطّه) – صورتها من محفوظات أ.حسان البزم من أوراق والده.
- دفتر مصوّر فيه: مجموعة من قصائد محمد البزم، وصفحات من كتاب [طلائع] الجحيم.
- مجموعات من الظروف فيها جذاذات، في كل ظرف مادّة تخص قضية من القضايا التي عالجها محمد البزم: في اللغة والنحو والاختيارات الشعرية والمعاجم الخاصّة إلى فوائد مختلفة، استفدتُ منها عند الكلام على مؤلفاته أو مشروعات مؤلفاته، وقد وضع أ.حسان البزم لكل ظرف عنواناً. ولكن المحتويات قد تكون مواد مختلفة.
- عدد من الدّفاتر الصغيرة فيها موضوعات شتى متفرّقة، وفيها أسماء طلّابه لضبط حضورهم، وتسجيل درجاتهم، أو لعرضهم سَرْداً بلا ملاحظات.
- مختارات بخط الدكتور إبراهيم حقّي، اختارها لي (لأضعها في هذا الكتاب أو

أفيدَ منها في الكلام على محمد البزم معلّماً). وهي موادّ تخصّ فروع اللغة العربية كما كان يُدَرِّسُهَا محمد البزم في النحو والصرف واللغة والشعر والإنشاء...الخ.

- الأجوبة المسكتة (أحد كتب محمد البزم) في جزأين: نسّقه وأعاد نسخه، ورتبه د.عبد الفتاح البزم.
- مقدمة محمد البزم على ديوانه (جذاذات كتبها البزم في أوقات متفرقة على طريقته). رتّبها، وسَلْسَلها الدكتور شاكر مصطفى، وصوّرها، وقد صوّرتها، وقرأتُها، وصنعت لها حواشيَ، وتقديماً.

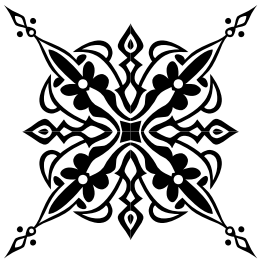

فهرس

مقدمة: هذا الكتاب ٧

محمد البزم في آثار الدارسين ١٧

في مصادر هذه الدراسة ومراجعها ٢٣

المطبوع من تراث محمد البزم ٢٣

المخطوط من آثار محمد البزم الباقية ٢٣

المراجع المطبوعة ٢٣

المصادر الحية (الشهادات الحية) ٢٤

الفصل الأول

سيرة حياة ٢٦

البدايات ٢٦

في سوق العمل ٣٠

أول طريق العلم ٣٢

تكميل وتأصيل ٣٧

ونقرأ من ذكرياته ٣٩

متابعة المجريات ٤٠

محمد البزم ومهنة التعليم ٤٤

المرحلة الأخيرة ٤٥

التقاعد والاعتلال والمستشفى ٤٦

الحال الاجتماعية (من قضايا حياة البزم) ٤٨
السجن ٤٩
الترقية ودخول المجمع ٥٢
هو ومعاصروه ٥٢
مع تلامذته ٥٣
مرضه: الوهم والحقيقة ٥٦
وفاته وتأبينه ٥٧
أصداء وفاة محمد البزم ٥٩

الفصل الثاني

في معالم الشخصية ٦٠
وصف البزم ٦١
في الهيئة ٦٢
من ثورة الشباب إلى قرارة الكهولة ٦٣
الفصحى من المعلم إلى التلميذ ٦٤
قضية التزام ٦٦
العقيدة ورسالة الإسلام ٦٨
الاعتداد بالنفس ٦٩
صلابة المواقف ٧٢
في الطبع ٧٢
الحظ ٧٤
نظرة إلى الناس ٧٦
من رؤى المعري ٧٨
الشطرنج ٧٩
من جانب آخر – الدعابة ٧٩

في ظلال المجتمع ٨٥
مساجلة ٨٦
خصومات ٨٨

الفصل الثالث

جوانب محمد البزم ٩٢
مدخل إلى آثار البزم الأدبية واللغوية والنقدية ٩٤
نشاطه للتأليف ٩٩
كتب، ومشروعات كتب، وبحوث ١٠١
الأجوبة المسكتة ١٠١
الجحيم ١٠٤
اللحن ١١١
العامي الفصيح ١١٣
الأخطاء الشائعة ١١٤
التذكرتان ١١٦
الموالي ١١٨
فِقَر وفِكَر ١١٩
شعر المدرسة ١٢٠
نثر اللزوم ١٢٠
الشطرنج ١٢١
معجم ألفاظ المعالجة ومعانيها ١٢٢
مختارات من النصوص العربية شعراً ونثراً ١٢٢
فوائد ١٢٢
قِدَم النحو ١٢٣
فَعْل وأفعال ١٢٤

مُدخر الشواهد ١٢٥
جمال اللغة العربية ١٢٦
مقالات نقدية ١٢٧
١)أربع مقالات نقدية ١٢٧
٢)مقدمة كتاب طوق الحمامة ١٢٩
بحوث نحوية ١٣١
من نصوص البزم النثرية ١٣٨
الفاعل لا يكون جملة ١٣٨
العربية في الجنة ١٣٨
المجمع ١٣٩
طلائع الجحيم ١٤٠
المعاجم وأربابها ١٤١
الاختيار من شعر المعاصرين ١٤١
نحاة اليوم ١٤٢
تصعيب النحاة للنحو ١٤٦
نهضة اللغة والأدب ١٤٦
المنطق في اللغة ١٤٦
جعل الضرورات لغات ١٤٦
رسالة البزم إلى رئيس المجمع ١٤٧
البزم شاعراً – ديوانه ١٤٨
عناوين الديوان وإحصائيات ١٥٥
مقدمة الديوان ١٥٧
محمد البزم معلماً ١٦٠
كليات ١٦٢
المعجم النحوي ١٦٢

المعجم اللغوي ١٦٣
الخطأ والصواب ١٦٤
أبحاث ملحقة بقواعد النحو، وشواهد ١٦٤
العامل والمعمول ١٦٤
إنشاء ١٦٥
قصائد ١٦٨
استظهار ١٦٨
أمثال عربية ١٦٩
رباعيات، وثلاثيات، وثنائيات، وأحاديات ١٧٠
أبيات تتضمن قواعد نحوية ١٧١
محمد البزم في قاعة الدرس ١٧٣

الفصل الرابع

في أغراض شعره وخصائصه الفنية

في أغراض شعره ١٧٦
الشعر الوطني والقومي ١٧٧
الغزل ١٨٥
الوصف ١٨٨
النقد الاجتماعي ١٩٠
الهجاء والتعريض ١٩٤
الإخوانيات ١٩٧
الرثاء ٢٠٠
الحكمة ٢٠٣
شعر البزم وخصائصه الفنية ٢٠٥

الشعر والشاعر ٢٠٥
في صنعة الشعر ٢٠٧
تأهيل الغريب في شعره ٢١٦
الابتكار والتوليد ٢١٩
من فنون البديع ٢٢٥
لزوم ما لا يلزم ٢٢٦
أصداء تراثية في شعر البزم ٢٢٨
ملامح شعبية ٢٣٠
تذييل: محمد البزم ونقد شعره ٢٣٤
الصور والوثائق ٢٣٩
في المصادر والمراجع ٢٥١
الكتب المطبوعة ٢٥١
المجلات والدوريات ٢٥٤
ندوات ومحاضرات ٢٥٤
مراجع حية ٢٥٥
المخطوطات ٢٥٦
فهرس ٢٥٩

تنضيد وإخراج: عمار البخاري